
أنا الكتاب
وهذه سيرتي
سيرة الكتاب ابتداءً من ورق الشجر
وصولاً إلى شاشة الإنترنت
ناصر عاصي

أنا الكتاب وهذه سيرتي

سيرة الكتاب ابتداءً من ورق الشجر وصولاً إلى شاشة الإنترنت

إعداد:

ناصر عاصي

شارك في الإعداد:

- مركز الدراسات والترجمة

- عبدالحليم حمّود

- علي عاصي

الطبعة الأولى 2010 م

الناشـــر



هاتف: 823720 1 961+ فاكس: 825815 1 961+ ص.ب: 13/5687 بيروت ـ لبنان

www.daralmoualef.com info@daralmoualef.com



هاتف: 622 222 6 2 971+ فاكس: 112 222 6 2 971+ ص.ب: 62606 أبوظبي

www.maalem.net info@maalem.net

الطباعة : شركة المجموعة الطباعية / بيروت info@printingroup.com

الفهرس

مقدمة

مع اختراع الطباعة في القرن الخامس عشر، وانتشارها على نطاق واسع في جميع أنحاء العالم المتقدم، تقدمت الوسيلة الكتابية على الوسيلة الشفاهية بمسافة هائلة، ولكنها لم تستطع القضاء عليها، ففي زمن الكتابة اليدوية، مرّت عملية الكتابة بتطورات عديدة، سواء من حيث مواد الكتابة أو من حيث عملية الكتابة نفسها ـ فقد تطورت مواد الكتابة من الألواح الفخارية التي عرفتها بلاد الرافدين قديماً، والأحجار التي عرفها قدماء المصريين، وعيدان البامبو التي عرفها الصينيون القدماء، إلى ورق البردى، ثم إلى الورق الذي سهّل الأمور كثيراً.

كما أن الكتابة المسمارية القديمة، أو التصويرية (مثل الهيروغليفية) أخلت مكانها للكتابة الأبجدية التي انتشرت في معظم أرجاء العالم، وهكذا صارت الكتابة أسهل وأقدر على نقل الأفكار والمشاعر.

أتاح التقدم الإلكتروني الذي شهدناه في أيامنا هذه فرصاً هائلة على جميع مستويات الحياة الإنسانية، وكان مجال الطباعة والنشر من بين المجالات التي طرق التقدم الإلكتروني بابها بشدة، وبسرعة ظهر الكتاب الإلكتروني، وظهرت بعض دور النشر التي تخصصت في هذا النوع من النشر، وظهر في الأفق سؤال يطرح نفسه بإلحاح يقول: هل يمكن أن يؤدي الكتاب الإلكتروني إلى إعلان نهاية عصر الكتاب الورقي؟ وهل ستبقي صناعة الكتاب الورقي وكل ما يرتبط بها من ثقافة وتقاليد

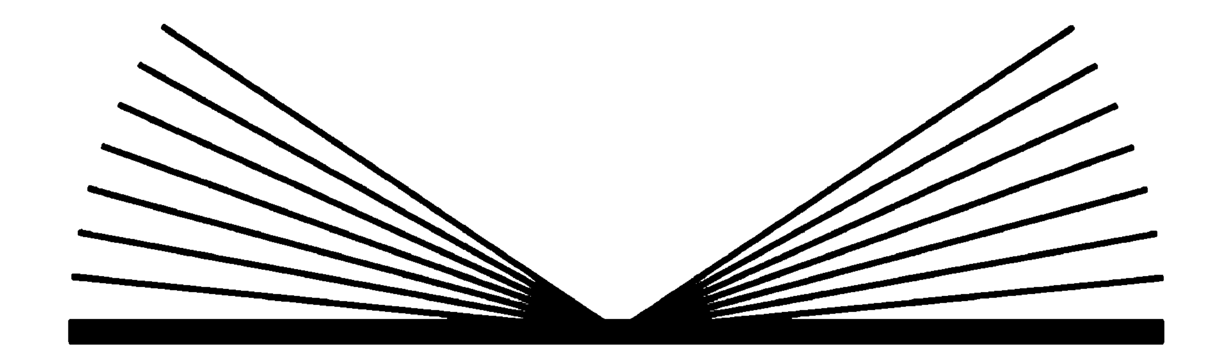
ومفاهيم، فضلاً عن التأثيرات الاقتصادية والاجتماعية التي يمكن أن تنشأ بالضرورة عن غياب الكتاب الورقي؟ وهل يمكن تطبيق التصور نفسه على الصحف والمجلات الورقية؟

شهدت السنوات الراهنة تطوراً متسارعاً في شتى المجالات كانت إحدى ثماره المباشرة وأهمها، اتساع رقعة النشر الإلكتروني على حساب حجم النشر الورقي على مستوى الدول المتقدمة في السنوات العشر المنصرمة، أما في الدول التي يطلق عليها دول العالم الثالث، فتحتاج من عشرين إلى ثلاثين عاماً حتى يصبح لها نصيب يعتدّ به في هذا المجال. ومع حلول العقد الثاني من هذا القرن، سوف تفقد وسائل الإعلام المطبوعة والإصدارات الورقية بوجه عام جانباً كبيراً من أهميتها ودورها نتيجة لتلك التطورات الهائلة، الأمر الذي يعني التحول على وسيلة جديدة هي الاشتراك في خدمات متخصصة تقدمها شركات على شبكة الإنترنت وعلى طريق المعلومات السري مستقبلاً بدلاً من شراء الصحف والمجلات والكتب.

لكن علينا ألاّ نقارب المسألة بهلع وخوف، ذلك أن جلّ المتغيرات التي عرفها الإنسان كانت من إرهاصاتها الأولى مخيفة، لكن الوقت أثبت أن التطور سنّة من أهم سنن الحياة، مع ذلك فللتغير بعض الضرائب التي لابد منها. إن مواكبتنا لسيرة الكتاب صناعةً وتأليفاً، تؤكد أن وصوله إلى شاشة الكمبيوتر ليس بالأمر العرضي، فلكل عصر إيقاعاته الخاصة، لكن مشكلة الكتاب لا تتوقف عند نقطة واحدة أو اثنتين بل هناك التأليف والقراءة والتسويق والدعاية والتصميم والطباعة، وصولاً إلى الحرية والرقابة.

من هنا جهدنا لإعطاء أكبر قدر ممكن من العناصر المدرجة في فهرس الكتاب مستندين إلى آراء متخصصين في عالمي الكتابة والنشر.

قصة الكتاب



المواد والأدوات

تبدأ قصة الكتاب في السهول الخصبة للجزء الجنوبي من بلاد الرافدين حيث أقام السومريون حضارة متقدمة، ومن هذه الحضارة تشربت الحضارات الكبرى التي تطورت في الشرق الأوسط. ففي القرن التاسع أخذت الحفريات الأثرية تكشف عن المدن السومرية وعن أقنية الري والهياكل الضخمة وعن آلاف الرُقم الطينية التي نقشت عليها الكتابة السومرية والكتابة التصويرية، وعاد العلم للاعتراف لهم بالكثير من الإسهامات التي كانت تنسب على مر القرون للشعوب الأخرى، وعلى رأس الإسهامات تأتي الكتابة والكتاب والمكتبات.

الأشكال الأولى للكتاب: تعتبر أقدم الشواهد على الكتابة السومرية هي تلك الرُقم الطينية الصغيرة التي نقشت عليها الكتابة التصويرية التي تعود إلى منتصف الألف الرابعة ق.م، فالسومريون هم أول من ابتدع الكتابة التصويرية ثم طوروها على أن حولوها إلى نظام كتابي تطغى عليه السمات إشارة تصويرية ـ وتزايد هذا العدد نتيجة ارتباط الإشارات بالأصوات، ومما ساهم في التطور المورفولوجي للإشارات الطريقة الجديدة لكتابة هذه الإشارات على الطين الطري بواسطة أقلام رفيعة، كانت تتحرك على شكل مثلث يشبه المسامير، ولذلك سميت بالكتابة المسمارية.

وقد نجح السومريون في تطوير هذه الكتابة المسمارية إلى حد أنهم استطاعوا أن يدونوا بها أدق المفاهيم التجريدية وأدق المشاعر، وكانت أهم الدوافع لتطوير الكتابة دوافع عملية، أي لكي يسجلوا بها الاتفاقات التجارية والمعاهدات مع الدول الأخرى.

وفي الواقع فإن السومريين هم أول من سجل تلك الإنجازات بهدف حفظها للأجيال القادمة. كما أن السومريين هم الذين خطوا الكتاب في الشكل الذي لازمه حتى هذه الأيام أي أن يكون الحافظ للإنجازات الإنسانية الثقافية والتكنولوجية.



أما في نهاية الألف الرابعة ق.م فقد تطورت الحضارة المصرية العظيمة، وحظيت فيها الكلمة المكتوبة بمكانة خاصة، فكانت الكتابات المعقدة التي استعملها المصريون كالهيروغلفية تتطلب تدرباً طويلاً ومتأنياً، وكان المصريون يقدرون الكتاب تقديراً يكاد يقترب من العبادة، وتميزوا بإنتاج عدد كبير من الكتب وشبكة جيدة التنظيم لتوزيع الكتب.

مواد الكتابة: لقد استخدم السومريون على الأغلب الطين مادة للكتابة، وقد تميز هذا الطين بمقاومة التأثيرات المناخية نظراً لصلابته، أما حجم الرقم الطينية فقد كان مختلفاً، من 5 ـ 6 سم إلى 25 ـ 30 سم من حيث الارتفاع. كانت الرقم الطينية تحفظ في الخوابي، وكانت ترتب بعد ذلك على الرفوف.



كان المصريون يكتبون غالباً على الحجارة المسطحة للمعابد وعلى المقابر ثم على الخشب، وقد استعمل الرق للكتابة في حالات خاصة جداً، كتدوين بعض وثائق الدولة التي لها أهمية خاصة. بينما كانوا نادراً ما يكتبون على المواد الطرية، أما الألواح الخشبية فكانوا يتركونها لكتابة النصوص القصيرة. أما أكثر مادة استعملت للكتابة خلال استمرار

الحضارة المصرية فكانت ورق البردى، وكان الكتاب المدون على ورق البردى يأخذ شكل اللفافة، وبقي على هذا الشكل حتى في العهود اللاحقة اليونانية والرومانية.

أدوات الكتابة: استعمل المصريون أقلاماً من نبته تنمو في المستنقعات يتراوح طولها بين 16 ـ 23 سم. وقد كانت هذه الأقلام تقطع بشكل مائل في أحد أطرافها ثم يبرى رأسها كي تسمح بالكتابة الدقيقة جداً.

وقد كانت هذه الأقلام تغمر في حبر أسود أو أحمر ثم يكتب بها على ورق البردى، كما كانت هذه الأقلام تحفظ في محفظة خاصة مصنوعة من القصب تسمى الدواة وأحياناً مصنوعة من العاج أو المرمر وفي هذه المحافظ كانت توجد محبرتان: واحدة للحبر الأسود وأخرى للحبر الأحمر. لقد كانت عدة الكاتب تتمثل أيضاً بكيس صغير مصنوع من القماش أو القطن أو الجلد يسمى الليفة، مخصص لتمديد الحبر قبل استعماله، أو لمسح كلمة مكتوبة بالخطأ وكان الكتّاب يركعون على القدم اليسرى ويجلسون القرفصاء للقيام بأعمالهم.

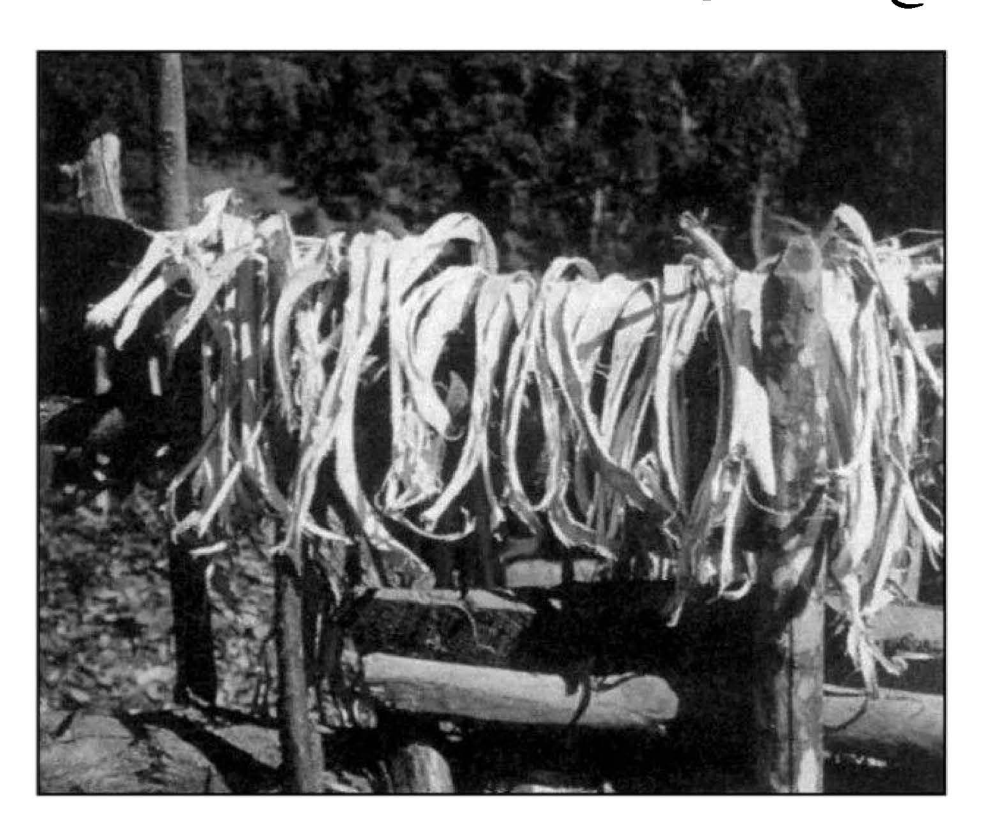
لقد مرت الحضارات الإنسانية بعدة مراحل حتى ظهور الطباعة، كما مرت الكتابة بمراحل حضارية متنوعة صقلت نتيجة الاحتكاك والحوار الحضاري الذي بدأت ملامحه عن طريق التجارة أو عن طريق الحروب، ومن دون الوثائق لا نعرف شيئاً عن هذه الحضارات التي مرت بها الإنسانية، لأن الوثائق ذاكرة الحضارات(1).

---

(1) غادة فقيه، الانتقاد، 2003/10/3.

كيف بدأ اكتشاف صناعة الورق؟

ابتكر الإنسان مادة الكتابة قبل أن يخترع الورق، فقدماء المصريين، منذ حوالي 4000 سنة أخذوا سيقان نبات البردى وقشّروها وبسّطوها، ثم وضعوها متعارضة وضغطوها لتلتصق ببعضها، وعندما تجف تصبح ورقة يمكن الكتابة عليها.



أما اختراع الورق التقليدي فيعزى إلى «تساوي لون» الموظف الإمبراطوري المسؤول في العام 105م عن عدة مصانع، إلا أن بعض نتف الورق اكتشف العام 1957 في با ـ تشياو في منطقة كسيان بالصين في إحدى المقابر التي يعود تاريخها إلى القرن الثاني قبل الميلاد، وقد تبين من التحليلات التي أجريت على هذا الورق أنه كان يصنع من القنّب التي تخلط أليافه بكمية ضئيلة من الكتان، وذلك في عصر أسرة هان الغربية في القرن الثاني قبل الميلاد، أما الورق الذي ابتكره تساي لون فكان يعتمد على لحاء الشجر ونفايات الكتان وفضلات الأقمشة وبقايا شباك

الصيد التالفة. وقد حلّ النوع من الورق بسرعة محل شرائح البامبو والخشب ورقائق الحرير التي كانت تستخدم للكتابة في ذلك الحين.



وتطورت سريعاً أساليب صناعة الورق فانتشرت من الصين إلى البلدان المجاورة: كوريا في القرن الثاني، اليابان والهند الصينية في القرن الثالث، الهند في القرن السابع، أما دخول هذه الصناعة إلى الغرب فبدأت من آسيا الوسطى نحو آسيا الغربية ثم إلى أفريقيا الشمالية (مصر في العام 900، المغرب العام 1100) وانتهى في أوروبا على يد العرب (القرن الثاني عشر).

ويعد كتاب «الطقوس» الذي كتب في سيلوس قرب برجوس أسبانيا أقدم مخطوط أوروبي على الورق ويرجع تاريخه إلى بداية القرن الحادي عشر. عندما اقترب القرن الرابع عشر من نهايته حتى كانت دول عديدة في أوروبا تصنع الورق من أخشاب غاباتها. وفي القرن السادس عشر ظهر في أوروبا أول نوع من الورق يمكن طبعه على وجهيه. وكان

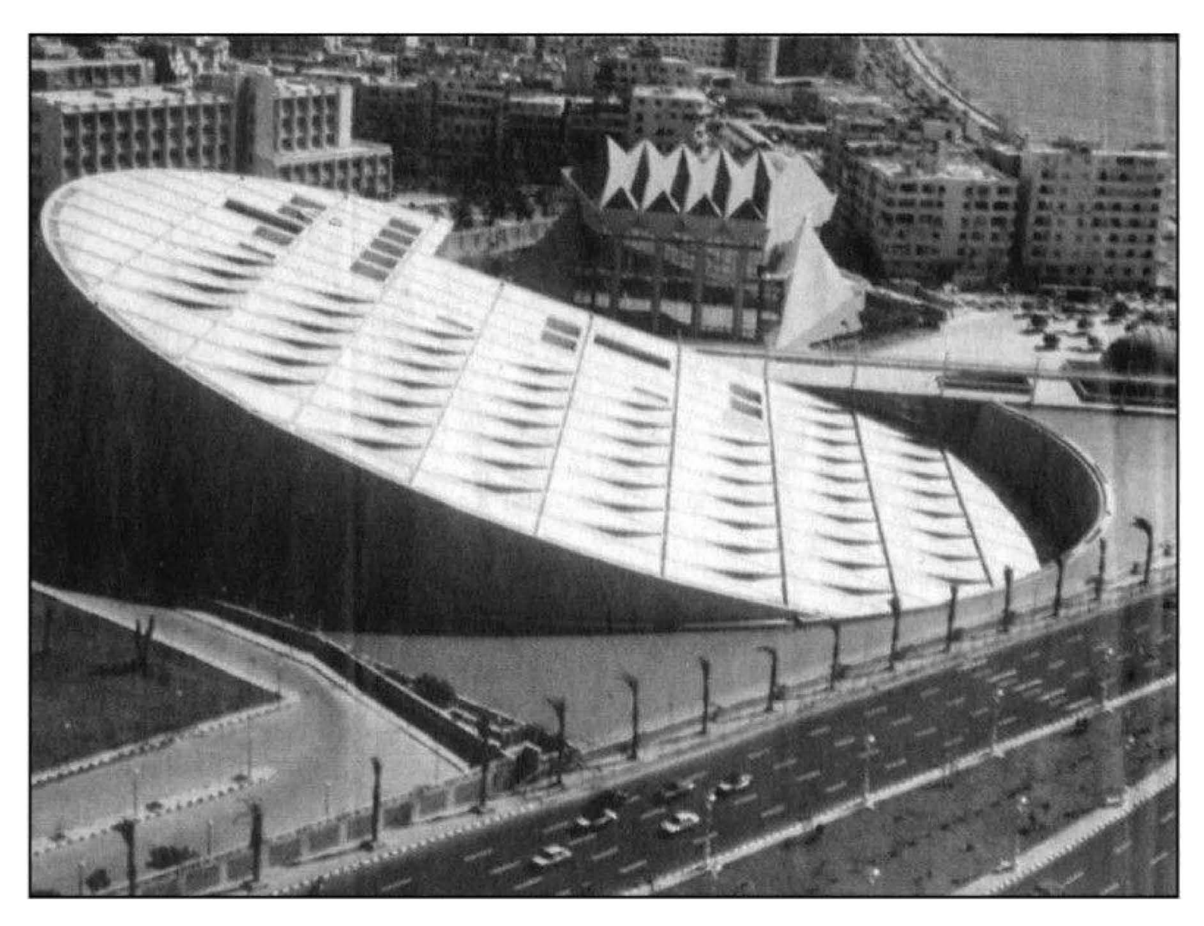
عامل من «أيسون» يدعى «روبير» قد صممّ أول آلة تصنيع ورق على شكل صحائف ذات قياس غير محدد. ونال براءة اختراعه العام 1799 وحظي من الدولة على مبلغ 8000 فرانك كمساعدة ترضية فترك اختراعه «لفرانسوا ـ امبرواز ديدو» الذي باعه لإنكلترا. ومنذ فجر التاريخ كان للورق خصائص مميزة فقد تميزت لفائف البردى التي استخدمها المصريون بسهولة الاستخدام وخفة الوزن من تلك الألواح الفخارية التي استخدمها معاصروهم ـ السومريون القدماء ـ إذ لم يكن البردى بالشيء القابل للكسر أو الذي ينوء الحصان بحمله عند نقله. وهكذا كان الورق بما لا يدع مجالاً للشك وسيلة أكثر رقياً.

كانت السمة المميزة للورق هي قدرته على نقل الخواطر والأفكار، فقد كان بديلاً عن الكلمة المنطوقة، فعن طريق تدوين المعلومات، أمكن تخزينها واسترجاعها ونقلها حسب الرغبة، وكان الورق رقيقاً وخفيف الوزن، واتسم بالمرونة إلى درجة مكنته من استيعاب وتداول كمية كبيرة من المعلومات بكفاءة.

وهكذا تسنى للرسل أن يقطعوا مسافات بعيدة على ظهور الجياد حاملين معلومات دقيقة مكتوبة عن الجهة التي كانوا يقصدونها، وأمكن الاحتفاظ بالسجلات التجارية للصفقات المالية وشحنات البضائع على ظهور السفن. بل أمكن تشييد مكتبات ضخمة بالإسكندرية بمصر هو أحد الإنجازات الرائعة للإسكندر الأكبر، فقد كانت أعجوبة الزمان وأضحت كعبة يحج إليها كل راغب في المعرفة وقاصد للعلم، وظلت على مدى مئات السنين منطقة جذب لِخيَرة مثقفي وعقول العالم، ونظراً لما كان يحفّ الأسفار في العصور القَديمة من صعوبات وخطورة إلى جانب البطء الشديد، فقد كان خط الدراسة والبحث متوافراً لقلة من

الباحثين في الإسكندرية، وكانت الدراسة في تلك المكتبة العظمى مساوية للدرجات العلمية المتاحة اليوم من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا MIT ، أو جامعة هارفارد أو يل Yale.

وعلى الرغم من فوائده الجمة، وكل ما أداه للجنس البشري وكل آلاف السنين التي خدمنا فيها على خير وجه، فإن الورق يتقادم بسرعة كبيرة، وقد نشهد في القريب العاجل آخر الكتب الورقية. أما أطفالنا فمن المؤكد أنهم سيشهدون اختفاء الورق، فاليوم نجد أن كل المعرفة التي ضمتها مكتبة الإسكندرية العظيمة قد تضمها عادة أسطوانات مدمجة CD-ROMS وفي عصر الأنفوميديا سيكون في متناول الشخص العادي ثروة لا يمكن تخيلها من المعلومات.



لقد صمد الورق لامتحان الأزمان، إلا أنه لم يعد الوسيط الأمثل لحفظ المعلومات وتداولها وإدارتها. فهو وسط «استاتيكي» ساكن لا

ينبض حياة، يقتصر على الكلمات والصور، وهذا المزيج المتدفق من الصور والكلمات في أفضل حالاته ليس سوى بديل رديء للوسائط السمع بصرية، إن مجرد ملاحظتك للوقت الذي ينفقه الأطفال طواعية بصحبة كتاب أو مجلة (دون إرغام من الآباء) في مقابل ما يقضونه من وقت أمام التلفزيون أو ألعاب الفيديو، سيؤكد لك أنهم ينجذبون تلقائياً للتلفزيون حتى وإن كانوا يستمتعون بالقراءة، فإن كانت الصورة تساوي ألف كلمة، فإن فيلم الفيديو جدير بمليون.

قد تكون المعلومات في الورق مناسبة في بعض الأحيان، إلا أنها في أحيان أخرى تكون في غاية السوء إذا ما أريد تداولها وتنظيمها، فمن اليسير تداول كتاب واحد أو مجلة أو صحيفة، أما نقل وتداول أعداد كبيرة من الكتب والمجلات فهو أمر عسير للغاية. وكم هي المشقة التي يتحملها محب القراءة إذا ما أراد الانتقال من منزله إلى سكن جديد، من نقل صناديق الكتب والمجلات وغير ذلك من الوريقات والقصاصات كما أن توفير المكان الملائم للمكتبة الورقية لهي معاناة واستنزاف للوقت.

إن آفة كل باحث ومتخصص وكاتب إنما تكمن في الوصول إلى الحقائق الصحيحة أو النذر اليسير من البيانات، فالعالم يعج بكمية كبيرة من المعلومات التي تتضاعف كل سنتين تقريباً، فإن روافد محيط المعرفة لا تنضب أبداً. إن المشكلة الحقيقية لا تتعلق بالكم وإنما بالوسائل المحددة للوصول إلى المعلومات وعجزنا عن الحصول على المعلومة المطلوبة، فمن العجيب أننا نسبح في بحر زاخر من المعلومات دون أن ندري كيف نروي ظمأنا.

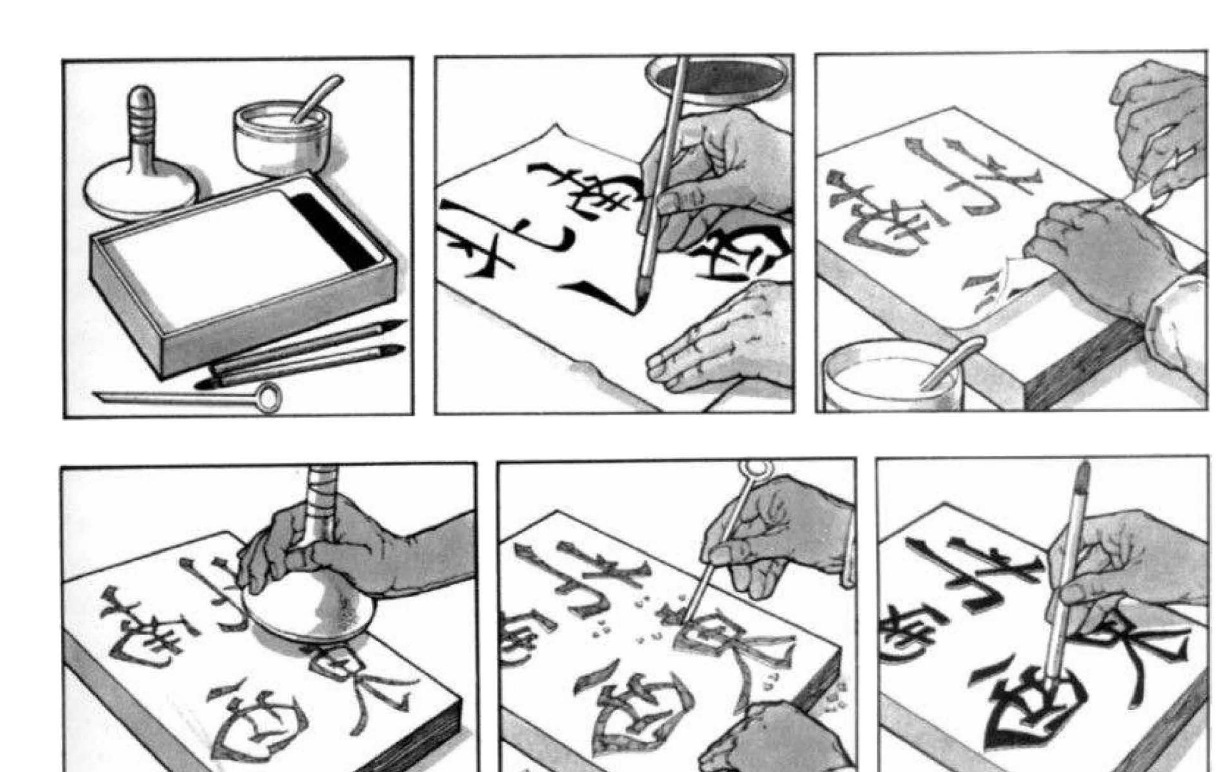
من المهم دائماً أن نوجّه اهتمامنا إلى المرض لا العرض، فالمشكلة لا تكمن في المعلومات ونموها المذهل، حيث مسألة كمّ المعلومات وحدها لا تعدو كونها عرضاً، بينما تكمن المشكلة الحقيقية في عجزنا عن إدارة المعلومات، وعجزنا عن تخزين كمّ كبير من المعلومات والوصول إليها بطريقة فعالة، وعجزنا عن إتاحة عالم المعلومات للجميع.

إذن فإن الحل هو تخزين المعلومات إليكترونياً، وإدارتها واستدعاؤها. فاليوم ليس هناك ما يحول دون استخراج وتخزين ونشر المادة الورقية المطبوعة إليكترونياً، ومن السهل تماماً نقل الكلمات والصور باستخدام الكمبيوتر الشخصي أو التلفزيون التفاعلي أو حتى الصندوق العلوي الذكي، سيكون طريق المعلومات فائق السرعة هو قناة تغذية المعلومات لمنازلنا ومكاتبنا، ولقد أصبح حقيقة وشبكة أن تحل البنية الأساسية للتكنولوجيا محل الورق.

ويرزح الناشرون تحت ضغط بسبب اقتراب موعد نهائي أكثر أهمية من مجرد إصدار صحيفة الغد في الموعد المطلوب، فهم على موعد مع تكنولوجيا الإعلام الجديدة، فقد انتقلت منتجاتهم من الكلمات والصور على الأوراق مطبوعة إلى منتجات محوّسبة جديدة من الوسائط المتعددة في سهولة ويسر. ترى إلى متى ستصمد قطاعات النشر الكبرى ـ الصحف والمجلات والكتب والموسوعات والمراجع ـ أمام هذه التغييرات المحتومة: وهل سيكتشف الناشرون التقليديون للمواد الورقيــة مع جيل جديد من الناشرين الإليكترونيين؟ أم تراهم يتركون لهم الساحة؟ إن إجابات تلك الأسئلة هي التي ستصوغ مستقبل تلك الصناعة.

كيف كانت بدايات الطباعة؟

إن كانت التجارب الأولى في النقش أو الحفر تنسب إلى إنسان ما قبل التاريخ «الإنسان المنتصب» متروكة في العظام أو العاج، فإن الأختام التي تركتها السلالات الحاكمة في كل من مصر وبابل تعتبر إحدى أهم المراحل التي خطاها الإنسان في تاريخ الطباعة أما الطبعات الأولى على الورق، فتعود إلى القرن الخامس حيث استخدمت في الصين الألواح الخشبية المنقوشة والمبللة بالحبر الأسود لطبعها على الأوراق أو الأقمشة بهدف الحصول على نسخ عديدة مطابقة للرسم الأصلي.



ويعتبر «يانغ يه» أحد كبار الطابعين الصينيين، الذي طبع العام 868 كتاب «جواهر الحكم» وجاء من بعده «بي شنغ» الذي صنع العام 1041 أول أحرف متحركة طباعية من الفخار عرفها العالم. لكن الأبحاث الدقيقة في تاريخ الطباعة تستند إلى وثيقتين تاريخيتين: الأولى صينية من صنع «سن ماكونغ» وتعود إلى القرن التاسع، والثانية كورية تعود إلى

العام 1377 أشير في مقدمتها إلى أن «الكتاب المذكور قد تم طبعه بواسطة أحرف بارزة خاصة»، وصدر من بعده العام 1403 قرار من الملك «تاي شونغ» يأمر باستبدال الأحرف الخشبية بأخرى نحاسية لطباعة الكتب ونشرها..

التطور العملي للمطبعة[1]

في مطلع القرن الخامس عشر اخترع الكوريون شكلاً من لوحة الأحرف المتحركة يكاد يتطابق بالكامل ـ على حد تعبير الدارس الفرنسي هنري جين مارتن ـ مع اختراع غوتنبرغ. وربما يكون الاختراع الغربي قد ظهر إلى حيز الوجود بفضل الأخبار التي وصلت إلى أوروبا عما كان يحدث في الشرق. وقد انتشرت ممارسة الطباعة في كل أرجاء أوروبا عن طريق عمال الطباعة من اليهود الألمان، وبحلول العام 1500 أنشئت مطابع في أكثر من 250 مكاناً في أوروبا: 80 منها في إيطاليا، 52 في ألمانيا، 43 في فرنسا، وقد وصل الطباعون بازل العام 1466 وروما (1467) وباريس وبيلزن (1468) وفينيسيا (1469) وليوفين وفالينسيا وكراكو وبودا (1473) ثم وستمنستر (حي في مدينة لندن) (1476) وبراغ (1477). وبحلول العام 1500 كانت هذه المطابع قد أنتجت حوالي 27 ألف طبعة جرى تداولها في هذه المدن، وهو ما يعني ـ على افتراض مدى طباعي قدره 500 نسخة في الطبعة الواحدة ـ انتشار حوالي 13 مليون كتاب في وقت كان فيه سكان أوروبا 100 مليون نسمة، ومن هذه الكتب أنتج مليونان تقريباً في فينيسيا وحدها. في حين كانت باريس مركزاً مهماً آخر للطباعة، حيث كانت تضم بين جنباتها 181 ورشة طباعة في العام 1500.

---

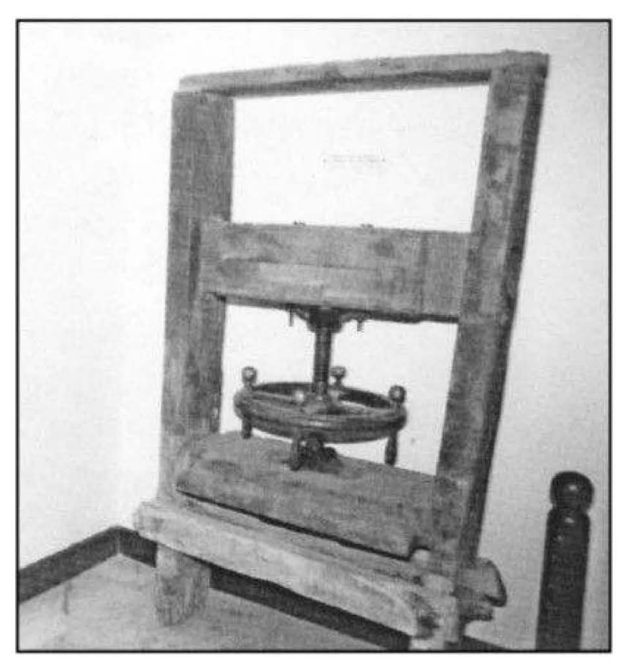
(1) آسيا بريغز ـ بيتربورك، التاريخ الاجتماعي للوسائط، عالم المعرفة، الكويت أيار 2005.

في مقابل ذلك، نجد أن الطباعة كانت بطيئة في اختراق روسيا والعالم المسيحي الأرثوذكسي بوجه عام، وهي منطقة تضم حاليا صربيا ورومانيا وبلغاريا. كانت السريالية هي الهجائية السائدة، وكانت المعرفة بالقراءة والكتابة مقتصرة فقط على رجال الدين. وفي العام 1564 عاد أحد أبناء روسيا البيضاء ـ تدرب في بولندا ـ إلى موسكو بمطبعة، ولكن سرعان ما دمر الغوغاء ورشته. بيد أن هذا الموقف تغير في بدايات القرن الثامن عشر، وذلك بفضل جهود القيصر بيتر الأكبر (حكم من 1686 ـ 1725) الذي أنشأ في العام 1711 مطبعة في سان بطرسبرغ، وتلا ذلك إنشاء مطابع مجالس الشيوخ (1719) في بطرسبرغ وموسكو ومطبعة الأكاديمية البحرية (1721) ومطبعة أكاديمية العلوم (1727). على أن أماكن إنشاء هذه المطابع توحي بأن القيصر كان مهتماً بنشر القراءة والكتابة والتعليم في المقام الأول من أجل نشر العلم الحديث والتكنولوجيا، وخاصة التكنولوجيا العسكرية، بين أبناء الشعب الروسي، وحقيقة أن الطباعة وصلت في وقت متأخر جداً إلى روسيا تكشف أن الطباعة لم تكن فاعلاً مستقلاً، وأن ثورة الطباعة لم تكن فقط تعتمد على التكنولوجيا فالطباعة تحتاج إلى ظروف اجتماعية وثقافية مواتية لكي تنتشر، وقد كان افتقاد روسيا جمهوراً متعلماً يمثل عائقاً رئيسياً أمام نشوء ثقافة الطباعة.

وفي العالم الإسلامي ظلت مقاومة الطباعة قوة على امتداد أوائل العصر الحديث، حتى أن الدول الإسلامية كانت بالفعل هي العائق أمام انتقال الطباعة من الصين إلى الغرب، ووفقاً لسفير إمبريالي في اسطنبول في منتصف القرن السادس عشر كان الأتراك يرون أن طباعة الكتاب المقدس (القرآن) شيء محرم، وقد كان الخوف من الهرطقة هو الأساس

في معارضة الطباعة والتعليم الغربي. وفي العام 1515 أصدر السلطان سليم الأول (حكم من 1512 ـ 1520) مرسوماً يقضي بتنفيذ عقوبة الإعدام فيمن يمارس الطباعة. وفي نهاية القرن السادس عشر سمح السلطان مراد الثالث (حكم من 1574 ـ 1595) بتداول الكتب المطبوعة غير الدينية المكتوبة بأحرف عربية، وهذه الكتب كانت في الغالب مستوردة من إيطاليا.

كان بعض الأوروبيين فخورين بتفوقهم التقني في هذا المجال، وفي ذلك يربط هنري أولدنبرغ، السكرتير الأول للجمعية الملكية بلندن وأحد المهتمين بالاتصال العلمي، يربط غياب الطباعة بالاستبداد قائلاً في خطاب يعود إلى العام 1659 «إن الحاكم التركي عدو لتعليم رعاياه، إذ يرى أن جهلهم في مصلحته، ولذلك فإنه لا يطيق فكرة وجود الطباعة على أرضه معتقداً أن الطباعة والتعليم، وبخاصة من ذلك النوع الموجود في الجامعات، هما الوقود الرئيسي للانقسام بين المسيحيين».



إن تاريخ الطباعة المتقلب في الإمبراطورية العثمانية يكشف عن قوة العوائق التي حالت دون انتشار هذا الشكل من أشكال الاتصال، وهو نفسه ما حدث مع الصور البصرية. فأول مطبعة تركية لم تعرف طريقها إلى الوجود إلا في القرن الثامن عشر، أي بعد أكثر من 200 عام من إنشاء أول مطبعة عبرية (1494) وبعد أكثر من 150 سنة من إنشاء أول مطبعة أمريكية (1567). وقد جاء إنشاء هذه المطبعة

بعد أن أرسل مَجَريّ اعتنق الإسلام، (كان في السابق رجل دين بروتستانتياً)، بمذكرة إلى السلطان حول أهمية الطباعة، وفي العام 1726 صرح له السلطان بطبع الكتب، ما عدا الدينية منها. ومع ذلك ظلت هناك مقاومة من جانب النساخ والقادة الدينيين. إلا أن هذه المطبعة الجديدة لم تطبع سوى عدد قليل من الكتب، بل لم تدم هي نفسها طويلاً. وبالمثل لم تنشأ الصحيفة العثمانية الرسمية إلا في العام 1831، في حين ظهرت أول صحيفة غير رسمية باللغة التركية في العام 1840 (أنشأها رجل إنجليزي).

إن الفكرة القائلة بأن اختراع الطباعة كان فاتحة لعهد جديد فكرة قديمة، سواء أتمت مناقشة التقنية الجديدة (الطباعة) بمفردها، أو مع اختراع البارود، أو كجزء من ثلاثية: الطباعة والبارود والبوصلة، تلك الثلاثية التي يرى الفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون (1561 ـ 1626) إنها هي التي «غيرت كل الأشياء في كل أنحاء العالم» في حين كتب الكاتب الفرنسي ميشيل دي مونتيني (1533 ـ 92) قبل ذلك بجيل مذكراً قراءه بأن الصينيين كانوا يستفيدون بالفعل بفوائد الطباعة منذ «ألف عام». وفي عام 1641 كتب صمويل هارتليب، الأوروبي الشرقي الذي كان منفياً في بريطانيا، وكان من أنصار الإصلاح الاجتماعي والثقافي، أن «فن الطباعة سوف ينشر المعرفة لدرجة أن الناس العاديين سيرفضون الحكم الاستبدادي، إذ سيصبحون بفضل الطباعة على معرفة بحقوقهم وحرياتهم».

لقد احتفل بالمئوية الثانية للطباعة العام 1640، أي قبل موعدها بعشر سنوات وفقاً للدارسين الحديثين، والمئوية الثالثة العام 1740، وفي موجز تاريخ العالم الشهير الذي نشر العام 1795 وضع ماركس



دي كوندرسيه (1743 ـ 1794) الطباعة مع الكتابة باعتبارها من المعالم الأساسية فيما يسميه المؤلف «تقدم العقل البشري». وقد رافقت رفع الستار عن تمثال غوتنبرغ في مدينة مينز العام 1837 احتفالات حماسية، «بين أصلاء المدافـــع رفـــع الستـــار عن التمثال، واشتركت آلاف الأصوات في غناء ترتيلة، وبعد ذلك جاءت الخطب، ثم العشاء والولائم، ثم الحفلات الراقصة والخطب الدينية وسباقات القوارب ومسيرات أضواء الكشافات... وقد شرب الجميع نخب غوتنبرغ».

في بدايات العصور الوسطى كانت المشكلة تتمثل في نقص الكتب وندرتها، ولكن بحلول القرن السادس عشر كانت المشكلة تعود إلى الوفرة، ومن ذلك اشتكى كاتب إيطالي في العام 1550 من أن «الكتب أصبحت من الكثير بحيث إن الوقت لا يكفي حتى لقراءة عناوينها». فقد أصبحت الكتب، على حد تعبير المصلح جين كالفين (1509-64) غابة يتوه فيها القراء، إذ أصبحت محيطاً على القراء أن يبحروا فيه، أو طوفاناً من المادة المطبوعة يصعب فيه النجاة من الغرق.

ومع تضاعف أعداد الكتب، كان على المكتبات أن تتسع، ومع اتساع المكتبات أصبح من الصعوبة بمكان العثور على كتاب معين من على الأرفف، وعليه أصبحت الفهارس ضرورة ملحة، وقد كان على مؤلفي الفهارس أن يختاروا بين ترتيب المعلومات وفقا للموضوع أو الترتيب الأبجدي للمؤلفين، منذ منتصف القرن السادس عشر ظهرت

الببليوغرافيات المطبوعة مشتملة على معلومات عما كتب، ولكن مع تزايد حجم هذه المؤلفات أصبحت ببليوغرافيات الموضوع ضرورة ملحة.

وقد واجه أمناء المكتبات مشكلات تحديث الفهارس ومعرفة المؤلفات الجديدة، وقد كانت الدوريات العلمية تقدم المعلومات عن الكتب الجديدة، ولكن مع تضاعف أعداد هذه الدوريات أصبح من الضروري البحث في مكان آخر عن المعلومات حول الكتب، وحيث إن عدد الكتب الموجودة كان يفوق ما يمكن أن يقرأه المرء طوال حياته، لذا كان من الضروري مساعدة القراء على التمييز عن طريق ببليوغرافيات منتقاة، ومنذ أواخر القرن السابع عشر ظهرت مراجعات المنشورات الجديدة.

إن التعايش بين الرؤى الانتصارية والكارثية للطباعة يكشف عن الحاجة إلى الدقة في أي مناقشة لنتائجها، كان المؤرخ الفكتوري لورد أكتون أكثر دقة من أسلافه، عندما أكد ما يمكن تسميته التأثيرات الجانبية للطباعة، تلك المتمثلة في جعل المعرفة متاحة لجمهور واسع، إلى جانب تأثيراتها العمودية أو التراكمية المتمثلة في تمكين الأجيال اللاحقة من البناء على الأعمال الفكرية للأجيال السابقة، والطباعة عند أكتون كما جاء في محاضرته «حول دراسة التاريخ» (1895)، «ضمنت بقاء أعمال عصر التنوير، كما ضمنت أن تظل الكتابات متاحة للأجيال اللاحقة، بحيث أن كسوف المعرفة والأفكار الذي أضعف العصور الوسطى لن يحدث ثانية، ولن تضيع فكرة واحدة بعد الآن».

إن هذا التقييم للعصور لا يعدو كونه تقييماً أحاديَّ الجانب وكتبيا (يركز فقط على الكتب والثقافة المستمدة منها)، يتجاهل التقاليد الشفهية

ويتناسى كثيراً مما نعتبره الآن من الأساسيات. أما الدراسات الأحدث، وبخاصة تلك التي صاحبت الجدل حول الوسائط، فإن بعضها رفض النظرات القديمة، في حين طورها البعض الآخر، بل غالى فيها في بعض الأحيان، ومثال ذلك أن رأى المؤرخون الاجتماعيون في اختراع الطباعة أنه غيَّر البنية الوظيفية في المدن الأوروبية. ومن ذلك أن الطباعين، أولئك الحرفيين الذين كانت المعرفة بالقراءة والكتابة أساسية لعملهم، أصبحوا يشكلون مجموعة جديدة، وكذلك أصبح تصحيح البروفة الطباعية عملاً جديداً ظهر إلى الوجود بفضل الطباعة، إضافة إلى أن الزيادة في أعداد بائعي الكتب وأمناء المكتبات كانت بالطبع تتبع الانفجار في أعداد الكتب.

الصور المطبوعة: اقترنت نشأة السوق بظهور الصور التي كانت تنسخ ميكانيكياً، وبخاصة «الصور المطبوعة»، وهو مصطلح عام يضم الصور المطبوعة سواء أكان الوسيط المستخدم في صنعها قالباً خشبياً أم لوحاً نحاسياً أم حديدياً، وسواء أكانت الصورة منقوشة على لوح أم منحوتة بفعل الأحماض (كما في حالة حفر الكليشهات).

يعود أول مطبوع خشبي إلى أواخر القرن الرابع عشر، ويحتمل أنه كان مستلهماً من طبع الأشكال على النسيج، حقيقة كانت تنتج بالفعل مجموعات من المطبوعات الخشبية لصور تمثل مناظر دينية قبل جيل كامل من إنتاج غوتنبرغ للكتاب المقدس، وقد تطور حفر الكليشهات في القرنين السادس عشر والسابع عشر (أشهرها كليشهات «ريمبراندت»). وهذه الطريقة التي تقوم على تغطية لوح معدني بطبقة شمعية ترسم عليها الخطوط ثم يغمر اللوح في الحمض، تتميز بإمكان تنويع درجات اللون من خلال غمر اللوح في الحمض أكثر من مرة وإضافة خطوط جديدة،

بحيث تصبح الخطوط القديمة أكثر عمقاً وسواداً. وفي القرن الثامن عشر، جاء اختراع النقش التظليلي باستخدام ثقوب بالغة الصغر ذات أعماق مختلفة كبديل عن الخطوط على الألواح ليحقق مزيداً من التدرجات البارعة، ويمكن من إنتاج نسخ واقعية بالأبيض والأسود من اللوحات الزيتية. وفي العام 1796 اخترع أليوز سينيفيلدر (1771- 1834) الطباعة الحجرية. وهذا الوسيط الجديد، الذي ينتج بالرسم بأقلام زيتية على حجر، مكّن لأول مرة من إنتاج صور ملونة رخيصة.

كان ظهور الصور المطبوعة أكثر التغيرات عمقاً في الاتصال البصري طوال هذه الفترة، إذ يسرت إتاحة الصور على نطاق أوسع من ذي قبل. وسرعان ما اجتذب صنع الصور المطبوعة فنانين بارزين من فناني عصر النهضة من أمثال بوتشيللي، الذي انتج سلسلة من الرسوم التوضيحية «للكوميديا الإلهية» لدانتي على قوالب خشبية.

النشر (والتجليد) في أمريكا زمن المستعمرات

إن بدايات صناعة نشر الكتب في أمريكا يمكن إرجاعها إلى القرن السابع عشر، عندما كانت المستعمرات النامية تحتاج إلى نشر قوانين، اقتراحات أمام الحكومة، ووثائق رسمية مصدّقة من قبل التاج. كثيراً ما كانت تطبع هذه «الكتيبات» BOOKLETS من قبل طباعين موافق عليهم رسمياً والذين كان يعمل في ورشهم أيضاً مجلّدو الكتب. في الحقيقة كانت طباعة ونشر العقود الحكومية المصدر الرئيسي لتجارة الطباعين في زمن المستعمرات أما الدخل الإضافي فكان مصدره طباعة المطبوعات الدينية، مثل كتب المزامير أو مجموعات المواعظ الدينية، وفي كثير من الأحيان كانت هذه الكتب «المنشورة» نسخاً فردية، ليس لها أي علاقة بالتوزيع الجماهيري.

لقد أمضى مجلدو الكتب في أمريكا في زمن المستعمرات معظم وقتهم في تجليد مطبوعات المواطنين الخاصة والذين كانوا يحتفظون بالنسخ الوحيدة لها. بعض أعمالهم كانت تجليد الكتب المؤلفة من قبل العميل بناء على طلبه. وكانت هناك كتب أخرى هي الكتب المقدسة التي كثيراً ما كان يعاد تجليدها لتنتقل من جيل إلى جيل. إذا دخلنا ورشة تجليد الكتب الخاصة بـ جوزيف رويل JOSEPH ROYLE في وليامزبيرغ، فرجينا. في صيف 1765، قد نلتقي بعميل يطلب تجليد كتاب أغاني، وآخر يطلب تجليد كتاب صلاة، وقد يدخل توماس جفرسون THOMAS JEFFERSON يطلب تجليد كتاب تاريخ فرجينيا، واثنان من الكهنة جاءا لإعادة تجليد نسخهم من الكتاب المقدس.

بالإضافة إلى الكتب المطلوبة من قبل العملاء كان هناك جانب مربح آخر لهذا العمل هو طباعة دفاتر الأساتذة LEDGERS الفارغة ودفاتر المحاسبة Account Books. هذه مع بعض الأدوات الكتابية أبقت على استمرارية عمل مجلِّد الكتب.

في زمن المستعمرات في أمريكا مثلاً إذا كنا قرأنا فرجينيا غازيت Virginia Gazette الصادرة بتاريخ 19 أغسطس 1780، فلا بد قد رأينا فيها إعلاناً من قبل ثوماس برند THOMAS BREND يعرض فيه بيع كتب لتعليم الحروف الهجائية، وكتب المزامير، كتب للجيب، دفاتر فارغة، ودفاتر محاسبة.

إن التغييرات التي حدثت في تجليد الكتب في أيام المستعمرات القديمة تبعت التغييرات التي حدثت في صحف تلك الأيام، وبعد إعلان الاستقلال، زاد الطرفان في تنوع مضمون إنتاجهما وتوزيعه[1].

---

(1) جون، ر. بيتنر، الاتصال الجماهيري (ترجمة عمر الخطيب) المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت 1987، ص 121-122.

قصة الطباعة بالحروف العربية

في صحيفة «النهار» (12-11-2006) كتبت مهاة فرح الخوري عن الطباعة بالحروف العربية وسيرتها فقالت إن قصة الطباعة بالأحرف العربية قصة مثيرة. لماذا؟ لأنها تعرضت لمغالطات عديدة وأثارت جدلاً طويلاً. أرّخ لها بعض الكتّاب والمهتمين، منهم من أصاب فكان نتاجه صحيحاً وموثقاً، ومنهم من لم يصب فأتانا بروايات غير موثّقة. لا أخفي أن هذا الواقع أثار فضولي ودفعني إلى محاولة لم تكن سهلة، وكانت صدفة أن قرأت توضيحاً من القنصلية الهولندية في حلب موقّعاً من حسين عصمت المدرس في جريدة «تشرين» بتاريخ 2005/10/17، مفاده أن مطبعة حلب العربية، أنشأها البطريرك الأنطاكي أثناسيوس الثالث دباس، وكان المدرس قد أقام معرضاً لكتب الطباعة الحجرية الأولى، وبينها كتاب «المزامير»، وهو الأول باللغة العربية في الشرق، وباكورة إنتاج مطبعة حلب عام 1706، وأيضاً كتاب «صخرة الشك» الأخير الصادر عام 1721 عن تلك المطبعة في حلب.

وكانت لي ثانية صدفة العودة إلى أبحاث، وكتابات قديمة وحديثة، كان الفضل في جلّها لنسيب أمضى سنوات طويلة، وبذل جهداً كبيراً في تقصي الحقيقة وهو أنطوان قيصر دباس (بيروت، لبنان). ثمرة هذا الجهد أربعة كتب (مخطوطات) قيد الطباعة، موثّقة بمراجع عربية وأجنبية عديدة، وضعها مشكوراً بين يدي، إنها بدون شك تاريخ صادق أمين لفن الطباعة العربية، لنشوئه ولسيرته ولتطوره.

غدت الحقائق في المراجع المذكورة أمانة في عنقي عليّ أن أدفعها للنشر أو أذيعها.

قرأت: «البطريرك أثناسيوس الثالث دباس الدمشقي بطريرك أنطاكية وسائر المشرق، رائد النهضة العربية، مؤسس أول مطبعة عربية لغة وحرفاً في المشرق. لكن المطبعة العربية في الغرب أسست وعملت في القرن السادس عشر وتتابعت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، بينما لم تبرز الطباعة العربية في المشرق إلا بعد مرور حوالي قرنين ونصف على وجودها في أوروبا».

في عام 1495 منعت طباعة اللغة التركية والفارسية بأحرف عربية من قبل بايزيد الثاني، بينما لم يتحرك العثمانيون ولم يعترضوا حين أسس البطريرك دباس المطبعة العربية.

ألا يحق لنا بل من واجبنا أن نعرف حقيقة ظهور أول مطبعة عربية في المشرق؟ من هو البطريرك أثناسيوس الثالث دباس الدمشقي؟

ترقى عائلة دباس بجذورها الأولى إلى أذرع ـ حوران الشام، وتاريخها يعود إلى القرن الرابع عشر 1386، وجدّها الأول ـ عبد المسيح ـ سكن تلك المنطقة ثم انتقلت العائلة إلى دمشق وتفرعت وتوزعت بين القدس واللد وحيفا ويافا وبيروت والقاهرة.

نشأ البطريرك وترعرع في مدينة دمشق، وفي عائلة أغلى ما لديها إيمان راسخ بالله، واحترام وحب للكنيسة الأرثوذكسية الأنطاكية، وفي مدينة القديس بولس سمع نداء ربه فلباه في القدس وبذل نفسه للخدمة في سلك الكهنوت وراح يغتني بعطايا الله ونعمه.

تتلمذ في دير القديس «سابا الكبير» في القدس الذي يعتبر ظاهرة مميزة في تاريخ الكنيسة، ومركزاً ثقافياً ولاهوتياً مهماً في القرنين السابع والثامن عشر. من هذا الواقع لا نستغرب اهتمام البطريرك وسعيه الحثيث في إنشاء مطبعة عربية في أبرشية حلب.

«نظر البطريرك العلامة إلى الإنسان وإلى ما يتوقع خالقه منه، أياً كان دينه أو مذهبه، وحثه على لقاء أخيه الإنسان، والاقتراب من الآخر بغية التعارف والتكامل المبنيَّين على احترام متبادل، فنظم لقاءات واجتماعات وحوارات لممثلي مختلف الكنائس وعقد حوارات مهمة مع رجال الدين الإسلامي، وكان لهذه المبادرات الأثر الطيب في بناء علاقات مودة واحترام وتجاوز الخلافات لبلوغ ما يبني ويوحد بين أفراد الأسرة البشرية».كان رجل انفتاح وعلم وقداسة.

حياة البطريرك أثناسيوس حافلة بالشؤون الدينية والثقافية والإيمانية والترجمية والإبداعية التي يتعذر الإحاطة بها أو رصدها بمقال، وأرى من واجبي أن أركّز على كيفية تأسيس المطبعة إذ إنها على أهمية بمكان خاص بمناسبة إطلاق «حلب عاصمة للثقافة الإسلامية» في العام 2006 الذي قارب على الانتهاء.

بأية صفة أطلق البطريرك دباس فكرة إنشاء مطبعة وتنفيذها؟

تمت سيامته رئيس أساقفة في عام 1685 وأرسل إلى دمشق، ثم في العام نفسه أصبح بطريركاً فترأس أبرشية حلب. وفي عام 1705 انتخب رئيساً لكنيسة قبرص وعاش متنقلاً بين حلب وقبرص.

أول تجربة طبع باللغة العربية وبالحرف العربي ظهرت في عامي 1701 بفضل أمير الفلاخ قسطنطين برانكوفياني، بناء على رغبة البطريرك الأنطاكي الأرثوذكسي الدمشقي أثناسيوس في دير «والدة الإله»، في بوخارست، وقد وفر الأمير الأموال اللازمة لحفر الحروف العربية بكل دقة.

كانت هذه المحاولة الأولى من مشروع البطريرك دباس الهادف إلى

إقامة مطبعة عربية في الكنيسة الأنطاكية. وكان قد أعرب عن حاجته إلى كتب دينية مطبوعة باللغة العربية.

هكذا بدأت حركة النشر العربي في بوخارست مع بداية القرن الثامن عشر ثم في أسبانيا وبعدها في فيينا الخ، فبلغ عدد الكتب المطبوعة بالعربية ستة وخمسين كتاباً، وكانت بوخارست (رومانيا) تمهيداً لظهور المطابع العربية في المشرق: حلب، الشوير، جاسي (مولدوفا) وبيروت..

بعد انتخاب البطريرك الدباس رئيساً لكنيسة قبرص لم تتمكن مطبعة رومانيا من متابعة العمل بشكل جيد، أما الكتب المطبوعة بالعربية فقد وزعت مجاناً من قبله على كنائس إنطاكية. عاد بعد ذلك إلى المشرق (بلاد الشام) فاستقر رئيساً على الكنيسة الأنطاكية الأرثوذكسية في مدينة حلب، وأنشأ مطبعة عربية جديدة (هدية من أمير الفلاخ) ونقل معه مجموعة مهمة من المخطوطات، وبدأت المطبعة بالعمل عام 1706.

تولى البطريرك مهمة الناشر إذ تعهد اختيار المخطوطات ومراجعتها قبل نشرها، وعمل معه فريق فني في إعداد الأحرف وتصفيفها، مؤلف من الشماس جرجس الحلبي والراهب ميخائيل بزي وعبد الله الزاخر وأخيه نعمة.

تأتي أهمية هذه المطبعة كونها أول ورشة طباعة داخل الإمبراطورية العثمانية تصدر كتباً عربية. بهذا الصدد، قال البطريرك دباس: «عملت مع مجموعة أشخاص حيث إن الله وفقنا إلى طبع الحرف العربي».



ـ ما هي الأمكنة التي أسست فيها مطابع بعد رومانيا وحلب؟

في عام 1726 أسست مطبعة ثالثة في أسطمبول، أتبعت بثلاث ورش للطباعة في جبل لبنان: الشوير عام 1734، جاسي مولدوفا عام 1745، وفي بيروت عام 1751.

تعتبر ظاهرة تأسيس ست مطابع عربية خلال نصف قرن على أيدي مطبعيين وحفارين ذهبوا إلى جبل لبنان وبيروت من حلب، نقطة تحول وتطور، أقدم عليها المجتمع العثماني في القرن الثامن عشر لبلوغ مرحلة جديدة من الإصلاح والنهضة، لعب فيها الكتاب العربي المطبوع دوراً حيوياً بارزاً.

تجدر الإشارة إلى أنه في تلك الحقبة لم يكن نقل الآراء الجديدة والمعارف العصرية وتداولها والتعريف بها على نطاق واسع ممكناً إلا عبر الكتاب المطبوع، كما أن أفكار الإصلاحيين التي ظهرت في تلك الفترة، جاءت تعبّر عن رغبة شديدة في تغيير المجتمع والتوجه نحو

استخدام أدوات ثقافية متطورة ، طبيعي جداً إذن أن نعي أن فن الطباعة وجد في الشرق وتألق بفضل البطريرك الثالث دباس الدمشقي، وأن إنشاء المطبعة ساهم في وضع الكنيسة الانطاكية في ركب الحضارة والدفاع عنها بواسطة الكلمة.

كان اختراع الطباعة بالعربية العامل الرئيس الذي نشّط حركة التعريب على حساب النشاط التأليفي، وكان البطريك دباس من أغزر البطاركة الإنطاكيين نتاجاً على صعيد الأدب الديني، والنقل عن اللغة اليونانية، وحركة الطباعة التي وقفت حاجزاً أمام التراث الديني القديم.

ثمة واقع فرض نفسه: إذ أنتج تأسيس الدولة العربية واقعاً جديداً في الكراسي الشرقية وخاصة في بطريركية إنطاكية، وكان طبيعياً أن يتقلص استعمال اللغتين اليونانية والسريانية في الحياة العامة لمصلحة اللغة العربية. وأصبحت هذه، اللغة الرسمية مع تعريب الدواوين، كما ازدهرت في العصر العباسي حركة نقل الفلسفة والعلوم والأدب المسيحي إلى العربية وطبع عدد من الكتب القيّمة في مطبعة حلب الإنطاكية، عمد البطريرك دباس إلى ترجمتها من اليونانية وأشرف شخصياً على طباعتها، كان باكورتها: الكتاب المقدس بعنوان «الإنجيل الشريف الطاهر» (238 صفحة). وهناك قول مسجل للبطريرك بهذه المناسبة: «شرعت بطبعه بعد أن حررته عن اللغة اليونانية ووضعته جملة جملة وأصلحت إعرابه لفظة فلفظة». وأتبع بكتاب «المزامير».

في عام 1707 صدر كتاب «الدرّ المنتخب من مقالات القديس يوحنا فم الذهب» (24 مقالة أدبية دينية). وفي عام 1711 صدر كتاب «عظات البطريرك الأورشليمي أثناسيوس 1460-1468» (66 عظة). وفي عام 1718 صدر «صخرة الشك» بطبعته الأولى في مدينة «لايبزغ» وبعد

نقله إلى العربية من قبل البطريرك نشر في مدينة لندن. يؤرخ الكتاب لتاريخ الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية، ويقال إنه أثار في حينه عاصفة هوجاء ضد البطريرك.

وإذا ما عدنا إلى نهاية القرن السابع عشر، نكتشف أن البطريرك وضع تاريخ البطاركة الإنطاكيين من عهد بطرس الرسول إلى أيامه، وأهداه باليونانية إلى أمير رومانيا برانكوفياني بينما فقدت النسخة العربية.

ثمة مجموعة كبيرة من الكتب النسكية والقانونية والدفاعية، ومن ترجماته عن اليونانية كتاب في صناعة الفصاحة (1718 في فن الخطابة). ثم منهاج الصلاح لبغية النجاح عام 1723، اسم البطريرك مرتبط بتعريب وترجمة النصوص القانونية في الكنيسة الإنطاكية، وهو صاحب أهم مجموعة قانونية باللغة العربية، وتاريخ المجامع المسكونية الأول والثاني والثالث والرابع (في الأول حياة الإمبراطور قسطنطين)، كان الدباس متعمقاً في فقه اللغة العربية، ويتمتع بمؤهلات فكرية وأدبية مشهود لها.

في الفترة الممتدة بين 5 آب 1724 وتشرين الثاني 1725 نقلت المطبعة التي أسسها البطريرك في حلب مع كامل تجهيزاتها وآلاتها من المطرانية إلى لبنان بينما نقلت المخطوطات والكتب والرسائل ومعظم الأرشيف إلى المقر البطريركي في دمشق.

كان للمطبعة بالأحرف العربية تأثير كبير على الحياة الثقافية والدينية والأدبية في بلاد الشام وخاصة على الحلبيين، وانتشرت المدارس والمساجد والكنائس وحلقات التعليم ونافست كبريات المدن العربية، ونبغ تحت سمائها كتّاب وشعراء وأرباب الفن والصناعة، وبتشجيع من البطريرك أثناسيوس ظهر الفن البيزنطي الأصيل بين أبناء

كنيسته، وبرز تصوير الأيقونات وبعض الأواني المقدسة من قبل الخوري نعمة الله بن الخوري يوسف المصور في 1686 (الوالد يوسف بن الحاج أنطونيوس بن رعد المصور رسام بارز مبدع ظهر من عائلته أربعة رسامين للأيقونات بدءاً من الأب يوسف المصور ثم نعمة الله ثم حنانيا وابن الحفيد جرجس).

والأيقونات التي أبدعها رسامو الأيقونات في حلب نجدها اليوم في كاتدرائية الروم الأرثوذكس في حماه (أيقونة «ميلاد السيد المسيح»، و«الدينونة» في دير البلمند كما أيقونة تمثل «ملوك ورؤساء الكهنة»، وأيضا أيقونة «العذراء الهادية»... الخ).

نشط فنانون آخرون (موسى بن أسطفان) في الرسم على الخزف الصيني، وجبرائيل بن ميخائيل لباد الحلبي في فن النسخ وآخرون في فن الأيقونات: حنا القدسي ويواكيم بن زلعوم، كما نشطت حركة التعريب من اللغة اليونانية، وخاصة تعريب المخطوطات، وممن اهتموا بهذا الجنس وربما الفن، الشماس عبد الله بن فضل الأنطاكي 1635. وقد أقام معهد العالم العربي في باريس عام 2003 نشاطاً ومعرضاً للنهضة الفنية والثقافية، يتحدث عن تركه مدرسة حلب الفنية الثقافية في عهد البطريرك أثناسيوس الثالث دباس.

ولا بد من الإشارة إلى أن الحلبيين توارثوا حب الثقافة والإبداع والذوق وراحوا يبارون أئمة العلم وأقطاب الفن في أقطار العالم وأمصاره.

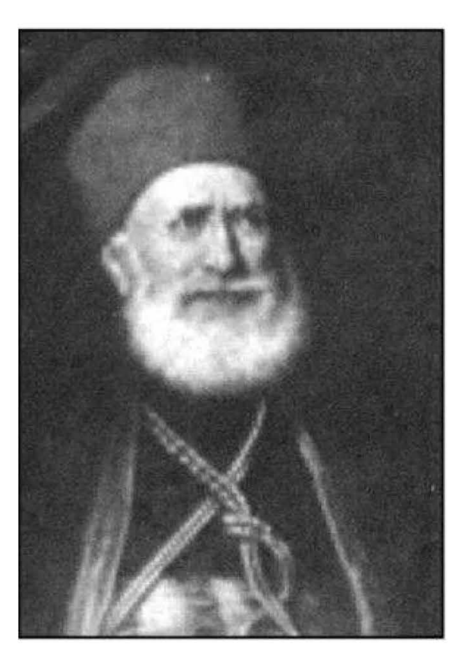
في القرن الثامن عشر زادت ملفات الحلبيين بمفردهم على ما ألّف وصنف في سوريا ومصر والعراق، ويعود الفضل الرئيس في هذا الإنتاج إلى إنشاء أول مطبعة حرفاً ولغة في الشرق إبان الحكم العثماني. يقال «إن

ازدهار هذه المدينة واتساعها وجمالها وموقعها وقوة اقتصادها آنذاك جعلها أشبه ما يمكن بمدينة ليون الفرنسية العريقة» ولا نستغرب اليوم أنه تمت توأمتها مع المدينة الفرنسية الثانية.

انتهز المناسبة لأردد بعضاً من أقوال لمفكرين وعوا ما تقدمت به: كتب جرجي زيدان: «السوريون أسبق المشارقة إلى الطبع بالأحرف العربية وأسبق المدن إلى هذا الفضل حلب».

وكتب المؤرخ المعروف عيسى اسكندر المعلوف «إن للحلبيين اليد الطولى في صناعة الطباعة بفضل بطريركهم أثناسيوس الثالث دباس الذي انتقل إلى رومانيا واشتغل في مطبعتها وهو صاحب الفكرة والفضل في تأسيس أول مطبعة عربية لغة وحرفاً في المشرق».

مطبعة بولاق



يعود تفكير محمد علي باشا في إنشاء مطبعة في القاهرة إلى اهتمامه بإنشاء الجيش المصري، لنشر القوانين والتعليمات العسكرية ولطبع الكتب اللازمة لتعلم أفراد الجيش وقد دعم رأيه بالتوافق بين تاريخ تكوين الجيش المصري وتاريخ إنشاء مطبعة بولاق، علماً أن الكتب الأولى التي أخرجتها المطبعة كان أكثرها متصلاً بالجيش.

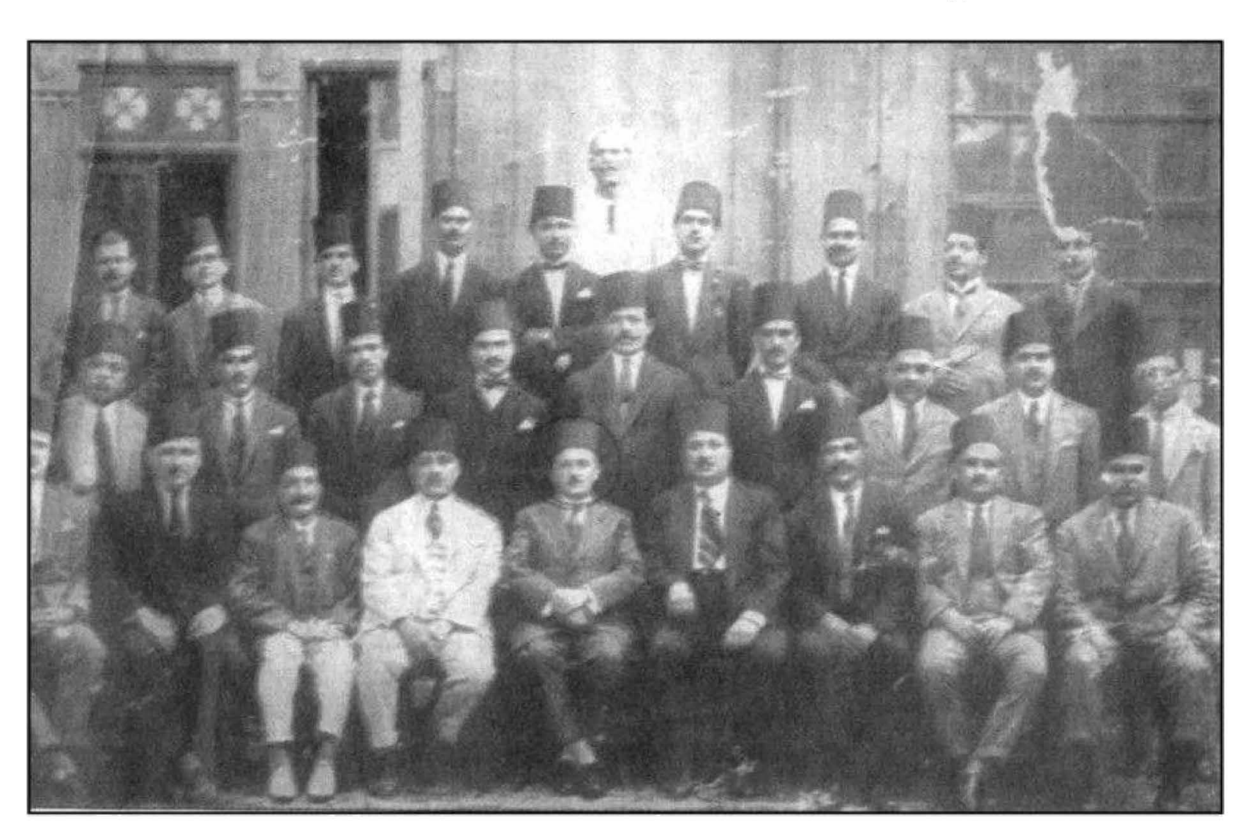
يعتبر مشروع المطبعة جزءاً من مشروع سياسي كبير، ذلك أن الدولة الحديثة في حاجة لطبع القوانين واللوائح والمنشورات الإدارية

التي صنعت لتنظيم الإدارة المصرية، كما أنها أنشئت لطبع ما يحتاجه الجيش من كتب وقوانين فضلاً عن أنها أنشئت من أجل خدمة التعليم والمدارس.

أدرك محمد علي باشا أهمية إنشاء المطابع بمصر، فأوفد نيقولا مسابكي أفندي إلى إيطاليا نحو 1815 للتخصص في فن الطباعة، ودرس نيقولا هذا الفن على يد الأستاذ موروزي، وتعلم مع ثلاثة من زملائه سبك الحروف وتشغيل قوالبها وعهد إليه الباشا بإنشاء مطبعة «صاحب السعادة» أو المطبعة الأميرية ببولاق، فكانت أول وأهم مطبعة أنشئت في عهد محمد علي عام 1820، والتي تعد أساس البعث الفكري الذي قامت عليه نهضة مصر في العصر الحديث. وقد اضطلعت مطبعة بولاق بالقسط الأكبر من هذه المهمة، فأصدرت الكتب التي جعلت التعلم في المدارس الحديثة أمراً ممكناً، وحققت مطبوعاتها الانقلاب الفكري.

مطبعة بولاق طاعنة في السن، غير أن ثمة ما يحيل شيخوختها شباباً دائماً، أصبح عمرها اليوم 190 عامٍ لم تشكُ التعب يوماً في حياتها المديدة، ومع ذلك أفرد لها البهو الرئيسي لمكتبة الإسكندرية لتساهم في إغناء المقتنيات المتحفية هناك، وتشهد على بداية النهضة الثقافية والعلمية في مصر والوطن العربي، بدءاً من القرن التاسع عشر. لهذه المطبعة التي استراحت أخيراً في متحف المكتبة المذكورة، قصة طويلة مع التاريخ الحافل لمصر الذي انطلق بقوة مع الوالي محمد علي باشا الكبير، فقد أنشأها هذا الأخير تجسيداً لسياساته التنموية، وتعبيراً عن طموحاته في بناء دولة معاصرة تأخذ بأسباب الدول الكبرى في مطلع القرن التاسع عشر.

أنشئت في 27 أيلول سبتمبر من العام 1820 على الضفة الشرقية لنهر النيل، وذلك بمرسوم أميري، لتزويد الجيش المصري بما يلزمه من مطبوعات ووثائق وتعليمات. وأسند محمد علي لإدارتها نيقولا مسابكي، ثم أوفده إلى إيطاليا للتخصص في فن الطباعة، وبعد عودته في العام 1822، مارس المسؤوليات الملقاة على عاتقه براتب شهري قدره خمسة جنيهات[1].



في العام 1826، أتبعها الوالي لديوان الجهادية باعتبارها مخصصة لشؤون الجيش المصري، وفي العام 1837 ألحقت بديوان المدارس، ويُعزى لها الفضل في تلك الأثناء، في طباعة عدد من أمهات الكتب، مثل: ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، وصباغة الحرير، وعجائب الآثار في التراجم والأجنار. وبمرور الزمن، تغير أسمها فأطلق عليها: «المطبعة

(1) المستقبل، 2005/9/14

الأميرية في بولاق»، ثم «مطبعة عبد الرحمن رشدي»، ثم «المطبعة السنية»، في عهد الخديوي إسماعيل، ثم «مطبعة بولاق الأميرية» في عهد الخديوي توفيق. وبقيت على هذه الحال حتى العام 1956 عندما أصدر الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، قراراً بإنشاء الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية التابعة لوزارة الصناعة، وانتقلت المطبعة وقتئذ إلى الضفة الغربية لنهر النيل لتحتل مساحة تقدّر بخمسة وثلاثين ألف متر مربع. وتم افتتاحها في العام 1973.

شهدت «بولاق» فترات من التأرجح بين الصعود والهبوط، فقد تضاءلت أهميتها في عهد الخديوي عباس حلمي الأول، واقتصر دورها، في تلك الأثناء، على طبع الكتب المدرسية. أما المؤلفات الأدبية والمخطوطات، فكانت تطبع على نفقة الأفراد. ولم تكن أحسن حالاً في عهد الخديوي سعيد باشا الذي أهداها إلى عبد الرحمن بك رشدي (مدير الوابورات الأميرية). بعد ذلك اشتراها الخديوي إسماعيل في العام 1865 بعشرين ألف جنيه، ثم أقدم على تجديدها بإدخال المحرك التجاري لتشغيل الآلات الجديدة التي أصبح بمقدورها طباعة الرسوم والخرائط.

ولدى اشتداد الشعور القومي في مصر، استردها الخديوي توفيق في العام 1880 خشية استخدامها في نشر الوعي السياسي، وأصدر قراراً بفصل مطبعة «الوقائع المصرية» عن «بولاق» وأضاف إليها مطبعة أركان حرب الجهادية، فتضخم إنتاجها. وفي العام 1884 أصبح اسمها مطبعة بولاق الأميرية بعد أن استعيدت إليها مطبعة «الوقائع»[1].

---

(1) المستقبل، 2005/9/14.

تنوعت إصدارات بولاق بين القوانين والوقائع المصرية، والدفاتر الحكومية، والمنشورات واللوائح. وحتى وقت متأخر من عهد محمد علي ظل طبع القرآن محظوراً بمقتضى فتاوى علماء الدين منعاً للوقوع في أخطاء الطباعة. ولم يستمر هذا الوضع طويلاً، فقرر محمد علي مناهضة هذا الأمر وأجبر هيئة العلماء على الإذعان لطباعة القرآن الكريم. وتم في هذا السياق، تخصيص جزء من بولاق لطبع القرآن الكريم عُرف باسم «مطبعة المصحف الشريف».

وكان لمطبعة بولاق السبق في نشر عدد من الكتب الهامة بسبب قيمتها الثقافية ونظراً إلى مادتها الجريئة على نحو لا تتميز به المطابع ودور النشر اليوم. من بينها: ألف ليلة وليلة، الذي طبع مرتين في عهد محمد علي، ومرة ثالثة في عهد الخديوي سعيد، في حين لا تتوافر نسخة كاملة من الكتاب في الوقت الحاضر. ومن المؤلفات القيمة التي طبعت في تلك الأثناء: «الفتوحات المكية»، لابن عربي و«وفيات الأعيان»، لابن خلكان، و«رجوع الشيخ إلى صباه» لابن كمال باشا، وكتاب النحو العربي للإمام محمد بن داود، وتاريخ قدماء الفلاسفة الذي عربه رفاعة الطهطاوي، وسواها من أمهات الكتب التراثية.

وتضم المطابع الأميرية في مصر اليوم، متاحف صغيرة تحتوي على أهم إصدارات «بولاق» مثل: العدد الأول لجريدة «الوقائع المصرية» وكتاب «ألف ليلة وليلة» في طبعته الأولى عام 1279هـ وكتاب «في علم الحساب» والمطبوع في العام 1236 هـ، وسواه[1].

---

(1) المستقبل 2005/9/14.

نشر الكتب المدرسية جماهيرياً

بعد مرور ربع قرن على الاستقلال الأميركي، ولد وليم هولمز ماك غفي WILLIAM HOLMES MCGUFFEY في كليزفيل، بنسلفانيا. وأصبح في ما بعد واحداً من أعظم المربين في ذلك الوقت، وقد تبوأ مناصب مختلفة من معلم في مدرسة حكومية إلى أستاذ لغات، وبعد ذلك عمل كرئيس لكلية سنسيناتي ومن ثم جامعة أوهايو في أثينز، ولكن أكثر ما اشتهر به ماك غفي هو تأليف الكتب المدرسية للمراحل الابتدائية والتي كانت تعرف بكتب أو بقراءات ماك غفي الانتقائية ECLECTIC READERS وهي كتب صممت لتعليم اللفظ الجيد والقدرة على القراءة.

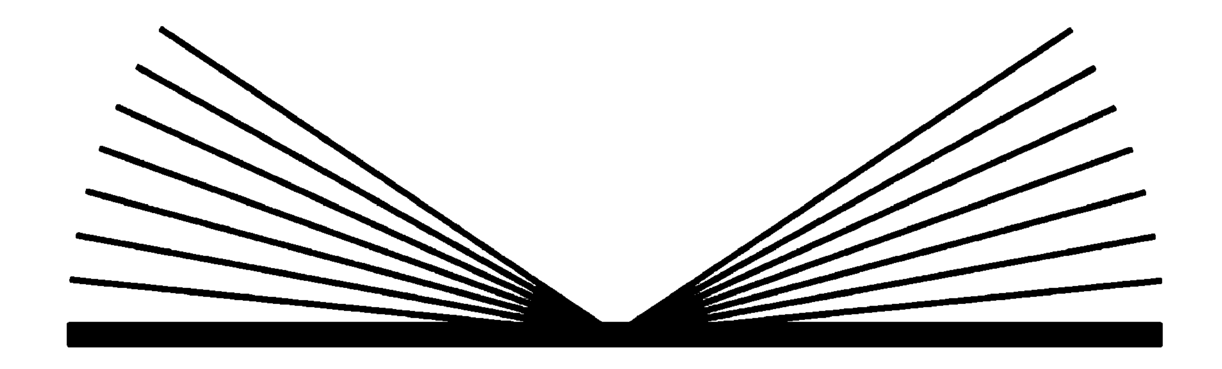
لقد كانت كتب ماك غفي مدرسة ليس فقط في التعليم بل في نشر الكتب أيضاً. إن مجموع ما كتبه ماك غفي بين 1836 و 1857 بلغ الستة كتب أو قراءات مصممة لمستويات مختلفة من الإنجاز، وحيث كان هدفها التعليم التدريجي وحمل الرسالة الأخلاقية MORAL MESSAGE، فقد وضعت بشكل يجعل التلميذ يتخرج وينتقل إلى المرحلة التالية من القراءة بعد الانتهاء من المرحلة السابقة. ومع الازدياد المستمر في شعبية هذه القراءات ازداد نشر النسخ الجديدة منها، وأستمر عطاؤها كذلك إلى جزء كبير من العقد الأول من القرن العشرين.

إذا أخذنا بعين الاعتبار عنصر الزمن فإن انتشار قراءات ماك غفي إلى 122 مليون نسخة تقريباً يعتبر ظاهرة حينذاك. اليوم، نجد النسخ الأصلية لهذه الكتب في حوزة هؤلاء المهتمين بجمع الأشياء القديمة أو على رفوف المتاجر التي تبيع الأنتيكات، لقد وضع هؤلاء في عصرهم الأساس لحقبة جديدة من نشر الكتب تخطت الفصل المدرسي إلى الجمهور العام.

روايات الدَّايم

جاء الدافع للنشر على نطاق واسع بعد عام 1850 بفترة قصيرة عندما توفرت السبل والرغبة لإنتاج الكتب التي أصبحت الأساس لكثير من صناعة النشر الحالية. في ذلك الوقت قرر ناشر من نيويورك يدعى ي.ف بيدل E.F. BEADLE أن باستطاعته بيع الكتب إذا كانت رخيصة الثمن وإذا لبت حاجات الجمهور بالنسبة للترفيه والنثر الأدبي الجيد. فبدأ بنشر كتاب أغانٍ غلافه من الورق وكان ثمنه عشرة سنتات. بعد ذلك بقليل جازف بنشر «روايات الدايم» DIME NOVELS الورقية الغلاف والتي أصبحت في ما بعد أفضل المبيعات BEST SELLERS حتى بمعايير أواخر القرن التاسع عشر المتواضعة لم تكن روايات بيدل طويلة، في حدود خمس وسبعين صفحة فقط ـ وكان معظمها عن الروّاد الأميركيين AMERICAN PIONEER.

واقع النشر في العالم العربي



أزمة النشر عربياً

صار من تقاليد النشر العربي عموماً ترديد لازمة الأزمة المستديمة للكتاب، والحديث عن الإشكاليات الناجمة عنها والمرتبطة بها، كتسويق الكتاب وضعف انتشاره وسوء توزيعه، وتعدد وتعارض الرقابات التي يتعرض لها، وصعوبة وصوله إلى الأسواق العربية الأقرب والأبعد، بالإضافة إلى المشكلة الأهم: تراجع الإقبال على القراءة أمام الهجمة الواسعة والمتواصلة لوسائل الإعلام السمعية والبصرية. ففي حين قبل عقود، كانت الأمية السبب الرئيسي في نخبوية القراءة والقرّاء، أصبح الإيقاع السريع للحياة اليومية، وارتفاع استهلاك الإعلام الترفيهي والثقافة الجماهيرية السطحية لمجمل أوقات الفراغ عاملاً لا يمكن إغفاله في إبقاء الكتاب حكراً على شريحة معينة تهتم بالثقافة وتعنى بالأدب.

في هذا الفصل نطل على حالة النشر في بيروت بين الأمس واليوم، وبيروت هنا النموذج المركزي الذي تقاس عليه صناعة الكتاب وآليات توزيعه.

أيضاً نطل مع الكاتب والصحافي والناشر رياض الريس لتقفيّ أثر الأزمة عربياً، فالعوائق لا تبدأ مع التأليف ولا تنتهي مع التسويق.

كذلك نعرّج على حال الكتاب في الجزائر، ونتوقف عند «الوكيل

الأدبي» الذي يقدمه لنا فخري صالح، إنما ننطلق من التاريخ الغائب لصناعة النشر العربية:

تاريخ غائب لصناعة النشر العربية

هل ثمة تاريخ مكتوب لصناعة النشر العربية؟ هل نجد تاريخاً يجلو أثارها على تحولات الثقافة العربية، ويضع اليد على الانعطافات الجذرية التي طرأت على الفكر العربي المعاصر بتأثير الكلمة المطبوعة والانتقال من عصر الخطابة والشفوية إلى عالم الحروف السحري الذي يجعل الكلام المطبوع أقرب إلى المقدس منه إلى الكلام اليومي الذي يذهب في الأثير ويتبخر حال النطق به؟

ذلك قطاع من التاريخ والتسجيل التاريخي أو ما يدعى في علم التاريخ Historiography، شديد الأهمية ولكنه، كما يبدو شبه مهمل، أو أنه ربما غير معترف به في أقسام التاريخ في الجامعات العربية المشغولة بأشكال من المعرفة التاريخية يشوبها النقص والتقليد وإغفال حراك المجتمع وطبقاته وشرائحه المختلفة لمصلحة تاريخ رسمي جامد ومحتشد أحياناً بالنفاق وممالأة الحاكم[1].

لكن ما يلفت الانتباه هو أن صناعة النشر في العالم، وتاريخ أصحاب دور النشر، والعاملين في تلك الصناعة، من محررين ومصممي أغلفة وحتى مبتدعي الحروف بأشكالها وأحجامها المختلفة، هي الآن مدار قراءة وتوثيق، وموضوع بحث الكثير من الكتب التي تلقى رواجاً واهتماماً واضحاً في الغرب.

---

(1) فخري صالح، الحياة، 2005/9/27.

ميزة بعض هذه الكتب أنها، فيما هي تؤرخ لصناعة النشر الغربية وتكتب سير الناشرين وترصد مسارات عملهم، تؤرخ للثقافة والتحولات المجتمعية وعلاقة البيئة السياسية، الاجتماعية بانعطافات الفكر وطرق عيش الناس وهمومهم في حقبة من الحقب. ليست صناعة الكتب، في هذه الحال، مجرد عمل يبغي الربح ومراكمة الثروة فقط بل هو مرتبط بمشاريع ثقافية، والتزامات سياسية وفكرية، وطموحات لإشاعة أشكال من التفكير وطرق العيش والإيديولوجيات الكبرى[1].

كتابان اثنان صدرا قبل أيام كلاهما يتناول سيرة حياة ألين لين Allen Lane منشئ دار بنغوين البريطانية الشهيرة، الأول منهما بعنوان «حياة ألين لين وأزمانه» لجيريمي لويس، والثاني بعنوان «بنغوين وتصاميمها» لفيل بينز. وهما كتابان طريفان بالفعل لأنهما يؤرخان لتحولات الثقافة في المملكة المتحدة من خلال دار نشر، وطموحات رائد في صناعة النشر البريطانية وربما العالمية، والمثير في الكتابين هو رصدهما لبعض التفاصيل الخاصة بحياة ألين لين وخياراته في النشر، واهتمامه بتطوير صناعة النشر في العالم الناطق بالإنكليزية وصولاً إلى تصميم الأغلفة وأنباط الحروف وأشكال ظهورها على الصفحة المطبوعة، وهو ما جعل دار بنغوين الشهيرة، بطبعاتها الورقية الموجهة للقارئ المحدود الدخل، وخياراتها النشرية الواسعة المتشعبة، واحدة من أهم دور النشر في العالم[2].

---

(1) المرجع السابق.

(2) المرجع السابق.

يذكر في هذا السياق أن كتاباً آخر صدر عام 2002 يؤرخ لمئة عام من حياة ملحق التايمز الأدبي، الذي يعد أهم صحيفة لعروض الكتب، لا في بريطانيا وحدها، بل في العالم كله، وقد قرأ كتاب «الأوقات الحرجة: تاريخ ملحق التايمز الأدبي» الذي أعدّه «ديرويت ماي»، لا تاريخ الملحق الشهير فقط بل التاريخ السري للثقافة البريطانية، خصوصاً أن اثنين من أهم كتّاب بريطانيا المعاصرين، وهما ت.س إليوت وفرجينيا وولف، كانا من بين كتّابه الأساسيين الذين كتبوا بعض ما كتبوه من دون أسماء، وقام مؤلف الكتاب بالتعرف إلى موادهم المنشورة في سنوات العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي استناداً إلى الأرشيف الذي احتفظ به ملحق التايمز الأدبي. من هنا فإن النسخة الإلكترونية من الملحق المنشورة على الإنترنت تعيد تثبيت الأسماء المغفلة على المقالات المنشورة ما بين عامي 1902 ـ 1972، وهي الفترة التي كان ناشرو ملحق التايمز الأدبي يحذفون أسماء كتاب المراجعات ويحرصون على كون المقالات مغفلة التوقيع. والمدهش هو أن يتمكن محررو الملحق بعد مرور مئة عام من التعرف إلى أسماء معظم الكتّاب ويستعيدوهم من النسيان.

تلك بلا أي شك دلالة فعلية على أن فكرة الأرشيف التي تقوم عليها الحضارة الغربية المعاصرة، (كما يؤكد المفكر الفرنسي ميشيل فوكو)، تقع في أساس عملية التسجيل التاريخي التي تبدو ضعيفة في الثقافة العربية الراهنة، باستثناءات قليلة موجودة هنا وهناك ولا تشكل تحولاً فعلياً في مسار الكتابات التاريخية سواء داخل المؤسسة الأكاديمية العربية أو خارجها.

ليس التأريخ لصناعة النشر العربية هو الغائب وحده، كما يبدو لي

بل أن المعرفة التاريخية، بفروعها المختلفة ورؤاها المتعددة للتاريخ وصيغ كتابته هي الغائبة أولاً وأخيراً، مع ذلك كتب الباحث صقر أبو فخر عن النشر في لبنان، في سياق لا يخلو من التأريخ:

بيروت والكتاب[1]

الدولة اللبنانية التي ظهرت إلى الوجود بحدودها الحالية في سنة 1920 لم تكن دولة شمولية على الإطلاق، بل ورثت من الانتداب الفرنسي الدستور والبرلمان وبعض المؤسسات الديمقراطية، واستمرت هذه الحال على ما هي عليه في الحقبة التي أعقبت الاستقلال في سنة 1943، فنجا المجتمع اللبناني من أهوال الأنظمة الشمولية، بينما رزح تحتها العديد من شعوب البلدان العربية. ولعل انحسار سطوة الدولة في لبنان الحديث، وعدم تدخلها، ولو جزئياً، في أمور الرأي والفكر والثقافة، كان لهما الأثر الإيجابي في إطلاق الإمكانات الإبداعية في المجتمع اللبناني، وفي هذا المناخ الحر تقريباً، بدأت دور النشر تظهر في لبنان كحرف عائلية مع ولادته في سنة 1920، لكنها تطورت، فعلياً، بعد الاستقلال أي منذ سنة 1943 فصاعداً إلى شبه مؤسسات. ولا ريب في أن حركة النشر بدأت مع الكتاب المدرسي والجامعي، ولا سيما حينما استقلت معظم البلدان العربية في أربعينيات القرن العشرين، وبرزت الحاجة إلى كتب التعليم. ومع تطور التعليم في لبنان وفي العالم العربي ظهرت مكتبات متخصصة في هذا الحقل أمثال «مكتبة لبنان» (1942) و «دار العلم للملايين» (1944) و «دار الكتاب اللبناني» (1952) و«دار مكتبة الحياة» (1953) وغيرها، وخرجت من مطابعه قواميس كثيرة

---

(1) صقر أبو فخر، السفير، 2007/12/14.

ومعاجم علمية مختلفة مثل قاموس «المورد» (منير البعلبكي) وقاموس «المنهل» (جبور عبد النور وسهيل إدريس) وقاموس «المغني» (حسن سعيد الكرمي) وغير ذلك الكثير. وقد أسهمت دور النشر اللبنانية إسهاماً فائق الأهمية في حركة الترجمة وفي نشر روائع الأدب العالمي، وفي تأسيس صلة ثقافية بين المثقفين في لبنان والأدب العالمي. وحينما أقام النادي الثقافي العربي في «الوست هول» في الجامعة الأميركية سنة 1956 أول معرض للكتاب في لبنان والعالم العربي، كان يؤسس، بالفعل، صلة ثقافية إضافية بين القارئ والمثقف والناشر معاً.

الثقافة والازدهار في لبنان

بـدأ الازدهار العمراني اللبناني غداة النكبة الفلسطينية في سنة 1948، أما العصر الذهبي لدور النشر اللبنانية فقد بدأ في ستينيات القرن العشرين بعدما تحولت بيروت إلى ملجأ للمثقفين العرب ورجال السياسة المنفيين إليها.

لم يكن لبنان في ثلاثينيات القرن العشرين ليختلف كثيراً عن الدول العربية المحيطة به مثل سوريا أو فلسطين، بل إن فلسطين كانت أكثر ازدهاراً منه بأشواط. فلبنان في تلك الفترة، كان عبارة عن مجموعة متناثرة من القرى الجبلية الجميلة، والمدينة الوحيدة المزدهرة فيه كانت بيروت، وذلك بفضل مينائها الذي أوقف خدماته التجارية على دمشق والدول العربية الأخرى، وبفضل النشاط التعليمي للإرساليات التبشيرية الغربية. ولم يبدأ الازدهار اللبناني فعلاً إلاّ بعد نكبة فلسطين في سنة 1948. ففي هذه السنة تدفق على لبنان أكثر من مئة ألف فلسطيني حملوا معهم نحو 150 مليون جنيه إسترليني مرة واحدة (ما يعادل 15 مليار

دولار بأسعار اليوم). وأطلق هذا التدفق فورة اقتصادية شديدة التأثير. فاليد العاملة الفلسطينية المدربة أسهمت في تنمية السهول الساحلية اللبنانية، والرأسمال النقدي أشاع حالة من النشاط الاستثماري الواسع. وكان لقفل ميناء حيفا ومطار اللد شأن مهم في ازدهار ميناء بيروت وفي الشروع في إنشاء مطار بيروت الدولي بعدما كان مطاراً صغيراً في منطقة بئر حسن، وفي عامي 1957 و 1958 استقبل لبنان آلاف السوريين الذين انتقلوا بأموالهم إلى مصارف بيروت هرباً من الاضطرابات السياسية وللحيلولة دون تأميمها في سوريا، فكانت القفزة الثانية في الازدهار. وفي مطلع ستينيات القرن العشرين راحت أموال النفط تغرق المصارف اللبنانية، فكانت القفزة الثالثة. ولاحقاً أنعشت نفقات م.ت.ف الاقتصاد اللبناني في بعض قطاعاته ولاسيما قطاعات التجارة والعقارات والمصارف والطباعة وتجارة الورق... الخ.

في موازاة هذا الازدهار العمراني انتعشت دور النشر اللبنانية انتعاشا كبيراً، ولا سيما في ستينيات القرن العشرين فصاعداً، وكانت ذروة الانتعاش في عقد السبعينيات حينما جرى تأسيس العشرات من دور النشر العربية في لبنان، وهذه الحيوية إنما كانت تعكس الاتجاهات المختلفة للحياة الثقافية والسياسية في العالم العربي، فظهور الحركة القومية العربية (البعث والناصرية) ثم صعود اليسار، ثم انبثاق المقاومة الفلسطينية وأفكار الكفاح المسلح، أدى ذلك كله، إلى تدشين مرحلة السجال الفكري والنقدي في العالم العربي، وهذه المشاريع السياسية الكبرى حملت معها أفكاراً شديدة الجاذبية. وكانت الصحافة ودور النشر هي الميدان الطبيعي لنشر هذه الأفكار وللترويج لها في آن واحد. وفي معمعات هذه المساجلات الفكرية والسياسية والعقيدية انبثقت حركة

التجديد في الشعر العربي المعاصر في بيروت بالتحديد، فظهرت مجلة «شعر» على أيدي مجموعة من الشعراء السوريين المهاجرين إلى لبنان هم: يوسف الخال وأدونيس ومحمد الماغوط ونذير العظمة وفؤاد رفقة وكمال خير بك ورياض نجيب الريس إضافة إلى أنسي الحاج وشوقي أبو شقرا وعصام محفوظ. ثم أصدر توفيق صايغ وهو فلسطيني من أصل سوري، مجلة «حوار» لتحتل مكانة مهمة في حركة تجديد الشعر العربي المعاصر، ولعبت مجلة «الآداب» التي أصدرها اللبناني سهيل إدريس دوراً مهماً في المساجلات النقدية في لبنان، وفي هذا المناخ الحيوي والتجديدي صارت بيروت مثل روما بعد سقوط القسطنطينية أي مدينة كوزموبوليتية ازدحمت فيها أسماء كبار مثقفي العالم العربي ومبدعيه. فمن السوريين: قسطنطين زريق وادمون رباط ونزار قباني وعمر أبو ريشة وغادة السمان وصادق جلال العظم وخالدة سعيد وجورج طرابيشي ورفيق خوري وبطرس ديب وعبد الله المشنوق ومنير بشور وجميل صليبا وقدري قلعجي وجبرائيل جبور وحليم بركات ويوسف إيبش وغيرهم كثيرون، ومن الفلسطينيين: وليد الخالدي ومحمد يوسف نجم وإحسان عباس ونقولا زيادة وبرهان الدجاني وزين نور الدين زين ونبيل خوري وأحمد شفيق الخطيب والياس صنبر وصلاح الدباغ وفايز صايغ ويوسف صايغ وأنيس صايغ وغيرهم كثيرون أيضاً.

في هذا الفضاء الحر من الإبداع باتت بيروت مرصودة للمشاريع الفكرية الكبرى، فظهرت فيها «موسوعة الفلسفة» موسوعة «تاريخ الفن» و«موسوعة السياسة» و «الموسوعة العسكرية» وهذه الموسوعات الأربع أصدرتها المؤسسة العربية للدراسات والنشر، وكذلك ظهرت «الموسوعة الفلسطينية» فضلاً عن عشرات المعاجم المتخصصة.

وكان من الصعب جداً أن تظهر مؤسسات البحث العلمي في أي مكان آخر في العالم العربي بالصورة التي ظهرت بها في بيروت، حيث أنشئت على سبيل المثال، مؤسسة الدراسات الفلسطينية (1963) ومركز الأبحاث الفلسطيني (1966) ومركز التخطيط الفلسطيني (1969) ومركز دراسات الوحدة العربية (1976) ومعهد الإنماء العربي (1977). واللافت أن هذه المراكز نشرت كوكبة من المجلات الشهرية والفصلية التي اعتبرت الأكثر رقياً وتأثيراً في لبنان طيلة حقبة الستينات من القرن العشرين وما بعدها، وشكلت إضافة نوعية إلى المجلات اللبنانية الأخرى أمثال «الطريق» و«الثقافة الوطنية» و«الآداب» و«دراسات عربية» وغيرها. وهذه المجلات هي: «شؤون فلسطينية» و«مجلة الدراسات الفلسطينية» و«المستقبل العربي» و«الفكر العربي» و«الفكر العربي الاستراتيجي» و«الفكر العربي المعاصر».

على أن هذه الحرية المميزة التي تمتع بها لبنان بعد استقلاله خرقتها بعض الشوائب المنفرة التي تمثلت بمنع بعض الكتب ومحاكمة مؤلفيها وناشريها، وعلى العموم وقفت جهات دينية وراء الحملات الهوجاء ضد كتب بعينها مثل كتاب «نقد الفكر الديني» لصادق جلال العظم (1970) ورواية «حديقة الحواس» لعبده وازن (1993) إضافة إلى كتب الصادق النيهوم مثل «إسلام ضد الإسلام» و«الإسلام في الأسر» و«محنة ثقافة مزورة»، وكتاب «الروض العاطر في نزهة الخاطر» للشيخ النفزاوي و«شيفرة دافنشي» لدان براون، و«تاريخ القرآن» لنولدكه، و«عندما صار أسمى 16» لأدونيس العكرة.

لبنانيون وعرب

منذ أن دشن الشقيقان خليل وجورج صايغ «مكتبة لبنان» في سنة 1944 توالى ظهور دور النشر في بيروت، فظهرت دار العلم للملايين في السنة نفسها (منير البعلبكي وبهيج عثمان)، ثم ظهرت دار الثقافة في سنة 1953 (خليل طعمه) ودار الآداب في سنة 1956 (سهيل إدريس) ومنشورات عويدات سنة 1957 (أحمد عويدات) ودار الطليعة سنة 1959 (بشير الداعوق) ثم دار النهار سنة 1967 ودار الفارابي سنة 1967 أيضاً ودار ابن خلدون سنة 1972، وبينما كان عدد دور النشر في لبنان سنة 1962 نحو 95 داراً (ومعها 250 مطبعة)، أصبح عددها في سنة 1985 نحو 490 داراً (ومعها 500 مطبعة). وارتفع في سنة 2004 إلى 640 داراً (ومعها 700 مطبعة) وفي هذه الحقبة شهدت بيروت فيضاً من دور النشر العربية التي إما جرى تأسيسها في هذه العاصمة طلباً للحرية، وإما إنها كانت فروعاً لدور عربية طلباً لسهولة المعاملات في الطباعة والتصدير واستعادة المرتجعات. ومن بين أشهر دور النشر الفلسطينية التي أسسها فلسطينيون في تلك الحقبة، دار العودة (1970 ـ محمد سعيد محمدية) والمؤسسة العربية للدارسات والنشر (1970 ـ عبد الوهاب الكيالي) ودار القدس (مازن البندك) ودار الفتى العربي (نبيل شعث) ودار الراتب الجامعية (راتب قبيعة). وأبرز دور النشر أيضاً هي: المكتب الإسلامي (1963 ـ زهير الشاويش) ودار الفكر المعاصر (1967 ـ صفوان جبري ومحمود

سالم) ودار ابن رشد (1977 ـ سليمان صبح) ودار الكلمة (1978 ـ حسين حلاق) ودار التنوير (1981 ـ محمد الزنابيلي) ودار الحقيقة (ياسين الحافظ والياس مرقص) ودار ابن كثير (1986 ـ علي مستو) ودار الحقائق (أحمد منصور) ودار النفائس (1970- أحمد راتب عرموش) والشركة المتحدة للكتاب (992 - رضوان دعبول) ودار النضال (جوزف الياس) ودار ابن حزم (زهير قصيباتي) ومؤسسة الأبحاث العربية (هاني الهندي) ومنشورات نزار قباني ومنشورات غادة السمان، علاوة على دار الكتب الشرقية ودار الكتاب الحديث ودار رياض الريس للكتب والنشر ومركز الإنماء القومي (مطاع صفدي). أما دور النشر العربية الأخرى فكان أبرزها: دار المدى (فخري كريم) ودار الكنوز العربية (عبد الرحمن النعيمي) ودار الغرب الإسلامي (1980 ـ الحبيب اللمسي) ودار الملتقى ودار الكتاب الجديد ودار المدار الإسلامي. ولاحقاً، أو إلى جانبها، ظهرت دار الساقي والدار العربية للعلوم ومؤسسة الانتشار العربي والمركز الثقافي العربي ودار بيسان ودار الفرات ودار الجديد ودار نلسون ودار المؤلف وغيرها بالطبع.

حركة تتسع وأسواق تضيق

حركة النشر في لبنان حركة عربية إلى حدّ بعيد: فهي تعتمد في نموها على الأسواق العربية بالدرجة الأولى وعلى المؤلفين العرب بدرجة أقل، كما أنها شديدة الحساسية للأوضاع المتبدلة في العالم العربي، ومع أن عدد دور النشر يتزايد باستمرار في لبنان فإن الأسواق العربية تضيق بالتدريج وهذه مفارقة عجيبة حقاً، فقد كان ثمة خمس أسواق رئيسة في العالم العربي في السبعينات هي مصر والعراق والسودان والجزائر والكويت، وكانت ليبيا أيضاً دولة مشترية للكتب بكميات كبيرة.

وقد أدت الأوضاع السياسية الداخلية والخارجية المضطربة إلى خروج العراق والسودان والجزائر، ولو مؤقتاً، من مكانتها كأسواق قارئة رئيسية والاكتفاء بهوامش قليلة من الكتاب العربي. وفي الكويت أدى خروج الكتلة البشرية الفلسطينية منها جراء ملابسات الاحتلال العراقي إلى انكماش عدد القراء إلى حدود متدنية جداً. أما في مصر فإن نسبة تداول الكتاب اللبناني والعربي عموماً، ضئيلة: لأن المصريين يكتفون في الغالب بما تنشره دور النشر المصرية.

ويبلغ عدد دور النشر المسجلة في لبنان نحو 640 دارٍ أي أن لبنان يمتاز عن غيره من الدول العربية، بوجود أكبر عدد من دور النشر مع أن دور النشر الفاعلة والأكثر نشاطاً لا تتجاوز الخمسين داراً، وهو يتقدم بذلك على مصر. وتأتي بعد لبنان ومصر في هذا الميدان سوريا فالأردن. وتصدر دور النشر اللبنانية نحو 2700 عنوان جديد[1] في كل سنة بما في ذلك الكتب المترجمة، أي أن لبنان ينتج وحده أقل بقليل من 30% من مجموع العناوين الصادرة في الدول العربية كلها البالغة نحو عشرة آلاف عنوان في السنة، أي أقل من بلجيكا وحدها، بينما تنتج مصر 2500 عنوان جديد سنوياً وسوريا 2500 والأردن 1000 والمغرب 750 والسعودية 500 والجزائر 350 واليمن 250 أما العناوين التي تطبع في لبنان سنوياً فتصل إلى نحو 7500 عنوان، وهي تتضمن الكتب الجديدة إضافة إلى إعادة طباعة الكتب الصادرة سابقاً. وبسبب ضيق الأسواق العربية القارئة فإن الإنتاج الكبير الحجم يبدو معدوماً لدى دور النشر اللبنانية، ومعدل عدد النسخ المطبوعة من الكتاب الواحد تتراوح بين 1000 و 3000 نسخة فقط. أما الكتب التي تطبع أكثر من ثلاثة آلاف نسخة فهي

(1) الإحصاءات تقريبية لعدم وجود إحصاء رسمي.

المعاجم وكتب الأطفال والمراجع المقررة في الجامعات فقط. وربما تستثنى كتب كبار المثقفين والشعراء والكتّاب أمثال محمد حسنين هيكل ودواوين محمود درويش ونزار قباني وأدونيس وروايات غادة السمان ونوال السعداوي والقليل من الكتاب العرب الآخرين، ويستثنى من ذلك الكتب الدينية والمدرسية وكتب التجميل والخرافات والأبراج.

إنّ حال الكتاب في لبنان هي مثل حال العالم العربي تماماً: اضطراب وبلبلة عدم استقرار لأن الإنتاج العلمي والفكري والأدبي والفني مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمستوى التقدم العلمي والرقي الحضاري. ومن البديهي أن يعاني الكتاب العربي في لبنان من عوامل كثيرة تعيق انتشاره وأبرز هذه العوامل:

1 ـ **الأمية** : إن العالم العربي يرزح تحت وطأة 70 مليون أمي من بين 280 مليوناً من السكان. والعجيب أن عدد سكان العالم العربي كان يبلغ في مطلع القرن العشرين 50 مليوناً، وفيه ثلاث جامعات فقط. وكانت دور النشر تطبع من الكتاب الواحد ثلاثة آلاف نسخة، واليوم صار عدد السكان 280 مليوناً وفيه 200 جامعة، وما زالت دور النشر تطبع من الكتاب الواحد ثلاثة آلاف نسخة.

2 ـ **الرقابة** : إن الرقابة في العالم العربي تصنف في ثلاث جهات: رقابة الجهات الدينية، ورقابة الجهات السياسية ورقابة الجهات الأمنية. وتتضافر هذه الرقابات لتجعل انتقال الكتاب من لبنان إلى القارئ العربي عسيراً بعض الشيء، ولاسيما أن العالم العربي لا يشكل سوقاً واحدة قط: فهو عبارة عن 22 سوقاً تختلف كل سوق عن الأخرى بقوانينها ولوائحها الرقابية، مع أن بعض الدول مثل الإمارات العربية المتحدة وعمان وقطر أزالت الرقابة إلى حد كبير.

3 ـ **القدرة الشرائية** : إن القدرة الشرائية لمعظم الفئات الاجتماعية في العالم العربي متدنية جداً ما يجعل الكتاب سلعة غالية الثمن. فالكتاب اللبناني الذي يبلغ سعر النسخة الواحدة منه عشرة دولارات على سبيل المثال ويساوي نحو 5% من الدخل الشهري للموظف المتعلم في سوريا، وأكثر من ذلك بكثير للموظف نفسه في مصر والعراق. وهذا العامل يشكل عائقاً مهماً أمام انتشار الكتاب اللبناني في الدول العربية.

4 ـ **غياب مؤسسات التسويق** : على الرغم من أن قطاع النشر في لبنان هو قطاع حيوي ومهم من قطاعات الإنتاج الاقتصادي والثقافي معاً، ومع أن صناعة الكتاب قديمة العهد في لبنان، إلا أنها لم ترقَ حتى الآن، إلى مصاف الصناعة بالمعنى المعاصر لهذه الكلمة. فلا توجد شركات كبرى للتسويق أو مؤسسات عصرية للتوزيع، الأمر الذي يضيف أعباء ثقيلة على الناشر نفسه الذي يتولى في الكثير من الحالات تسويق إنتاجه بنفسه عبر معارض الكتب في الدول العربية، ومن خلال الصلات المباشرة مع أصحاب المكتبات في العالم العربي. في القرن التاسع عشر كان نشر الكتاب في لبنان مرتبطاً بالمطبعة مباشرة فالمطبعة هي الناشر وهي الطابع في الوقت نفسه. وفي ما بعد مع تطور صناعة النشر، ظهرت دور النشر المستقلة عن الطباعة أي أن الطباعة صارت مهنة وحدها، والنشر بات مهنة مختلفة، وإن كانت المهنتان تشتركان في بعض الجوانب وتفترقان عن بعضهما في جوانب أخرى، وبهذه الصفة صارت دار النشر زبوناً لدى المطبعة، ومع اتساع الأسواق وازدياد الطلب على الكتاب منذ 1946 فصاعداً بات إنتاج الكتاب يتم في قطاعات منفصلة هي دار النشر ثم المطبعة ثم شركة التوزيع، وقلما تمكّن قطاع النشر في لبنان من الوصول إلى طراز من التكامل الأفقي أو الرأسي، أي أن يكون

الناشر، على سبيل المثال، شركة كبرى تتولى شؤون الطباعة والتوزيع واستيراد الورق والأحبار والأفلام والصفائح في الوقت نفسه. ومن المؤكد أن التكامل الرأسي كان غائباً أيضاً إلا في حالات محدودة جداً.

مستقبل حركة النشر في لبنان

كان للحرب التي اندلعت في لبنان في سنة 1975، واستمرت حتى سنة 1991، تأثير كبير في قطاع النشر، فجرى تدمير العديد من المطابع، واضطر بعض دور النشر إلى الانتقال من مراكزه القديمة إلى مراكز جديدة أكثر أمناً. ومع ذلك فقد نما هذا القطاع نمواً متسارعاً حتى في ظل الحرب على الرغم من أن الكثير من دور النشر اللبنانية اضطر إلى الانتقال إلى عواصم خارجية. ولعل هذه الأوضاع ساهمت في نشوء العديد من دور النشر في سوريا والأردن والخليج العربي، ما جعل المنافسة بين دور النشر اللبنانية ودور النشر العربية تزداد. ومع ذلك فما زال لبنان يتميز بأن أفضل الكتب العربية هي التي تصدر في لبنان أكان ذلك في التقنيات الطباعية المستخدمة، أم في الإخراج، أم في التحرير، أم في دقة الترجمات أم في المستوى الرفيع للمعاجم والقواميس والموسوعات التي تنشرها دور النشر اللبنانية في مختلف فروع العلم والمعرفة. وبهذه الصفة، وعلى الرغم من المعوقات الكثيرة، فإن هناك العديد من دور النشر العربية، ولاسيما السورية والأردنية، افتتحت فروعاً لها في لبنان لسهولة تصدير الكتب منه واستعادة المرتجعات وبساطة المعاملات الرسمية في هذا المجال.

إن لبنان بتكوينه التعددي وبشيوع الحريات فيه ولا سيما حرية التعبير، مرصود لأن يكون مركزاً مهما جداً، بل من المراكز الأكثر تقدماً

في العالم العربي على صعيد الثقافة والإعلام والنشر. ولا ريب في أن هذا البلد الصغير الذي يحتوي في أرجائه نحو خمسين جامعة، بينها أقدم جامعتين في العالم العربي هما الجامعة الأميركية والجامعة اليسوعية، مؤهل لأن يتصدر طليعة العواصم العربية في مضمار الطباعة والنشر. وحتى اليوم فما زالت أفضل الكتب تأليفاً وجمالية وطباعية وتحريراً وإخراجاً تصدر في بيروت بالتحديد، مع أن قطاع النشر في لبنان ينوء بأعباء كثيرة في الوقت الذي لا يتلقى فيه أي دعم حكومي. ولا شك في أن هذا القطاع يمكنه أن يقفز قفزات متتالية، خصوصاً في مجال النشر الإلكتروني، لو بادرت الدولة اللبنانية على إزاحة بعض العوائق التي تعترضه، والدولة اللبنانية والدول العربية كلها قادرة، بالفعل على اتخاذ بعض الإجراءات من العيار التالي:

1 ـ إلغاء الرسوم الجمركية المفروضة على استيراد الورق بجميع أنواعه والأحبار والأفلام والصفائح وآلات الورق وجميع المواد الأولية لهذا القطاع.

2 ـ خفض تكلفة البريد والشحن الجوي للمطبوعات كلها وتذاكر السفر للناشرين.

3 ـ قيام الوزارات والمؤسسات بشراء كميات من الكتب ذات القيمة العلمية أو الأدبية والفكرية أو الفنية.

في وصف حالة النشر في العالم العربي

إشكاليات جمة تعتري الكتاب العربي حالياً، لخّصها الناشر رياض الريس في الورقة التي قدّمها في مؤتمر المعرفة الأول[1] في دبي. يقول

---

(1) أعيد نشرها في صحيفة المستقبل 2007/12/3.

الريس: «يدور التساؤل الأول عن أزمة النشر المطروحة في هذا المؤتمر حول العدد المتواضع من الكتب الجديدة التي تصدر سنوياً في مجمل الأقطار العربية وبلغة عربية واحدة مقارنة بعدد الكتب التي تصدر في الدول الأوروبية والأميركية، بتعدد لغاتها إلى جانب الأرقام المخزية لتوزيع الكتاب في جميع أنحاء العالم العربي.

من المؤسف أن هذا هو واقع الأمر».

نحن كناشرين مثلاً نقوم بنشر ما بين 30 أو 50 كتاباً/عنواناً في السنة الواحدة، موزعة بين مختلف أنواع التأليف من سياسة وتاريخ ومذكرات ورواية وشعر وآداب متنوعة. ونحن كناشرين شعبويين غير متخصصين نتعمد التنوع الدائم في محاولة منا للوصول إلى أكثر شريحة ممكنة من القراء، ونطبع من كل كتاب بين 3000 و5000 نسخة، وفي حالات معينة نطبع عدداً أقل.

كذلك نحن محكومون كغيرنا من الناشرين بهذا العدد الضئيل نسبياً مقارنة بالكمّ الكبير من العناوين التي تصدرها دور النشر العربية بأمرين:

الأول: القدرة المالية والتجارية المحدودة للناشر على تمويل هذه الإصدارات.

الثاني: ضيق الأسواق العربية بسبب عرقلة الرقابات المتعددة على الكتاب للوصول إلى القارئ، فالكلمة السحرية في هذا المجال التي تقف وراء تعثر هذه المهنة، هي الرقابة، والرقابة في العالم العربي على أنواع:

مشكلة الانتشار: أما عن الكتب الأكثر انتشاراً، فبالنسبة إلينا كناشرين شعبويين متنوعي العناوين بحسب أرقام شركتنا، هي كتب

السياسة، الرواية، التاريخ والمذكرات الشعر والآداب، والأقل انتشاراً ومردوداً تجارياً هي كتب الشعر، باستثناء كتب الشاعر محمود درويش التي تُعد استثناء على جميع الأصعدة، إذ يبلغ معدل توزيع الكتاب الواحد لمحمود درويش ولأكثر من طبعة واحدة خمسة عشر ألفاً. كذلك يعتمد انتشار الكتاب إلى حد كبير، إلى أي تصنيف انتمى (سياسة ـ رواية ـ تاريخ ـ الخ) إلى سمعة المؤلف وشهرته وصدقيته. فالقارئ يلحق بالكاتب المعروف بالدرجة الأولى ثم بالموضوع الذي يتناوله، عكس القارئ الذي يلحق بالعنوان المثير والموضوع المغري الذي يهمه لكاتب جديد لم يأخذ نصيبه بعد من الانتشار.

ويجب لفت النظر في هذا المجال إلى أن بين الكتب الأكثر انتشاراً كتب التراث الإسلامي والعربي القديم المستنسخة بعضها عن بعض، وأغلبها غير محقق وبعضها مجتزأ ومبتور لأسباب تجارية بحتة، ولها أكثر من ناشر واحد، يختلفون بعضهم عن بعض في تزويق وتجليد الكتاب، مرة مذهباً ومرة مفضضاً للعرض على الرفوف لا كتاباً مرجعاً للقراءة والبحث. وليس لهذه الكتب حقوق نشر أو ملكية فكرية، وهذه واسعة الانتشار كثيراً إذ لا رقابة عليها وتباع بأسعار زهيدة.

ضعف التسويق : أما عن تسويق الكتاب فحدّث ولا حرج، فليس هناك من شركة واحدة لتسويق الكتاب في كل العالم العربي لها صدقية وقواعد تلتزم بتسديد الأتعاب المالية المترتبة عليها، فديون الناشرين عند بعض الموزعين عالية جداً، يصعب تحصيلها، وهناك مجموعة شركات أو مكتبات في كل عاصمة عربية تقريباً هي عبارة عن مجموعة دكاكين، تستورد الكتاب لحسابها الخاص ولتبيعه في مركزها أو مكتبتها لا لتوزعه، ـ كما يجب ـ على فروع أخرى في المحافظات والأقاليم داخل

القطر. فقليلاً ما تجد أن كتاباً موجوداً في مكتبة من مكتبات القاهرة متوفرٌ في الإسكندرية مثلاً، أو كتاباً في دمشق متوفر في حلب وحجم استيراد هذه الشركات/المكتبات الصغيرة يكاد يكون مضحكاً.

لذلك يلجأ الناشر إلى التوزيع المباشر، حيث يقيم هو صلة تسويقية بينه وبين مكتبة في بلد معين من دون وسيط، محاولاً أن يبيع بضاعته نقداً، هنا تبرز أهمية فكرة معارض الكتب العربية التي تقام سنوياً، التي يشارك فيها الناشر مباشرة، ويبيع عبرها للمكتبات أو الموزعين في ذلك البلد إلى جانب الأفراد العاديين. حتى أصبح دخل المعارض يشكل تقريباً نصف دخل الناشر من التوزيع وفي أغلب الأحيان يبيع الناشر في المعارض نقداً، بينما يبيع عبر شركات التسويق بالدَّين. ومن أخطر الأزمات التي تواجه الناشر تحصيل الديون المتراكمة لدى الموزعين، فإذا لبى طلبات الموزع بالكتب الجديدة ازداد تراكم الدين، وإذا لم يلبه بار الكتاب في المستودعات. فليس هناك من تقليد أو قانون ينظم العلاقة المالية بين الناشر والموزع، أياً كان حجمه أو صفة طلباته والناشر يعطي حسماً للموزع يراوح بين 40 و50 بالمئة من سعر الغلاف، وفي أحيان 60 في المئة، متحملاً في معظم الأوقات أجور الشحن مع العلم أن الدفع آجل.

كلفة المعارض: وفي المعارض يواجه الناشر مأزقاً من نوع آخر، وإذا كان الناشر يرحب بالمعارض فذلك لأنها تشكل نصف دخله تقريباً، فإن ترحيبه يعود أيضاً إلى أنه يضعه على احتكاك مباشر مع القارئ فيستميله بأن يبيعه الكتاب بثمن أرخص من السوق العادي فالحسم الذي يعطيه الناشر الموزع، يعطيه للقارئ، لكن الذي حدث في السنوات الأخيرة أن كلفة الاشتراك في المعارض قد ارتفعت ارتفاعاً كبيراً حتى

بات من الصعب على الناشر أن يعطي حسماً كبيراً للقارئ لتشجيعه واستمالته. والفكرة الأساسيــة التـي يجب بحثها، والتي سيكون لها تأثيراً مباشر وفورياً، هي أنه لما كانـت الجهـات الرسمية العربية (وزارات الثقافة والإعلام أو ما شابهها من مؤسسات) هي التي تقوم بتنظيم معارض الكتب العربية، وتطلق عليها ألقاباً دولية، برعاية مسؤولين حكوميين كبار وإن لزمت بعض هذه المؤسسات الرسمية الحكومية تنظيم المعـارض إلـى شـركات تجارية خاصة، فالأجدى أن تقوم بخفض رسوم الاشتراك العاليـة والتي تبتغي الربح التجاري، إلى سعر رمزي، مما يساعد الناشر في تسويق الكتاب وإيصاله إلى القارئ بسعر منخفض.

في الوقت نفسه تدفع بالقارئ إلى طلب الكتاب، حين يصبح هناك فارق معقول بين سعر الكتاب في المعرض وسعره في السوق. فالناشر ليس مؤسسة خيرية، أو تابعاً لقطاع عام، بل شركة تبغي الربح التجاري المعقول، فمن المآزق التي يتعرض لها الناشر في المعارض أنه كثير ما تمنع الإدارة في اللحظة الأخيرة مجموعة كتب، يكون قد تم شحنها، فتقوم بمصادرتها أو منعها، وفي أحيان كثيرة لا تعيدها إليه، ترى من يعوض على الناشر هذه الخسارة، بعد أن يكون قد تحمل أعباء كلفة الاشتراك الباهظة وكلفة الشحن والسفر والإقامة وأجور المساعدين في الأجنحة؟

آليات النشر: صحيح أن دور النشر في العالم هي أحد أهم محركات الإنتاج الفكري واكتشاف الموهوبين والمبدعين، لكن يجب أن لا تعيّر دور النشر العربية بأنها تعمل وفق حسابات تجارية، لأن دور النشر العالمية كلها تعمل وفق حسابات تجارية أيضاً وبعضها مرتبط

بسياسات حكوماتها وأجهزتها. ولا مقارنة في الحجم والقدرات بيننا وبينهم، فمواصفات الكتاب واحدة عندنا وعندهم، وهي جاذبية موضوع الكتاب وشهرة إسم كاتبه، فلا مانع ولا ضرر في ذلك، أما كلمة الإثارة التي يكثر استعمالها كأنها كلمة معيبة فهي كلمة حقيقية وضروري أن تتوفر في كل كتاب على تعدد معانيها وأهدافها. وكلمة «الإثارة» يجب أن لا ترتبط بالخرافات والجنس والخزعبلات.

أما آليات النشر في العالم العربي فهي في جوهرها آليات النشر ذاتها في العالم الغربي، وإن اختلفت آليات العمل وميكانيكية الاتصال وتقاليد التعامل بيننا وبينهم، في الجوهر يتم النشر في العالم بطريقتين: إما أن يتقدم مؤلف ما بمخطوطته على الناشر، فيقبلها الناشر أو يرفضها، أو يكلف الناشر مؤلفاً ما، أو مجموعة مؤلفين بموضوع كتاب أو كتب ويتفق معهم على مواصفاتها، الأمر الأول هو الشائع والأسهل في العالم العربي مع أن الأمر الثاني يتم أيضاً بنسبة أقل.

أما من يتخذ قرار نشر الكتاب في دور النشر، فيتم ذلك في شركتنا مثلاً، عبر أكثر من لجنة مصغرة للقرّاء في اختصاصات معينة، فللرواية مثلاً لجنة تقرأ المخطوطات الروائية وتعطي رأيها فيها، وهناك لجنة أخرى لكتب السياسة والتاريخ والشعر والأدب. ويحيل قراء هذه المخطوطات مقترحاتهم إلى مدير الشركة الذي يتخذ قرار النشر، ويتحمل مسؤوليته وحده. وهكذا يضع مدير الشركة بالاشتراك مع مسؤوليه برنامجاً نشرياً ضمن أجندة تأخذ في الحساب تنوع الكتب التي ستنشر ومواعيد صدورها التي ترتبط إلى حد ما بدورة المعارض العربية.

الفقراء يقرأون: من الطبيعي أن تؤدي الأسعار دوراً أساسياً في انتشار الكتاب في العالم العربي، لكن ليس إلى الحد الذي يتصوره بعض

المراقبين. صحيح أن القدرة الشرائية ضعيفة في الأقطار ذات الدخل المحدود، كالعراق واليمن وفلسطين والأردن وسورية ولبنان، مقابل قدرات دول الجزيرة العربية الغنية، إلا أن من السخرية القول إن مخزون القراء الأساسي هو في هذه الدولة الفقيرة إجمالاً، ومع ذلك يقبل القراء «الفقراء» على شراء الكتاب ويقتطعون ثمنه من احتياجات أخرى، ولا يتردد قارئ فقير أو غني في شراء كتاب يريده، ما دام سعره مقبولاً، وفي متناوله وهؤلاء هم القراء الذين يشكلون عصب الداعمين للكتاب... إن جودة مضمون الكتاب وسمعة المؤلف والرغبة في الاطلاع على موضوعه، إلى جانب جاذبية توضيب شكل الكتاب وغلافه، كلها عوامل تدفع القارئ إلى اقتناء الكتاب. ويكتشف الناشر أن الفقراء هم الذين يقرأون أما الأغنياء فيتفرجون.

مشكلات التزوير : ولشهرة الكتاب أو مؤلفه دور كبير في التزوير، إذ إن التزوير أحد أصعب مشكلات النشر العربي، فتزوير الكتب منتشر في كل بلد عربي تقريباً، وهناك ناشرون مختصون في هذا المجال، وكل كتاب يزور يحد من انتشار الكتاب بقدر ما يسيء إلى سمعة البلد والناشر، أكثر مما يضر بالناشر مالياً، والكتاب الذي يزور هو الكتاب المعروف لمؤلف مشهور، وأكثر الكتب تعرضاً للقرصنة هو الكتاب الرائج ذو الموضوع الدائم، وعلى رأسها القواميس والمراجع العلمية من ناحية، والكتب كالروايات الواسعة الشهرة أو المجموعات الشعرية لشعراء معروفين مثل نزار قباني ومحمود درويش. ويتفهم الناشر أن يزور كتاب في العراق نظراً لظروفه المأسوية، أو في فلسطين المحتلة لظروف مماثلة لكن ليس مفهوماً أن يزور الكتاب في بلد يملك ظروفاً عادية، هنا يجدر التساؤل: من يحمي الناشر من التزوير؟ وإلى من يشكو أمره: إلى

نقابة الناشرين أم اتحاد الناشرين أم القضاء المحلي؟ ولعل من الأفكار البديهية أن يمنع أي ناشر يضبط بجرم التزوير، من الاشتراك في المعارض أو المواسم الثقافية، حيث نجده في كثير من المواقع معززاً ومكرماً.

الإعلام والإعلان: كيف يسوّق الناشرون كتبهم، هناك طريقتان متبعتان: الأولى الإعلان عن إصداراتهم في الصحف ووسائل الإعلام المختلفة، وهذا يحتاج إلى موازنة مالية لا تملكها أغلب دور النشر، والثانية: عن طريق إرسال إصداراتهم إلى محرري الصفحات الثقافية والمجلات الأدبية في الصحافة العربية، بغية عرض هذه الإصدارات والتعريف بها ومراجعتها، وتكليف أحد كتّاب تلك الصحيفة بكتابة نقد، (مع أو ضد لا فرق) لذلك الكتاب، وإذا بالصفحات الثقافية في الصحافة العربية- وبمتابعة بسيطة- لا يعنيها أمر الكتاب إلا فيما ندر، حتى إن «البيان الصحافي» الذي يكتبه الناشر تعريفاً بإصداره ويرسله إلى الصحيفة (وهي محاولة من الناشر للتعويض عن كسل المحرر من بذل أي مجهود) لا يجد طريقه إلى النشر إلا في حالات قليلة.

إذن هناك أزمة بين الكتاب وجرائد اليوم، لم تكن قائمة قبل عقد أو عقدين. في صحافة الماضي كان الصحافيون المعنيون بمتابعة شؤون الثقافة يتسابقون للكتابة عن كتب صادرة حديثاً والتعريف بكتّاب جدد أو قدامى. أم اليوم فتحولت الصفحات الثقافية إلى التطبيل والتزمير لشلل أدبية ومهرجانات موسمية يدعى إليها محرروها، أصبحت بفعل الزمن والممارسة، نوعاً من العصبية القطرية والتعصب، «الحزبي» لكاتب ما.

وإذا كانت هذه حال الصحافة المكتوبة، فما بال التلفزيونات فليس هناك حتى الآن في كل التلفزيونات العربية وجميع الفضائيات برنامج

واحد عن الكتب العربية وجميع الفضائيات برنامج واحد عن الكتب والكتاب، شبيه ـ ولو من بعيد ـ ببرامج الكتب التي تظهر في بريطانيا، أو فرنسا (برنامج القناة الثانية في الـ بي.بي.سي. مثلاً) حتى محاولة قناة «الجزيرة» القطرية في برنامج متواضع ومنحاز عن الكتب كان يعده خالد حروب توقف بعد فترة زمنية قصيرة. وعلى الرغم من عدة محاولات مع بعض الأقنية العربية ولقاءات مع المسؤولين فيها، كلها باءت بالفشل، حيث كان الجواب دائماً لا تأتي بالإعلان وليس لها ممول sponser وتموت المحاولة في مهدها بجواب بسيط: إن برامج كهذه لا تأتي بمداخيل.

أما موضوع الإنترنت كوسيلة من وسائل التسويق، فأعتقد أن معظم الناشرين، يملكون مواقع على الإنترنت ويعلنون عن إصداراتهم منها، ويضعون كتبهم كاملة على شبكتها ونحن منه وقد تعرضنا نتيجة لذلك لأكثر من عملية قرصنة، بعضها ينظر فيه القضاء اليوم، واكتشفنا بالممارسة أن التسويق عن طريق الإنترنت ما زال ضعيفاً أو غير مجد في العالم العربي.

ملكية فكرية: هناك تساؤلات كثيرة عن تأثيرات «حقوق الملكية الفكرية» على صناعة النشر العربية، أهمها أن تشريعات حقوق الملكية قد أفادت عملية النشر العربية، وضبطت الكثير من مقاييسها. إلا أنه ليس هناك من مشكلة فعلية بين الناشر والمؤلف، حيث يتم التفاهم بينهما بموجب عقد اتفاق يحدد حقوق وواجبات كل من المؤلف والناشر، فيأخذ كل ذي حق حقه. والخلافات قليلة جداً بين المؤلف والناشر في هذا المجال، ولا تنشأ مشكلة في موضوع «حقوق الملكية الفكرية» إلا مع ناشرين أجانب في شأن شراء حقوق الترجمات وعدد الطبعات وكلفة

الترجمة، وخلاف ذلك من لزوميات العلاقة بين نشر عربي وآخر أجنبي. ولما كنا نحن الناشرون لا نقوم بنشر كتب مترجمة إلا فيما ندر وفي حالات خاصة، فلا تعاط لنا بهذه المشكلة، ولا أعتقد إنها تشكل قضية إلا إذا كان الناشر متخصصاً في الكتب المترجمة، مما يسبب له أزمات مع الناشر أو المؤلف صاحب الحقوق الأصلية. ولما كانت معظم الكتب المترجمة إلى العربية ممولة من مصادر معينة، فلا داعي لمشكلة من ناحية حقوق الملكية الفكرية، لأن معظم الخلافات تكون عادة مالية، وفي هذا المجال ما زال الكتاب غير المترجم، أوسع توزيعاً وانتشاراً من أي كتاب مترجم مهما علا صيته إلا فيما ندر.

يبقى بعد توصيف حالة النشر ورزنامته في العالم العربي مجموعة أسئلة لا تملك أجوبة عن حلول، إذ لا حلول ما دامت الحواجز السياسية مرتفعة في كل بلد عربي تحت مسميات مختلفة، وما دامت الحوافز الاقتصادية في كل بلد عربي تحت مسميات مختلفة، وما دامت الحواجز الاقتصادية معدومة.

أتسألون بعد كل ذلك عن سقم الكتاب؟ صحته هي العجب!

عوائق النشر: الجزائر نموذجاً[1]

بالنسبة لحوالي ستين دار نشر تشتغل في الجزائر العملية ليست سهلة وعلى الرغم من أن الكثيرين منهم منضمون إلى نقابة الناشرين الجزائريين فهم لم يستطيعوا إلا فيما ندر فرض شيء على السلطات المختلفة.

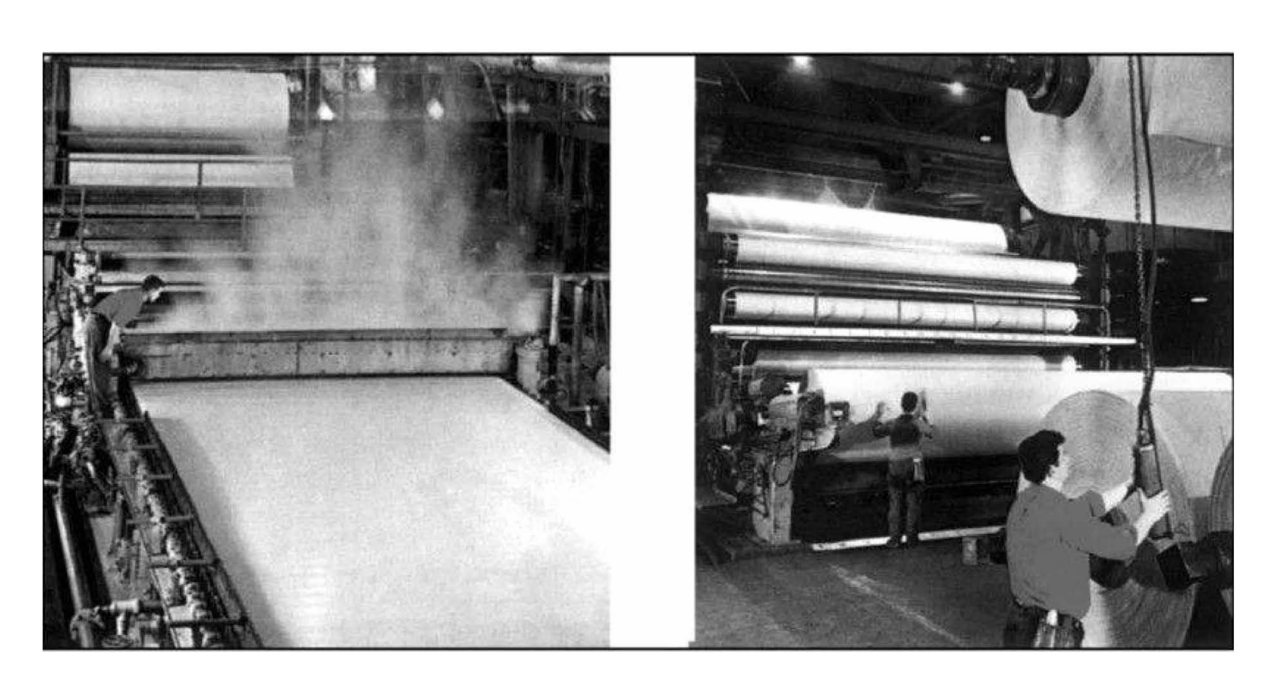
---

(1) آسيا موساي (مع آخرين)، أزمة الكتاب العربي من الحرفة إلى المعرفة، دار الهادي، بيروت 2005، ص123-124.

ـ مهنة النشر لا تعتبر من طرف الدولة نشاطاً صناعياً وبالتالي لا تستفيد من الدعم المخصص لهذا النشاط، فهي مهنة ثانوية جداً لا تساهم في حل البطالة ولا تغني الخزينة بالمال ولا يتم تصدير نتاجها.

ـ البنوك لا تعتبر الكتاب بضاعة قابلة للرهن والحصول على قرض.

ـ يعتمد الناشر على المطابع، التي تضاءل عددها ونقص احترافها بسبب عدم وجود أيد عاملة كفوءة في هذا المجال، وبسبب عدم مردودية طبع الكتب، تحولت أغلب المطابع إلى طبع ملصقات الدعاية ومواد التغليف أو قرصنة الكتب الأجنبية الناجحة تجارياً.



ـ يحتاج الناشر إلى ورق بأسعار مدعمة وبأصناف مختلفة، ولكنه في الواقع يدفع ما بين 30 و40 بالمئة حقوقاً جمركية ورسوماً مختلفة في حال استيراده علماً أن الورق المحلي قليل جداً ونوعيته سيئة.

ـ كل ما يدخل في طباعة الكتاب من قطع غيار الماكينات أو الحبر أو غيرها للحقوق والرسوم نفسها التي يخضع لها الورق.

ـ لا يجد الناشر في سوق المهن أشخاصاً تخصصوا في عملية النشر من اختيار المخطوط إلى تنضيده إلى إخراجه، بسبب عدم وجود معاهد متخصصة في التكوين لهذا النوع من النشاط.

ـ عدم وجود فضاءات إعلامية للدعاية للكتب إلا بنسبة ضئيلة تكون غالباً على أساس العلاقات الشخصية بين الكاتب مثلاً واحد الصحافيين، كما أن عزوف التلفزيون عن إدراج برامج ثقافية تهتم بالكتب أمر سلبي جداً أثر على عملية استقبال الكتاب من طرف الناس.

ـ أما أهم عائق فهو شح المخطوطات القابلة للنشر في الجزائر بسبب عدم التأسيس لنخبة مثقفة نافذة، أو أكاديمية حتى، قادرة على تقديم أشياء ذات قيمة للقارئ، فأغلب الكتاب المميزين موجودون بالخارج ومرتاحون لتعاونهم مع الدور الأجنبية خاصة الفرنسية التي تتيح لهم الترويج المناسب والاهتمام اللائق.

ـ النقص الفادح في عملية الترجمة، وارتفاع تكاليفها وعدم دعم الدولة لها في الجامعات ولا على مستوى وزارة الثقافة، وتبقى جل الترجمات التي نشرت مجهودات فردية تنازل أصحابها عن حقوقهم كمترجمين.

الازدواجية اللغوية تعني أن عدد القراء الذي هو أصلاً قليل ينقسم إلى جزء يقرأ باللغة العربية وجزء يقرأ باللغة الفرنسية مما يجعل الناشر مجبراً على التوجه إلى فئة دون غيرها، أو يضطر إلى ترجمة كتابه مما يكلفه نفقات إضافية كثيرة.

اتحاد الكتّاب والأدباء العرب: فرصة للنهوض من النوم!

لا أحد ينكر على اتحاد الكتّاب والأدباء العرب ضرورة وجوده على الرغم من كل المصاعب التي تعرّض لها وعلى الرغم من صيغته التي ولد بها مشوهاً، فهي صيغة رسمية تتيح للحكومات تحديد مسار فعالياته ومؤتمراته وأزماته أيضاً.

وإذا كان زمن تأسيس الاتحاد بعد منتصف الخمسينات فرض مثل هذه الصيغة ففرض أزمات الاتحاد استناداً على هذه الصيغة، فإن الزمن تجاوز صيغته، فمنذ عشرين سنة يشهد العالم العربي، في الميدان الثقافي، تغيرات دراماتيكية ما يزال الاتحاد عاملاً أو يتغافل عنها. وإذا كانت مشكلة الوفد الفلسطيني فجرت أزمة، فهل كان على الاتحاد الانتظار حتى تنشأ المشكلة الفلسطينية الجديدة لكي تظهر إلى السطح مشكلة وجود الاتحاد كله.

من التغيرات العاصفة في الميدان الثقافي أن الأدباء والكتّاب العرب هم الذين يملكون بالدرجة الأولى مشكلات مع أنظمتهم، وبالتالي فإن وجود أكثر من نصف أدباء كل بلد عربي خارج حدود وطنه إشارة عميقة إلى الاتحاد كي يسعى إلى تغيير صيغته سيقول الاتحاد ستنشأ مشكلة التمويل إذ ستكف الحكومات عن تمويل الاتحاد. المشكلة ناشئة الآن، ولا أعتقد بأن وجود اتحاد عربي رسمي سيكون مفيداً للثقافة بشروط رسمية لأن المشكلة الثقافية العربية برمتها مرتبطة بالإجراءات والمواقف السياسية. وهنا تظهر المشكلة الثقافية الفلسطينية: من يمثل من؟ وقبل ذلك نشأت المشكلة الثقافية المصرية من دون أن يأخذ الاتحاد بنظر الاعتبار المشكلة الثقافية العراقية حيث يعيش أكثر من ثلثي كتّاب وأدباء العراق خارجه من دون أن يكون لهم الحق في المشاركة للتعبير عن الثقافة العراقية.

من حسن حظ الاتحاد أن اتحاداً بديلاً عنه خارج الحكومات العربية لم ينشأ ولا تظهر له ملامح في الأفق حتى الآن. وهذا يرتبط أيضاً بالأزمة الثقافية العربية التي ما تزال محكومة بعوامل سياسية وإيديولوجية أكثر مما هي محكومة بعوامل الإبداع والثقافة. لكن حسن الحظ هذا يجب أن لا يكون علامة جهل للاتحاد أو علامة إغفال لواقع ثقافي عربي مأسوي حقاً في الحياة لا على المسرح.

وإذا كان الاتحاد ضرورة، ولست أدري لماذا كما يقول جان كوكتو عن الشعر، فأين هو الاتحاد الذي لا يظهر إلا بوجود مشكلة التمثيل الرسمي؟ ماذا قدم الاتحاد حقاً للأديب والكاتب العربي عدا الحضور الرسمي لأدباء وكتاب مرشحين من قبل اتحادات أدبية رسمية على الأغلب، فالاستثناءات القليلة جداً لن تشفع للاتحاد القول إنه ليس رسمياً وإنه غير خاضع لتقلبات رسمية في التمثيل والتمويل والتعليل. أما مهرجانات الشعر العربي المقامة على هامش مؤتمراته فهي انعكاس للتمثيل الرسمي الذي يتجاهل الواقع الثقافي الفعلي الذي تغير وتطور على مدى أكثر من عشرين عاماً من دون أن يفتح الاتحاد حتى درفة باب واحدة لنسيم التغيير وليس لرياح التغيير العاصفة[1].

الوكيل الأدبي وعالم النشر العربي

لا شك في أن فكرة الوكيل الأدبي، أو ما يسمى في اللغة الإنكليزية Literary Agent، غريبة علينا في العالم العربي، بل هي مفهوم ينتمي إلى عالم الغرب وقيمة وعاداته، وطبيعة نظامه الاقتصادي وصيغه

(1) نبيل ياسين، الحياة، 22-12-1997.

التعاقدية التي تربط الأفراد بنظرائهم الأفراد، والأفراد بالمؤسسات المختلفة. ولهذا السبب الحديث عن ضرورة أن يسعى الكتاب إلى أن يكون لهم وكلاء يروجون إنتاجهم (ويكونون صلة الوصل بينهم وبين دور النشر، والصحف والمجلات، ووسائل النشر المختلفة التي يسعون إلى عرض إنتاجهم عليها) قد يبدو مستهجناً في ثقافتنا العربية الراهنة التي يتناقص فيها عدد قراء الكتب بدلاً من أن يتزايد، لكن هذا التباين بين ثقافتين مختلفتين لا يعني إهمال الفكرة ورميها في الوقت الذي تضيع فيه حقوق المؤلفين، وتصبح القراءة، في مجتمعات تتآكل ويزداد فيها التطرف والانغلاق، من شؤون الماضي الجميل[1]!.

بلى إن فكرة الوكيل الأدبي تنتمي إلى عالم آخر من عوالم الثقافة، إلى سياق اجتماعي واقتصادي يؤمن بأن كل شيء يمكن التعامل معه بصفته سلعة نستطيع الترويج لها، وزيادة اهتمام الناس بها، ودفعهم إلى شرائها. لكن من قال إن هذا الفهم خاطئ ما دام يدفع الناس إلى القراءة، ويجعلهم يقبلون على الكتب لأن منظومة المؤلف والوكيل الأدبي ودار النشر والصحيفة، أو المجلة، تشكل نوعاً من الصدقية التي تؤثر في القراء وتشكل أذواقهم؟[2].

لقد نشأ نظام الوكيل الأدبي في سياق اجتماعي ـ ثقافي ـ اقتصادي يؤمن بحقوق الملكية الفردية، بل يقدّسها، وهو النظام الرأسمالي الغربي، لكن ذلك لا يقلل من فرادة الفكرة التي تجعل من الكتاب سلعة ينبغي الترويج لها، ولا يعني نشؤوها في ظل هذا النظام عدم صلاحيتها

---

(1) فخري صالح، الحياة 2007/7/3.

(2) المرجع السابق.

للمجتمعات التي تتخذ في حياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية نظاماً غير النظام الرأسمالي.

إن الوكيل الأدبي يهمه الربح طبعاً، لكنه يوفر على الكاتب الصراع مع دور النشر على الحقوق، ويجعله يتفرغ للكتابة من دون أن يشغل نفسه بحواف عملية الكتابة المتمثلة في البحث عن ناشر، ومتابعة ترويج كتابه. الأهم من ذلك أن الوكيل الأدبي سيقوم بالبحث عن أفضل شروط النشر لأن ذلك سينعكس عليه ربحاً أكبر، فالمصلحة مشتركة بين الكاتب والوكيل الذي يمثله[1].

ذلك متبع في الغرب عموماً يستثني منه الكتّاب غير المعروفين ودور النشر الصغيرة ربما، وهم يشبهون ما نحن عليه الآن في العالم العربي صناعة نشر صغيرة يمتلك فيها المعنيون بالنشر دكاكين صغيرة تبيع كميات قليلة من الكتب في سوق ضخم يمتد من المحيط إلى الخليج، لهذا السبب يبدو الوكيل الأدبي حلاً من الحلول لتراجع القراءة في هذه المنطقة المنكوبة من العالم.

ثمة وكالات أدبية قد أنشئت في مصر، وبدأت عملها مع عدد من المؤلفين وافتتحت لها نقاطاً لبيع الكتب في عدد من الاستراحات والمجمعات التجارية الكبيرة، فهي إذاً زاوجت بين عمل الوكيل الأدبي والمروج والموزع، وأهمية هذه البداية تتمثل في البحث عن آفاق جديدة لتوزيع الكتاب، وعن مجموعات قرائية جديدة، وتخليص الكاتب من أفواه الناشرين الذين يرفضون دفع حقوقه في العادة، لكن الأهم من وجهة نظري أنها توفر على الكتاب تضييع وقتهم في البحث عن ناشرين

---

(1) المرجع السابق.

ملائمين لكتبهم وتعطيهم فرصاً أكبر للتفرغ لعملهم الأساسي وهو الكتابة[1].

صحيح أن الناشرين سيقاومون هذه الفكرة لأنها تدفع شركاء جدداً إلى سوق الكتاب ونشره، وتأخذ منهم بعض الأرباح المضمونة التي لم يكن ينازعهم عليها أحد. لكن ظهور وكلاء أدبيين يتعاقد معهم الكتاب لتولي أمر ترويج كتبهم وعرضها على الناشرين والسعي إلى التعاقد مع دور نشر أجنبية لترجمة تلك الكتب، يفتح أمام الكتاب آفاقاً، خصوصاً في ما يتعلق بإيصال الكتب إلى القراء، وتوسيع مجالات ترجمة تلك الكتب، في ضوء ضعف القراءة وضعف ترجمة الكتب العربية إلى اللغات الأخرى[2].

الكتاب سلعة أيضاً[3]...

إن الشأن العام والمظهر العام والمظهر الملحوظ هو الفكر والثقافة والعلم فالطالب والأستاذ والمثقف والمجتمع عموماً، لا يتعاملون مع الكتاب إلا من هذا الجانب، فهو الجليس الأنيس وطريق التعلم ووسيلة ثقافة ومرآة عقول العلماء والكتاب والمثقفين، ولم يتم التعامل معه على أنه سلعة تباع وتُشترى إلا استثناء، يكاد يكون هذا الاستثناء محصوراً بمن يعمل على طباعته ونشره وتوزيعه في المكاتب الداخلية المغلقة لحسابات الناشرين والمؤلفين، بينما الواقع الفعلي للكتاب أنه من السلع النادرة على مستوى توقعات الربح، فعلى سبيل المثال يسعّر الكتاب في

(1) المرجع السابق.

(2) المرجع السابق.

(3) عماد قاسم، مجلة "الناشرون". بيروت 2005.

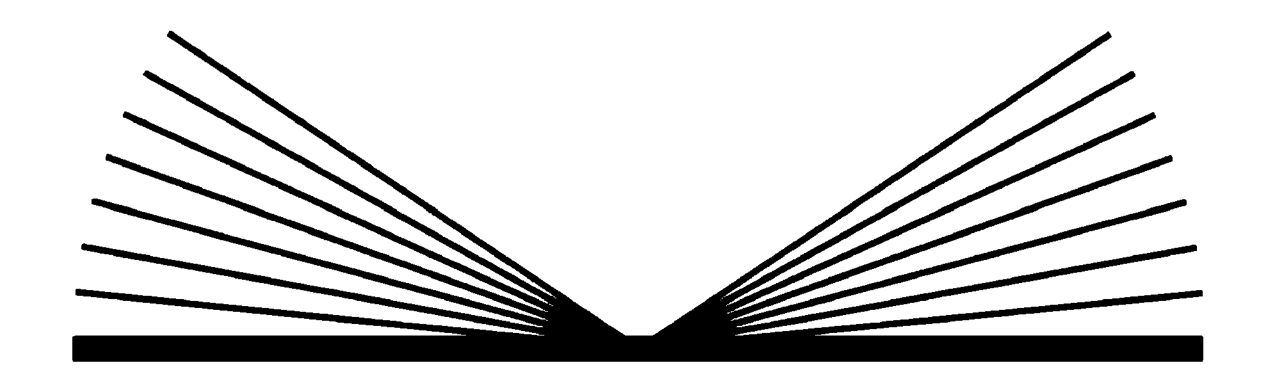
أمريكا وأوروبا سبعة أضعاف كلفته، وفي لبنان ودول العالم العربي إجمالاً أربعة أضعاف كلفته، فالكتاب من حيث كونه سلعة فهو سلعة مربحة وتعود على العامل على بيعها، سواء كان المؤلف أو دار النشر أو الموزع، بالربح الكبير، حتى مع وجود حسومات على أنواع أو إجمالي الكتب، ومن الملاحظ أن هذه السلعة لعلها السلعة الوحيدة التي لا تأخذ حظها في عالم التسويق من وسائل الترويج والإعلان، ونرى أن الناشر أو الموزع ينتظر من القارئ أو مكتبة البيع أن تسعى لأجل الحصول على الكتاب، وهذا في الواقع إجحاف حقيقي تجاه هذه السلعة أو قل تجاه الجهد المضني والكلفة المبذولة من قبل الكاتب والناشر والموزع. فأقل ما يمكن، لابد أن نفتح الطريق أمام القارئ من خلال إعلان ما يدله على وجود هذا النوع من الثقافة، التي يودها ويرغب بوسيلة ما وصولها إليه، فالسلع التي لا توازي أهمية الكتاب المعنوية والمادية والعملية لا تجدها في سائر وسائل الإعلان والإعلام، تنبه عن نفسها وتستفز الراغب بها بطرق متعددة للحصول عليها. ولقد لفتني موقع «إنترنت» تحت عنوان دليل الكتاب www.Dalilalkitab.net الوسيط الثقافي بين القارئ والناشر. وهو موقع إعلاني فقط، متخصص في مجال الإعلان عن الكتاب، غير تسويقي من ناحية البيع والشراء بل يوفر عملية تواصل بين القارئ والناشر في هذا المجال، يقوم بمراسلة القراء عبر البريد الإلكتروني بحيث يفتح المجال أمام أكثر من خمسة عشر ألف قارئ عربي للتعرف على آخر الإصدارات والكتب التي سجلت في الموقع مما يعرّف القارئ المشترك في الموقع أو القارئ الزائر لهذا الموقع على هذه الكتب على أنواعها المختلفة، في خطة تقصد إلى أسلوب جديد في العالم العربي وهو الإعلان عن الكتاب. والملفت في الموقع أنه لا يقتصر على الإعلان عن

الكتاب بل يساهم بالربط الفعلي بين القارئ دليل الكتاب ودليل دور النشر ودليل المواقع ومفكرة المعارض، كما يفسح المجال أمام الجميع لتناول مواضيع الثقافة العامة من خلال صفحات شعر وأدب وفكر وموسيقى.

بالمجمل إن هذا الموقع يعتبر خطوة نوعية وبداية في عالم الإعلان العملي عن الكتاب، وتسخير التكنولوجيا الحديثة في سبيل الثقافة وتزويد هذا الكم من القرّاء بآخر عناوين الإصدارات، ولا بد لهذه الخطوة أن تستكمل بتظافر جهود العاملين على الكتاب، فالقارئ وإن كان مهتماً بالقراءة إلى حد اعتبارها كطعامه اليومي لكنه كما يلتفت إلى أنواع الطعام واللباس وغيرها من اليوميات من خلال الإعلان والدعاية، لا بد أن نلفته إلى عناوين وأنواع الكتب الصادرة.

ونوجه دعوة لجميع العاملين على الكتاب من ناشرين وكتّاب وموزعين، أن يفتحوا الباب أمام الإعلان والدعاية كي تعمل دورها في الشاشة والصحيفة والأثير، وحتى في لوحات الإعلان على الطرق، لتنبئ عن محتوى عملها الجبار، وتنبه القارئ إلى وجود مبتغاه وتعطيه الإحساس بأننا نهتم به من خلال ذلك.

الأرقام المخجلة....
عــربيــاً



أين الكتاب يا عرب؟

تفضح الأرقام التي تقدمها تقارير رسمية هذا الواقع، إذ يورد تقرير الأمم المتحدة للتنمية الإنسانية الصادر عام 2003 تحت عنوان «نحو إقامة مجتمع المعرفة» أرقاماً بالغة الدلالة، ذلك أن عدد الكتب المنتجة في العالم العربي لا يتجاوز أكثر من واحد في المئة من الإنتاج العالمي على الرغم من أن العرب يشكلون نحو خمسة في المئة من سكان العالم. في العام 1990 مثلاً صدرت البلدان العربية 6500 كتاب مقابل 102000 لأمريكا الشمالية و42000 كتاب لأمريكا اللاتينية. كما ورد في تقرير صادر عن معرض الشارقة الدولي للكتاب عام 2005 أن دور النشر العربية التي شاركت في المعرض وصل عددها إلى 707 فيما لم تعرض أكثر من 2100 عنوان لكتب متنوعة الاتجاهات. لم يتجاوز عدد الكتب الفنية الصادرة سوى 1945 كتاب أي ما يمثل 0.8 في المئة من الإنتاج العالمي، يصل متوسط الكتب المترجمة إلى حوالي 4.4 لكل مليون من السكان، أي أقل من كتاب واحد في السنة، فيما بلغت 19 كتاباً في المجر و920 كتاب في أسبانيا لكل مليون من السكان. يقدر الإجمالي التراكمي للكتب المترجمة منذ عصر المأمون حتى الآن بحوالي 10 آلاف كتاب وهو يوازي ما تترجمه أسبانيا في عام واحد. أما لجهة التوزيع فإن نجاح الكتاب في العالم العربي يكون عندما يصل توزيعه إلى 5000 نسخة، فيما تورد

الصحافة الأجنبية أرقاماً عن كتب يصل توزيعها إلى مئات آلاف النسخ، وأحياناً أكثر من مليون نسخة.

تقدّم معارض الكتب السنوية صورة عن نوعية الإنتاج المعرفي وما تقدمه دور النشر للجمهور العربي. تتصدر الكتب الدينية والتراثية واجهة الإنتاج بحيث تصل إلى حوالي 17 في المئة فيما لا تتجاوز النسبة أكثر من 5 في المئة في أنحاء العالم، أما الكتب الأكثر مبيعاً، فتبين أرقام المعارض اجتياحاً للكتب الخاصة بالأبراج والسحر والتنجيم والطبخ، وهي ظاهرة غير منفصلة عن ازدياد إنتاج الكتب الدينية والتراثية. في المقابل إذا ما أخذنا الجانب الاقتصادي من هذه الصناعة، فإن تقارير منظمات عربية رسمية أشارت إلى أن مداولات سوق الكتاب العربية، مبيعاً وشراء، لا تتجاوز أربعة ملايين دولار، فيما يصل هذا الرقم في دول الاتحاد الأوروبي إلى حدود 12 مليار دولار. تؤشر هذه الأرقام إلى دلالات سياسية واجتماعية وثقافية تتصل ببنية المجتمعات العربية ودرجة تطورها بعد مرور عقود على استقلالها وسعيها لتحقيق التنمية في مجتمعاتها، وهي تعكس الفشل العربي وعجزه عن مواكبة العصر وعن الإفادة من حجم الثروات المتوافرة في الأراضي العربية، ويعبّر ضعف الإنتاج المعرفي عن مشكلات بنيوية متعددة:

* يرتبط ضعف إنتاج الكتاب بالمستوى التعليمي وطبيعة التعليم السائد في كل بلد. لا يقوم نظام التربية والتعليم في الغالبية الساحقة من البلدان العربية على الاستقصاء والبحث، بل لا يزال يعتمد التلقين أساساً لهذا التعليم، مما يجعل الكتاب غير ضروري كوسيلة للإطلاع والتفتيش عن المادة المطلوبة. تتصل بهذا الجانب مسألة انخفاض المستوى الثقافي العام على جميع المستويات والعجز عن توظيف منجزات الثورة العلمية والتقنية في هذا المجال.

* تشكل الأوضاع الاقتصادية السائدة في المجتمعات العربية عنصراً معوقاً لصناعة الكتاب، لا يزال مثلث الأمية والفقر والبطالة يرمي بثقله على الشعوب العربية ويكبلها بحبال غليظة. إن عالماً عربياً تصل فيه الأمية إلى حوالي 40 في المئة من سكانه ويتجاوز المليون فيه 70 مليون مواطن لا يحتاج إلى كتب لن تجد من يقرأها. كما أن عالماً عربياً يتجاوز فيه الفقراء ما نسبته 73 في المئة من سكانه، ويعيش أغلبهم تحت خط الفقر، لن يشكل الكتاب هماً من هموم سكانه في وقت يعجز الفرد عن توفير ثمن هذا الكتاب. الحال نفسها تنطبق على العاطلين عن العمل الذي وصل حجمهم إلى حوالي 25 مليوناً وفق تقارير منظمة العمل العربية، حيث يحتاج هؤلاء إلى تأمين لقمة العيش وفرصة العمل قبل أن يدخل في خلدهم شراء كتاب لا يملكون أصلاً ثمنه.

* في عالم عربي لا يزال يتسم بالاستبداد السياسي وتسليط سيف الرقابة والقمع على الكلمة، يتعرض إنتاج الكتاب إلى ضغوط ناجمة عن معاناة مزدوجة للكاتب، الأولى من المؤسسات الأمنية المقيدة لحرية التعبير والرأي، والثانية نتيجة قيود ذاتية يضعها على نفسه وعلى إنتاجه خوفاً من تعرضه لاضطهاد المؤسسات الأمنية أو الدينية، كما تشكل هيمنة التقاليد والموروثات المتخلفة عنصر إعاقة أمام تحفيز الكاتب على الإنتاج.

* تحتاج صناعة الكتاب، ككل صناعة أخرى ـ إلى توظيفات مالية في هذا القطاع، تبدأ من تحفيز الكاتب على الإنتاج عبر تقديم تسهيلات مالية تؤمن له حداً من التفرغ، كما تتعلق بتوظيف رساميل في إنشاء دور للنشر وتوفير المواد الخام بما يخفف من ارتفاع الكلفة وبما يسمح ببيعه بسعر معقول يساعد في تداوله. وتحتاج الصناعة أيضاً إلى إنشاء مكتبات

تمثل سوقاً لتوزيع الكتاب وتسهيلاً للإطلاع المجاني عليه من المواطن، كما يتطلب الكتاب أيضاً حرية التداول في الأسواق داخل العالم العربي بعيداً عن الصعوبات الملقاة في وجهه من منع تداوله أو مصادرته.

* تتصل صناعة الكتاب بشكل وثيق بحجم القرّاء في كل بلد، يعكس التوزيع هذا الحجم ويؤشر إلى ضعف القراءة في العالم العربي، بل إلى تراجعها تراجعاً متصاعداً في هذا المجال. في مراحل النهوض خلال الستينات والسبعينات كان التنافس يدور بين النخب حول عدد الكتب التي قرأها كل شخص خلال شهر، فيما بات عادياً اليوم أن تسمع نخباً ومثقفين ومن حملة الشهادات العالية لا يخجلون من الاعتراف بأن شهوراً مضت لم يقرأ الواحد منهم أي كتاب. لا ينفصل هذا التراجع عن الواقع السياسي الذي يسيطر عليه الإحباط واليأس نتيجة الهزائم التي منيت بها المجتمعات العربية وفشل برامج النهوض الاقتصادي والاجتماعي.

قد يحتاج التبصر في عوامل تأخر إنتاج المعرفة إلى نظرة أشمل تتناول مسائل بنيوية في العالم العربي، تزدهر الثقافة أو تنحدر بالعلاقة مع مراحل النهوض أو الانحسار للمجتمعات، كما أن مقاييس متعددة تطرح في تعيين مدى الازدهار والانحدار، وهذا يتصل بنمط الثقافة الصاعدة في هذه المرحلة أو تلك.

في عالم عربي مر بمراحل متعددة من تطوره في القرن العشرين شهد فيه مرحلة من النهوض المتعدد الأوجه، ليبرالياً وقومياً ويسارياً، أنتجت ثقافة اتسمت على الغالب بالعقلانية والتعمق في المعضلات البنيوية للعالم العربي. كانت ثقافة رحبة تتقبل النقد، وتتصدى لكل الموضوعات بدون وجل، مستفيدة من أجواء سياسية واجتماعية تتيح للكاتب حرية في التعبير.

في تلك المرحلة المعتبرة ذهبية بحقٍّ بالنسبة إلى إنتاج المعرفة ظهر ما يعرف بـ «المثقف العضوي» وفق تعريف المفكر الماركسي الإيطالي غرامشي، وازدهرت كتابات سارتر ولوكاش وغيرهما من المفكرين جنباً إلى جنب مع مفكرين ليبراليين من شتى بلاد العالم.

طرح انهيار المشاريع «التقدمية» وسائر المشاريع «التطورية» سؤالاً لا يزال راهناً حول الحاجة إلى هذا المثقف العضوي وغيره من مثقفي التحليل والدراسات المعمقة والنقدية للمجتمعات وللسلطات الحاكمة. تفاقم الإحباط واليأس من التحول إلى نمط آخر من اكتساب الثقافة والمعرفة، أي الانتقال إلى وسائل الإعلام المرئية حيث حلت الفضائيات مكان الكتاب، وباتت البرامج التلفزيونية مصدر الإطلاع، وهي برامج قابلة في الأصل إلى جذب الجمهور وشده إلى متابعتها في وقت يئس المواطن من السياسة والسياسيين في ظل الإخفاق المتواصل في جميع الميادين. هكذا فقد المثقف بالمعنى النهضوي جزءاً أساسياً من دوره ووظيفته، وهو أمر من الطبيعي أن يتسبب له في تراجع إنتاجه طالما أن القراء باتوا نادرين وعديمي الاهتمام.

ترك هذا الانحسار في الثقافة الديمقراطية المجال لحلول ثقافة معاكسة إجمالاً للسابقة، أي لثقافة ماضوية تستحضر التراث العائد إلى مئات السنين بأساطيره ورمزياته، بموروثاته الدينية وفكره غير العقلاني. قدمت هذه الثقافة نفسها بديلاً سياسياً وعقائدياً من مشاريع قومية ويسارية وليبرالية فشلت في تحقيق آمال الشعوب العربية ومطالبها. توافرت لهذه الثقافة الأصولية والسلفية كل وسائل النشر والإعلام بحيث بات في إمكانها الوصول إلى كل بيت، واستندت في اكتساحها المساحة الثقافية إلى يأس الجماهير من التغيير والخلاص الأفضل. قدمت نفسها

وسيلة إنقاذ اعتماداً على الغيبيات وإثارة الغرائز والمشاعر. وهكذا تسود اليوم ثقافة، لحمتها الغيبيات والعصبيات الطائفية والصراعات الإثنية، والرموز الدالة على تاريخ من الحروب المذهبية والطائفية ويقترن ذلك برفض للثقافة المخالفة ووضعها في خانة الارتداد وتكفير أصحابها، لا تكتفي هذه الثقافة بالإرهاب الفكري ضد مخالفي رأيها بل تتوسل بالإرهاب المادي طريقاً لقمع المخالف، وتالياً لفرض منطقها.

تتربع هذه الثقافة وتحشد الجماهير حولها في ظل تراجع هائل لنقيضها، لكن الأسوأ في هذا المجال هو انتقال قسم واسع من مثقفي المرحلة الماضية للانضواء تحت خيمة هذه الثقافات الأصولية الطائفية السلفية. يمثل هذا الانتقال الهزيمة الكبرى لثقافة الديمقراطية والتقدم في العالم العربي، ووصمة عار على جبين تلك الفئات التي رأت فيها الناس مصدر معرفتها وأملاً في خلاصها.

بعد هزيمة حزيران عام 1967 قال أحد قادة إسرائيل ما مضمونه: «ما دام العرب لا يقرؤون، فما من خطر حقيقي يهدد الكيان الإسرائيلي، .... وتالياً سنبقى نحن المسيطرين». بصرف النظر عن صلافة هذا الرأي وعنصريته، إلا أنه وللأسف يعبّر عن إحدى حقائق الوضع العربي المؤلمة. إن إعادة الاعتبار إلى أهمية التطور الثقافي والمعرفي تمثل إحدى الحلقات المركزية في صراع الشعوب العربية مع المشروع الصهيوني.

حول أزمة الكتاب العربي[1]

في الوقت الذي تشير فيه الدراسات والتقارير الدولية والعربية إلى تحسن معدلات ونسب السكان العرب الذين يستخدمون أجهزة الحاسوب وشبكة الإنترنت العالمية، وكذلك أجهزة الاتصالات الحديثة مثل الهاتف النقال، تشير الحقائق والدراسات إلى أن الكتاب العربي بات يواجه أزمات حقيقية في مستويات النشر والقراءة والترجمة على حد سواء، وكل الدلائل تشير أنه على الرغم من الارتفاع الكبير في مجموع سكان الوطن العربي في عام 2008، إلا أن بلداً مثل الولايات المتحدة الأميركية أو هولندا أو البرتغال، يطبع في كل منها كتب أكاديمية وأدبية وعلمية أكثر من ما يطبع في الدول العربية مجتمعة، وبذلك يعتبر الوطن العربي من أقل الأقاليم في العالم المنتجة للكتب بصنوفها المختلفة مقارنة بعدد السكان، وتكون الصورة أكثر سوداوية عند الإشارة إلى مجموع الكتب المترجمة إلى لغات عديدة على مدار العام مقارنة ببعض الدول العربية، ودول أميركا اللاتينية أيضاً مثل البرازيل على سبيل المثال لا الحصر.

وفي هذا السياق أشار تقرير لمنظمة الطفولة اليونيسيف صادر مؤخراً عن الأمم المتحدة بمناسبة يوم الكتاب العالمي، إلى أن الدول العربية مجتمعة أنتجت خمسة آلاف كتاب خلال العام المنصرم 2007 أي بمعدل 14.3 كتاب لكل مليون مواطن عربي، في مقابل ذلك استطاعت الولايات المتحدة الأميركية التي يصل مجموع سكانها إلى 290 مليون نسمة إصدار 300 ألف كتاب، أي أن كل مليون مواطن أميركي يصدرون

---

(1) نبيل محمود السهلي، الحياة 13/6/2008.

1034 كتاب، كما أشار إلى أن الطفل العربي يعتبر أقل مستوى في مجال القراءة مقارنة بالأطفال في دول العالم، حيث تؤكد المعطيات الصادرة عن اليونيسيف أن الطفل العربي يقرأ لمدة سبع دقائق خلال العام، في حين يقرأ الطفل الأميركي لمدة ست دقائق يومياً.

وتشير دراسات مختلفة إلى أن العرب هم أقل الشعوب إنتاجاً للكتب إذ يشكّل العرب حوالي خمسة في المئة من مجموع سكان العالم، في حين لا تتجاوز نسبة إنتاج الكتب عندهم واحد في المئة من مجموع الإنتاج العالمي للكتب، وتشير الإحصاءات نفسها بأن النسبة تختلف مع الكتب الدينية والتراثية، حيث تبلغ نسبتها 17 في المئة من مجموع الإنتاج العربي في مقابل متوسط عالمي لا يزيد على 59 في المئة، وتعتبر نسبة الكتب في ميادين العلوم الاجتماعية والأدب والفن ضئيلة جداً وتؤكد الإحصاءات أنه في نهاية عقد التسعينات من القرن المنصرم لم تنشر الدول العربية مجتمعة إلا 1945 كتاب أدبيّ وفنيّ، كما أن الناشرين يعتمدون سياسة التنويع في إصداراتهم، وقلما توجد دور نشر متخصصة في مجال معين كما تصل نسبة النشر الموزعة على أنواع الكتب: أدب 20 في المئة، إسلاميات 15.3 في المئة، كتب أطفال 3.12 في المئة، ثقافة عامة 8 في المئة. سياسة 6 في المئة، شعر 8 في المئة، علوم اجتماعية 4.6 في المئة، وجميع النسب لا يمكن الاعتماد عليها كثيراً حيث يجب أن ترصد مؤسسات الجامعة العربية ذات الصلة بالبحث والدراسة اتجاهات تطور إنتاج الكتاب في الدول العربية وتوصيف معوقاته والعمل على الحد منها ما أمكن؛ وخاصة لجهة تراجع مقص الرقيب الحكومي. وتكمن المعوقات الرئيسية في عدم تطور طباعة الكتب والنشر والترجمة في الدول العربية في عدم إيلاء الحكومات أهمية خاصة

لدور الكتاب في نشر الوعي بين أفراد المجتمع والقدرة على رفع الأداء في المستوى الاجتماعي والاقتصادي وبناء الحضارة الإنسانية، لأن دور الدول في الأقاليم النامية بما فيها الدول العربية ينحصر في بناء الجيش والإبقاء على السيطرة المطلقة على مقاليد السلطة لجهة نهب مزيد من خيرات البلاد.

واللافت للنظر أن ثمة تراجع حقيقي قد حصل في أداء دور النشر في الدول العربية منذ مطلع التسعينات من القرن العشرين بسبب انخفاض الطلب على الكتاب من قبل أفراد المجتمع، حيث بات الاعتماد الكبير على شبكة الإنترنت ومحركات البحث للحصول على أية معلومة في الأدب والسياسة والاقتصاد والعلوم، وذلك على الرغم من صدقية الكتاب الذي يصدر عن دار نشر أو مراكز بحث علمية وفق أصول وأدبيات معينة تؤخذ بعين الاعتبار، في حين تشير الحقائق إلى وجود قرصنة كبيرة في المواقع الإلكترونية دون الرجوع إلى صاحب الدراسة أو البحث أو الكتاب أو المقالة، كما أنه مع تزايد انتشار الفضائيات وتطور أدائها بفعل انسياب مزيد من الأموال إليها، ازداد اهتمام المواطن العربي بالشاشة الصغيرة، وباتت مصدره الملهم في الثقافة والسياسة والاقتصاد والعلوم والرياضة وأصبحت الشاشة الصغيرة بمثابة مصدر المصادر للمواطنين العرب في شرائحهم الاجتماعية والاقتصادية المختلفة، الأمر الذي أدى إلى تراجع دور المكتبات وريادة التجمعات والأندية الثقافية التي كانت سائدة في الستينات والسبعينات من القرن المنصرم في دول عربية عديدة، وبات الشح في اقتناء الكتب سيد الموقف، بيد أن ذلك لم يمنع من ظهور مثقفين كبار وعلماء في مجالات الكيمياء وغيرها، واستطاعوا الحصول على جوائز دولية قيّمة ولها مكانة استثنائية، مثل

جائزة نوبل للآداب والعلوم والكيمياء، إذا يمكن التأكيد بأن أزمات مستعصية باتت تواجه الكتاب العربي في ظل ثورة المعلومات والبث الفضائي وانسيابها بشكل سريع.

وقد تركزت تلك الأزمات في النشر بفعل غياب برامج الدول والموازنات الخاصة للثقافة ونشرها من خلال المساعدة في نشر الكتاب وتوزيعه بأقل الأسعار حتى يصل إلى كل مواطن عربي للإفادة منه، وقد رافق ذلك تردٍّ واضح في عملية الترجمة والتواصل مع دول العالم لإيصال صورة العرب الحقيقية في بناء الحضارة الإنسانية، ولتعزيز انطلاقة جادة للكتاب وتعميمه.

لا بد من وقفة جادة من قبل الدول العربية ونقصد هنا الحكومات وهيئات المجتمع المدني لدعم دور النشر ومراكز البحث من أجل عمل حقيقي لنشر الثقافة عبر تشجيع طباعة الكتاب ونشره حيث لا يزال مدخلاً هاماً في المساهمة في بناء الحضارة الإنسانية وتطورها.

العالم العربي أنتج من الكتب أقل من نصف ما أنتجته بلجيكا[1]

في كل سنة تصدر الكتب الإحصائية الجديدة التي تضم أرقام القطاعات كافة في كل بلد من بلدان العالم. صحيح أن الأرقام التي تتضمنها هذه الكتب كثيرة الفائدة في ترسيم الحدود الاقتصادية لمسار كل بلد (من خلال تفصيل توزيع الناتج القومي على القطاعات المختلفة التي يرتبط بها: زراعة، صناعة، خدمات) إلاّ أن هذه الكتب تضم أيضاً أرقاماً تفيدنا كذلك في ترسيم حدود المسار الثقافي في كل بلد. (ذكر

---

(1) فردريك معتوق، الحياة 1997/12/22.

عدد العناوين الجديدة الصادرة ونسبة اقتناء جهاز تلفزيوني في الألف نسمة ونسبة اقتناء حاسوب شخصي، الخ).

وظيفة هذه الكتب الإحصائية، في الغرب، تسهيل المتابعة العقلانية والموضوعية لصيرورة الاقتصاد والمال والقوى العاملة، سنة بسنة، في كل بلد، علماً أن هذا التقليد يرتبط بعصر الأنوار في أوروبا حين بدأ الموسوعيون بجمع وتصنيف وتحليل كل علم من العلوم المعروفة حتى ذلك الزمان بغية استيعابها كلياً ثم تخطيها نحو علوم تكون أكثر تقدماً.

إن وظيفة الأرقام والإحصاءات، على الصعيد الفكري هي حث الوعي الإنساني على الإلمام بالظاهرات التي أفرزتها بغية تصحيح مسارها أو تعديل هذا الأخير أو إنشاء مسار آخر جديد.

فالمسألة ليست مجرد هواية أو ميل ثقافي عند هذا الشعب أو ذاك بل إنها وقبل كل شيء، خيار منهجي في التفكير، إذ إن التفكير التخطيطي بحاجة إلى أرقام وإحصاءات، ولذلك فهو يعمل على نبشها وعرضها بشكل متواصل. بينما يكتفي الاستنسابي بتشييد بنيان مقارباته على معرفة تقوم على الآراء والأحكام المسبقة، إذ إنه لا يرى ضرورة في مخاطبة سواها.

ومخاطبة الأرقام كما هو معلوم، تؤدي إلى تحريك العمليات العقلية بينما لا تؤدي مخاطبة الخواطر والآراء سوى إلى مزيد من الأحكام والخواطر والآراء.

تستوقفنا في هذا الصدد محصّلة إنتاج العناوين الجديدة في الغرب، بالمقارنة مع مثيلتها في العالم العربي، إذ نكتشف بالأرقام كم أن تقصيرنا كبير في هذا المجال.

فإنتاج العناوين الجديدة الذي بلغ العام 1996 في بريطانيا 95015 كتاب وفي فرنسا 45311 كتاب وفي إسبانيا 44261 كتاب وفي هولندا 34067 كتاب، وفي بلجيكا 13913 كتاب، لم يبلغ في مجمل البلدان العربية، سوى 8171 كتاب أي أن مجموع العناوين الجديدة التي أنتجها العالم العربي بأسره هي أقل بكثير مما أنتجه أصغر بلد أوروبي (بلجيكا) لوحده.

فما سر تفسير هذه الظاهرة؟ وما الذي يجعل شعباً صغيراً لا يتعدى عدد سكانه عشرة ملايين نسمة قادراً على إنتاج ضعفي ما ينتجه شعب تخطى عدد سكانه المئتي مليون نسمة؟

السؤال محرج، وإحراجه ينطلق من كونه مبنياً على وقائع موضوعية، وأول ما يتبادر إلى الذهن، عند البحث عن إجابة، هو أن بال العالم العربي مشغول. ولكننا نتساءل بعدها: مشغول بماذا؟ فما هي هذه القضايا الكبرى والعظيمة الشأن التي تكبل طاقاته الفكرية وتمنعها من الإنتاج الكثيف للعناوين الجديدة، تماماً كما هي الحال في أصغر بلدان قارة ما زال يتمثل بها العالم العربي منذ أيام الطهطاوي؟

ولكننا لا نجد أجوبة على هذا التساؤل الكبير، إذ نرى أن لا قضايا حضارية كبرى في الأفق ولا حتى قضايا سياسية كبرى في الأفق قد تكون سبباً في حجب الإنتاج مؤقتاً، باسم مهمة أساسية وعامة، كما كانت الحال في الصين مثلاً بعيد انتصار الثورة الشعبية التي قادها ماو في منتصف القرن الحالي.

المسألة، في التفسير النهائي أقرب إلى السلوك الإفلاسي منها إلى أي شيء آخر، والواقع أن العالم العربي يشهد طغياناً للاستهلاك على

الإبداع. فبعدما انتشر هذا السلوك في الحقلين التكنولوجي والاقتصادي، ها هو اليوم يتغلغل في الجسم الثقافي بحيث أننا نعود، من حيث لا ندري، إلى طور الثقافة النقلية التي كانت سائدة عندنا إبان الحكم العثماني، إذ نفضل اليوم، على صعيد محصلة الإنتاج العالمي، أن نكون ككتلة عامة، في عداد ناقلي إنتاج الغير، لا في عداد منافسي غيرنا في مجال الإنتاج.

نكتفي بالموقف النقلي والاستهلاكي على وجه العموم، تجاه قطبين أساسيين: أولهما تراثنا القديم وثانيهما الغرب. ومن هنا عودة استعداداتنا الذهنية إلى وضعية استلابية مضاعفة، إذ نغدو مكبلين بنموذجين فكريين واحد في الشرق القديم وآخر في الغرب، لا يحثانا على الإبداع بل على التقليد.

إما أننا نقلد ما ينتجه الوعي الغربي، بالاستهلاك من دون الخروج من دائرة هذا الوعي المغلقة، المفصلة على مقاس مجتمعات تختلف في تركيبها الاجتماعي والثقافي عن مجتمعاتنا. وإما أننا نقلد، بالترداد الخطابي، النماذج التي أنتجها وعي أجدادنا المفصلة هي أيضاً على مقاس بُنى اجتماعية ومعرفية تختلف عن بنانا المعاصرة.

المعادلة الثقافية محكومة من هذا الصوب ومن ذاك، شرقاً وغرباً، باستهلاك ما أنتجه سوانا. وهذا، كما أشار إليه جبران خليل جبران أمر لا يخلو من الخطورة. فالشعب الذي لا يأكل مما ينتج هو شعب مرهون، في نهاية المطاف لإرادة الغير. وكل التبريرات التي تُعطى لهذا الأمر غير مقبولة من منظور داخلي، إذ أن رشد السلوك يفترض العمل على بناء الاستقلالية تدريجاً وعلى تأمين فرص تبلور الإبداع ذاتياً ومحلياً.

المحصلة الحضارية التي يعيش عليها الغرب حالياً إنما بدأت قبل القرن العشرين وتواصلت بمجهودات خاصة وعامة لا تعُد ولا تحصى، ويبدو أن الأمور عندنا مبنية على منطلق مغاير، ولا تصبو إلى شق طريقها على أساس ذاتي مماثل لما حصل عند سوانا.

كما يعكس ضعف إنتاج العناوين الجديدة في العالم العربي المعاصر، على الرغم من ازدحام ساحته بالمثقفين والأكاديميين وحملة الشهادات، حالة من الاستسلام الفكري، فلا حوافز داخلية وذاتية كافية لمواجهة التحديات المطروحة على أبناء العالم الناطق بلغة الضاد.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن المطلوب ليس مواجهة «العصر» فالعصر، كما هو مطروح، مفهوم استهلاكي آخر ينبغي التعامل معه بحذر. بل المطلوب هو الانسجام مع الذات الموضوعية، القائمة على الأرض، ذات عربية لمع أجدادها في الأزمنة الغابرة تماماً كما يلمع أبناؤها في الجامعات المعاصرة، سواء كانت في العالم العربي أم في بلدان الغرب المختلفة في القارة الأوروبية كما في القارة الأميركية.

إن الطاقة على الإبداع متوافرة عندنا ـ وهذا ما يثبته تفوق العديد من المتحدرين من أصل عربي في الجامعات ومراكز الأبحاث الغربية ومواقع العمل المختلفة، على نحو ما تنقله لنا الصحافة بشكل مستمر ـ غير أن ظروف تبلور هذا الإبداع هي التي نفتقدها.

أشهر جرّاح في القلب وهو الدكتور مايكل دبغي من أصل لبناني كتب بالإنكليزية ما يقارب 1300 مقال علمي وعشرات المؤلفات، إلى جانب اختراعه لما يفوق ثلاثين آلة تستخدم في عمليات القلب المفتوح، لم تحتضنه لا قبل سفره إلى الولايات المتحدة ولا بعدها أية مؤسسة

ثقافية أو علمية عربية كي يتفتق إبداعه في العالم العربي، بل إن طاقته هاجرت مثل طاقة جبران ومثل طاقات عشرات الآلاف من أبناء العالم العربي إلى مناخات غربية أكثر مؤاتاة لهم من مناخات أوطانهم الأم.

إننا خسرنا ونخسر وسوف نبقى نخسر أفضل عناصرنا من دون أن نعمد إلى رفع التحدي الثقافي والحضاري العام الذي يواجهنا. علما أن هذا التحدي ليس سياسياً، على هذا المستوى بل هو تحد ثقافي في المقام الأول. فالنزيف الخارجي جار ولا خطة جدية لحصره وتطويق مفاعيله السلبية على المدى الطويل، على العالم العربي. كما أن اللامبالاة الداخلية تراوح مكانها وتتغلغل في نفوس المسؤولين والعامة يوما بعد يوم وسنة بعد سنة وعقداً بعد عقد، بحيث أننا سوف ننتقل إلى القرن الواحد والعشرين بالأمراض الثقافية نفسها التي كنا نعاني منها في نهاية القرن التاسع عشر.

ولكن الفرق بين الموقعين هو أنه كان بإمكاننا أن نرمي على العثمانيين علة تأخرنا، إبان القرن التاسع عشر. أما على مشارف الألف الثالث فلا وسع لنا إلا أن نلوم أنفسنا. إذ إننا نشبه مهندس فيلم، عودة الابن الضال، الذي كان يحاول تبرير فشله برمي الخطأ على الذين كان من المفترض بهم أن يعاونوه في إنجاز بنايته التي تصدعت وهوت أرضاً عند أول اضطراب للطبيعة.

العالم العربي اليوم، على مستوى الإنتاج الثقافي، يصدّر عقوله وطاقاته الثقافية إلى الخارج ويكتفي، في غالب الأحيان، بالعفارة التي سرعان ما تسند إليها المراكز و«المسؤوليات» لبراعتها في المحافظة على الوضع القائم. فلا هي سلحفاة القصيدة التي تمشي ولكن ببطء، ولا هو أرنب القصة الذي يركض قليلاً ثم ينام. بل إننا أمام يعسوب ينتظر أن

تقدم له النحلة العاملة وجبته اليومية وكرّابه شرابه، ويكتفي بحلم مزاوجة الملكة، ربما في الربيع.

تجدر الإشارة هنا، بالمناسبة، إلى أن الوقائع المرة، كمثل هذه الأرقام لا تطرح للتداول في الأسواق الثقافية الرسمية العربية، بل تكتفي الوزارات بالتزام الصمت والتعتيم على الأمر، بحيث يتراءى للجماهير العربية المسكينة أنها تعيش نهضة ثقافية دائمة، في مرآة الشاشات الصغيرة البراقة والخادعة، بينما ما نعيشه على أرض الواقع لا يعدو كونه كابوساً فكرياً لا يؤلم سوى الغيارى على مستقبل الإنسان العربي لا مستقبل الأنظمة العربية!

اليوم العالمي للكتاب[1]

في الثالث والعشرين من كل عام، تحتفل معظم دول وشعوب العالم بيوم الكتاب وحقوق النشر، وهو تقليد كرسته اليونسكو لأول مرة سنة 1995. وقد اختير هذا اليوم بالذات لأنه يوم وفاة أديب كاتالونيا (أسبانيا) ميغيل سيرفانتيس، وميلاد وموت وليام شكسبير، الذي ولد في اليوم نفسه من عام 1564، ورحل أيضاً في اليوم نفسه من عام 1616، وكما نلاحظ في هذا التحقيق، فإن هذا التقليد لم يعرف طريقه بعد للأسف إلى حياتنا الثقافية، لا على المستوى الشعبي ولا الرسمي، إلى درجة أن قسماً من المثقفين لا يعرف حتى بوجود مثل هذا اليوم، وبالطبع إن تكريس مثل هذا اليوم والاهتمام العالمي به، يهدفان إلى رفع قيمة الكتاب، علمياً كان أم أدبياً، وإحياء عادة القراءة التي تكاد تضمحل وخاصة عند الشباب، وبشكل أخص الشباب العربي، وتربية الأطفال على اكتساب هذه العادة الجليلة قبل فوات الأوان، وهي مناسبة أيضاً لإثارة المشكلات التي تحول دون انتشار الكتاب وتوزيعه وانتقاله من بلد عربي لآخر، وكذلك قضايا الرقابة، ومشكلة الحقوق الفكرية الضائعة، ومشكلات النشر.

---

(1) الشرق الأوسط، (منتدى الكتب) 2007/4/25.

الإحصائيات الأخيرة المنشورة عن مستوى قراءة العرب، لا تبعث سوى على الرعب، وعدم اكتراثنا أمامها لا يبعث سوى على رعب مضاعف.

اعتبر الناشر السعودي محمد العبيكان، أن مسألة إقامة يوم عربي للكتاب من مهام وزارات الثقافة العربية إن هي آمنت بالكتاب على حد قوله. وقال: «وزارات الثقافة في الوطن العربي هي وزارات إعلام والثقافة في آخر سلم اهتماماتها، وإقامة يوم للكتاب العربي ليس مطروحاً في المدى المنظور حالياً، وذلك سيحدث عندما تعمل وزارات الثقافة العربية على خدمة الثقافة، وتكريم المؤلف والمبدع وكذلك الناشر لكن في الوقت الراهن كل ذلك غير متوفر».

وأضاف العبيكان: «إن وزارات الثقافة العربية لم تنجح في وضع نظام موحد لمعارض الكتاب على مستوى الوطن العربي، من حيث الشروط والضوابط والرقابة، ولم نسمع عن وثيقة لشرف المهنة موقعة بين وزارات الثقافة والناشرين». واعتبر أن هناك رقابة جائرة تمارسها وزارات الثقافة على الناشرين.

وأشار العبيكان إلى أنّ موقع الكتاب العربي في أدنى سلم ترتيب الكتب عالمياً، وذلك راجع في اعتقاده إلى عدم الاهتمام بالثقافة والكتاب، فـ«الكتاب العربي تطبع منه ما بين 1000 إلى 3000 نسخة يتم تسويقها على مدى خمس سنوات، بينما لا يوجد هناك أي شكل من أشكال الدعم للكتاب، ولو أن كل وزارة ثقافة في الوطن العربي تشتري مثلاً 10 نسخ من كل كتاب، وكذلك مؤسسات التعليم الجامعي ومراكز الدراسات والمكتبات العامة لكان ذلك أكبر دعم للكتاب، ولساعد ذلك الناشرين والمؤلفين مما سيؤدي إلى تطور الإنتاج الثقافي العربي في كافة المجالات في النشر والترجمة والإبداع».

وذكر أن هناك أكثر من 5000 مؤسسة ما بين ثقافية وجامعية ومعهد ومركز دراسات في الوطن العربي وسيكون المردود الثقافي كبيراً لو أنّ كل مؤسسة اشترت نسختين على الأقل من كل كتاب قريب من تخصصها أو توجهاتها، ولحدثت طفرة في عالم النشر والتأليف.

أبو صالح: لا تنتظروا يوماً عربياً للكتاب قريباً

واستبعد الأديب عبد القدوس أبو صالح رئيس رابطة الأدب الإسلامي تخصيص يوم عربي للكتاب قريباً بقوله العربي: «لا أظن أنه سيكون هناك يوم عربي للكتاب إلا بعد إعداد جيل يقبل على القراءة بشغف، خصوصاً في أوساط الطلاب الجامعيين وكذلك مراحل التعليم المختلفة، ولن يكون هناك يوم إلا إذا عدنا إلى القراءة وعدنا أمة نقرأ. عندما يحتفل العالم بالكتاب ويخصص له يوماً، فهذا دليل على اهتمام هذه البلدان بالكتاب وبالقراءة وبالمعرفة». وأشار إلى تجربته في التعليم الجامعي، حيث كان يخصص درجات للقراءة الحرة وكتابة البحوث حول هذه الكتب، إضافة إلى إقامة محاضرات في بداية العام الدراسي حول القراءة وأهميتها.

وقال أبو صالح: «في الدول الغربية، الكتاب والمؤلفون أغنياء بسبب العائدات المادية التي يحصلون عليها من وراء نشر كتبهم، بينما في الدول العربية الكاتب والمؤلف ـ ينشر ـ نسبة إلى المنشار ـ من قبل الناشرين لأنهم ينظرون له بعين التاجر».

أما بالنسبة للقراءة، فيجب تعويد الأطفال عليها منذ الصغر بإنشاء مكاتب لهم تنمو معهم وتضاف لها الكتب بحسب المراحل العمرية التي يمر بها الطفل. الجيل الحالي مشغول بالرياضة والفضائيات، وفي حين

تحدد الأسرة في الدول الغربية وقتاً للتلفزيون، فشلنا نحن في تحديد ذلك فأخذ كل وقت الأطفال والشباب، كما لا توجد مكتبات ودور نشر متخصصة للطفل، بينما تعج الدول الغربية بدور النشر المتخصصة في أدب الأطفال».

قبل حوالي عقد من الزمان انتبهت النخبة المثقفة في مدينة تطوان (شمال المغرب) إلى أن سلطات الحماية الإسبانية كانت تحتفل بيوم الكتاب المصادف لذكرى ميلاد الروائي ميغل دي ترفانتس، صاحب العمل الأدبي الخالد «دون كيخوته».

وفي ذلك اليوم كان يتم الاحتفال في المدينة بالكتاب ومنتجيه والساهرين عليه حيث يتم تشجيع المواهب والبراعم الأدبية الشابة بإغداق الجوائز عليها. لا يزال هذا التقليد مستمراً بعد أن تبنته وزارة الثقافة المغربية، لكن لوحظ في المدة الأخيرة تراجع الحماس له، بدليل أن الأنشطة الثقافية التي تقام بالمناسبة في المدينة في شكل محاضرات وندوات ومعارض كتب، حدد لها موعد جديد ليس هو الثالث والعشرين من الشهر الجاري. هنا يلامس نقاد وكتّاب مغاربة هذا الأمر من زوايا نظر مختلفة، ويجيبون على التساؤل: هل يمكن للعرب أن يحتفوا باليوم العالمي للكتاب؟

يقول الناقد السينمائي المغربي مصطفى المسناوي، إنه يشعر باليأس في ظل الواقع الذي تعيشه الثقافة العربية بحكم التراجع الكبير للقراءة في العالم العربي عكس باقي دول العالم، مبرزاً أن أسباب هذه الأزمة متعددة تعود في جانب منها إلى انتقال المجتمعات العربية من الثقافة الشفوية إلى الثقافة السمعية المرئية دون أن تترسخ لديها الثقافة المكتوبة، مضيفاً أن المرور بثقافة المكتوب ارتبط في المجتمعات

الأوروبية ببناء الديمقراطية عبر منح الفرد الإيمان بقيم الحرية وإعطائه قيمة داخل المجتمعات وبناء مؤسسات ديمقراطية، وهو ما ارتبط في أوروبا بولادة طبقة رأسمالية ساعدت على انطلاق المجتمع، مبرزاً أن غياب هذه الأمور أدى إلى عدم مرورنا بالثقافة المكتوبة. ويضيف: المسناوي «أنه مجتمعات العالم العربي بحاجة إلى التثقيف والتعليم، وهو ما يجعل الكتاب في مجتمعاتنا شيئاً ضرورياً أكثر من المجتمعات الأوروبية، مشيراً إلى أن القيم السائدة في المجتمع تحتقر الكتاب والمؤلف وتعلي من شأن المغنين ولاعبي كرة القدم، موضحاً أن طموح الشباب العربي يكمن في أن يصبحوا مغنين في مسابقات ستار أكاديمي. فالنجاح في المجال الثقافي يتطلب الكثير من الكد والجهد بينما النجاح في الغناء لا يتطلب مجهوداً مساوياً ويدّر أرباحاً مادية مهمة».

ويتساءل الروائي المغربي مبارك ربيع: «لمَ لا يكون الاحتفاء باليوم العالمي للكتاب يوماً عربياً، ما دام العرب جزءاً من هذا العالم ويحتلون جغرافياً وديموغرافياً وحضارياً أيضاً نقطة مركزية فيه، لا ينقص من ذلك أنهم غير مؤهلين في الحاضر، ولا في المستقبل القريب للقيام بدورهم». ويضيف ربيع: «مبارك أن الانخراط في العالم يعني التحلي برموزه، وسلوك مسلكه، وبالتالي الاحتفاء باليوم العالمي للكتاب هو يوم عالمي للكتاب العربي وغير العربي، يبقى أنه في مجال المعرفة والثقافة والحضارة التي دل عليها الكتاب، لا تفصيل بين ما هو عربي أو غير عربي، فالعرب بشر كبقية البشر مساهمتهم في المعرفة واستفادتهم منها هي عملية عالمية، وإذا لم تكن كذلك فهي لن تكون أبداً بدليل قيام الحضارات العربية أيضاً، فلولا عالمية تلك الثقافة كما قال وتفاعلها مع ما حولها من لغات وآداب وعلوم وحضارات أخرى لما احتلت مكانتها في التاريخ الإنساني».

أيام للكتاب في أميركا

بدلاً من التركيز على اليوم العالمي للكتاب، يحتفل الأميركيون بسلسلة أيام أدبية وطنية، مثل، يوم قصص الأطفال ويوم اتحاد المكتبات الأميركية، ويوم القصص الشفهية، ويوم «جنون الكتاب» ويوم كتب رعاة البقر، ويوم كتب الهنود الحمر، ويوم كتب السود، ويوم المطابع ويوم القراءة، ويوم أدب الأطفال، ويوم حرية المعلومات، الخ...

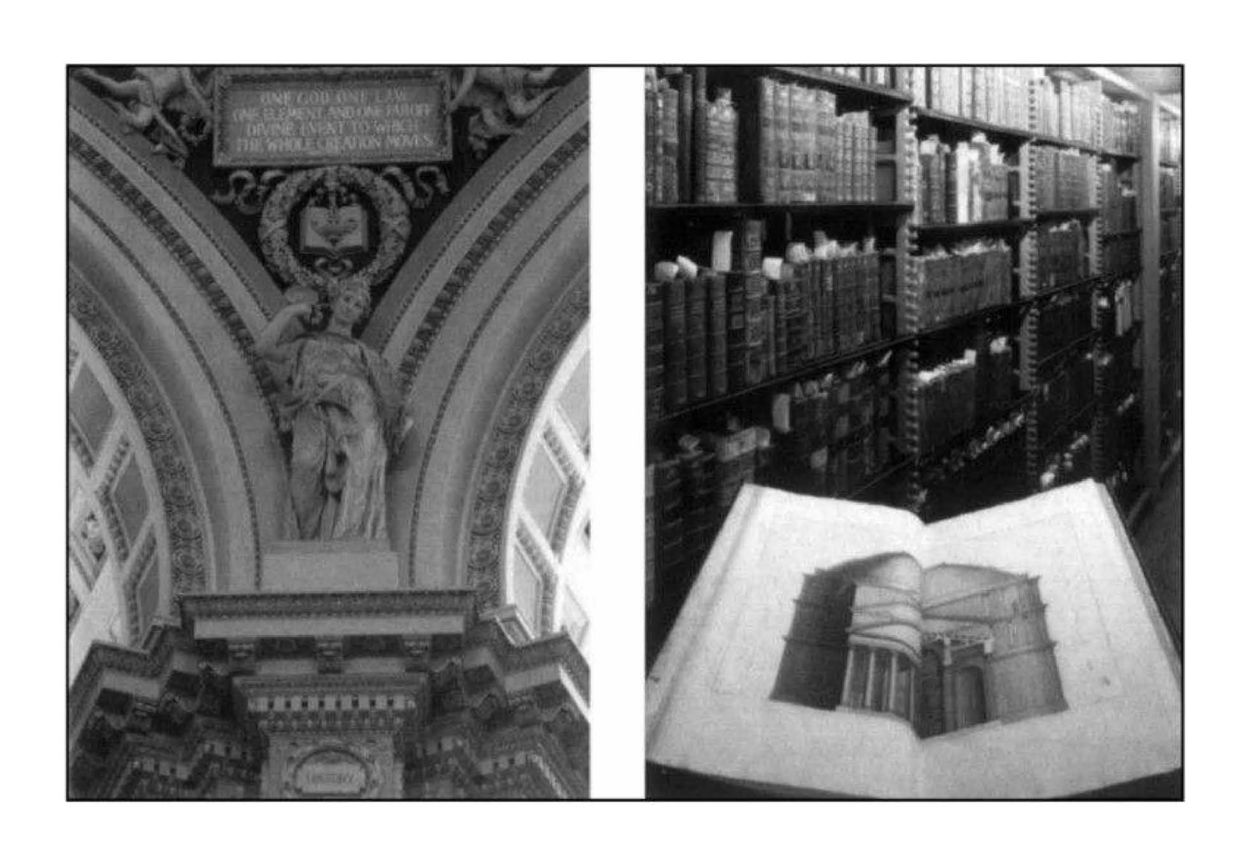
ويعتبر شهر إبريل (نيسان) من كل سنة هو شهر الشعر، وتشرف عليه أكاديمية الشعراء الأميركية، ويعتبر الأسبوع الأول من الشهر نفسه أسبوع كتب الأطفال العالمي، أما الأسبوع الثاني فأسبوع المكتبات الأميركية والأسبوع الثالث هو أسبوع شعر الأطفال. وكمثال لاحتفالات الأميركيين بيوم الكتاب، خططت مكتبة كينزنغتون، في واحدة من ضواحي واشنطن، للاحتفال في قلب المدينة بيوم الكتاب العالمي، يكرر في مدن أميركية كثيرة، و«ضيف الشرف» شخص في هيئة «شيرلوك هولمز» يطوف المنطقة للإجابة على أسئلة المحتفلين وللحديث عن قصص الجاسوسية والتحقيقات البوليسية.

وهناك ركن لقصص رعاة البقر، وآخر لكتب عن الشقراوات بحضور جوديث ديوريك، مؤلفة قصص رومانسية تاريخية، في قراءة لبعض كتبها، ومنها «دائرة من حجارة» و «الاستماع إلى الريح»، وكذلك

حضور الفنانة آن هارلان في حصة للأطفال تشجعهم فيها لكتابة كتاب صغير، وطباعته، وتوزيعه. وركن لرجال المطافئ في المدينة، يعرضون فيه الكتب التي يقرأونها. وكتب يريدون التبرع بها، أو استبدالها بكتب مستعملة، وبالطبع ركن للناشرين.

خلال احتفالات يوم الكتاب العالمي في بداية سنة 2003، أثارت الجمعية الشعرية الأميركية ضجة عندما أعلنت أنها ستستغل ليلة شعرية في البيت الأبيض، كجزء من احتفالات يوم الكتاب العالمي، لقراءة قصائد تعارض خطة غزو العراق، الذي تم بعد ذلك بأقل من شهر، وكانت السيدة الأولى، لورا بوش، رعت احتفالات عيد الكتاب، والليلة الشعرية، لكن اضطر البيت الأبيض لإلغاء الليلة الشعرية بعد إعلان خطة الاحتجاج.

يشترك في احتفالات يوم الكتاب مؤسسات وجمعيات منها: «مؤسسة الكتاب الوطنية»، و «شعراء وكتّاب»، ومكتبة الكونغرس.



أزمة الوعي التاريخي[1]؟

إن أزمة الكتاب العربي ليست أزمة نشر بل أزمة مضمون، وتكشف أزمة المضمون عن أزمة وعي تاريخي، إذ لا يستطيع العربي كاتباً أو قارئاً، أن يجيب عن سؤال: في أي مرحلة من التاريخ أنا أعيش؟ فمن الصعب تشخيص طبيعة المرحلة الراهنة. ثورة أم ثورة مضادة؟ نهضة أم سقوط؟ إصلاح أم كبوة؟ تجديد أم تقليد؟ انفتاح على العالم أم انغلاق على النفس؟ إرهاصات أم إفلاس؟ القديم لم ينته بعد. والجديد لم يبدأ بعد، المرحلة الراهنة مرحلة مخاض أن تتم بعد التخصيب، والولادة قادمة، وبشائرها واضحة في تحرك الشارع في لبنان ومصر حتى ولو كانت حنيناً إلى الماضي، العشرينيات والثلاثينيات في العصر الليبرالي، أو إلى الخمسينيات والستينيات في العصر القومي، وقد يكون الحنين إلى أبعد من ذلك إلى الإسلام في عصر النبوة والصحابة والتابعين. وقد يكون الحنين إلى الشاطئ الآخر إلى العصر الاشتراكي الأممي في العشرينيات في الثورة البلشفية. وقد بدأت بعض الطيور المهاجرة في العودة إلى الأوطان، وخرجت بعض التنظيمات السرية من تحت الأرض إلى فوق الأرض لتتفاعل مع المجتمع وتشارك في عمليات التغير الاجتماعي، وتجاوز الوعي العربي حالة الإحباط واليأس وربما الموت غماً وكمداً كما يحدث لبعض الشعراء.

أزمة الكتاب هي أزمة كتاب قبل أن تكون أزمة قراءة أو أمية، والكتاب كتابة وقراءة قبل أن يكون حرفة أو صناعة، والمضمون يفرض نفسه على التوزيع، الكتاب أزمة عصر ومرحلة تاريخية، يعبّر عن الحالة

---

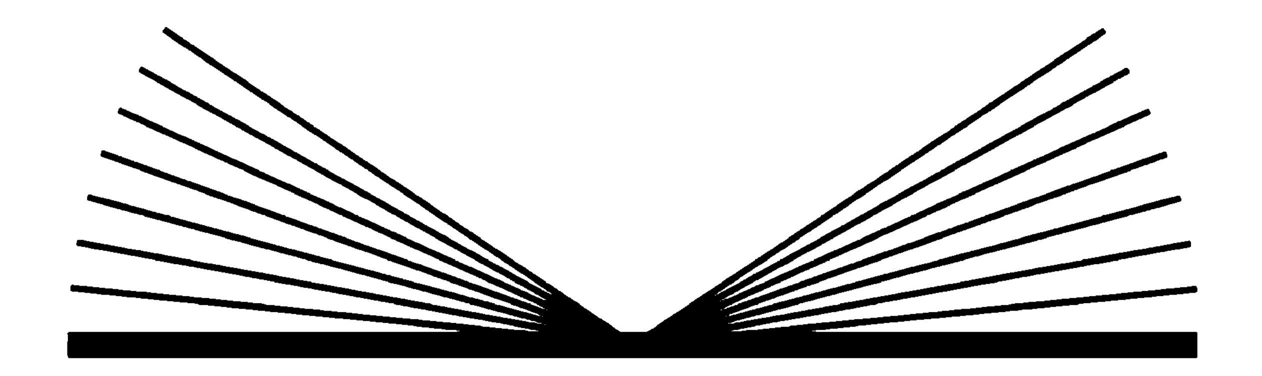
(1) حسن حنفي، (مع آخرين) أزمة الكتاب العربي، مرجع سابق.

الراهنة للوعي الحضاري ومساره في التاريخ، وما زال «معالم في الطريق» أكثر الكتب توزيعاً وقراءة لدى الشباب لأنه يعبّر عن حرفة سجين في ظروف قهر. تدمر كل شيء بعد أن توالت المآسي والمحن، وضاع أهم اكتساب من حركات التحرر الوطني وهي الدولة الوطنية الحديثة.

العزوف عن القراءة مثل العزوف عن الانتخابات، والعزوف عن المشاركة في الحياة العامة. هناك انسداد تاريخي في الوطن العربي. المياه محجوزة وراء السدود. ومع ذلك توزع المنشورات والبيانات بالآلاف كما تعددت الكتابات البديلة، والكتابات تحت الأرض، ومع ذلك تحول القراء إلى مستمعين ومشاهدين لملايين الأشرطة للمغنية الشابة وللفيديو كليب ولكرة القدم وللدعاة الدينيين الجدد صنّاع الحياة بالحديث عن الجنس والحب والزواج. أزمة الكتاب هي أزمة عصر، وأزمة العصر هي أزمة قيم، وأزمة القيم ناشئة من طبيعة المجتمعات في مراحل التحول التاريخي.

إن دور النشر ليست فقط مكاناً لصناعة الكتاب بل هي مراكز للبحث العلمي والتخطيط الثقافي. ليست مجرد نشر وطباعة التوزيع بل رؤية ثقافية تعبّر عن وعي حضاري، وليست فقط لجان قراءة أو مراجعة من مختصين بل هي جزء من حركة مجتمع ومسار تاريخ. تشارك في الحياة الثقافية بالتخطيط والتشخيص وتقسيم العمل وإقامة الندوات والمؤتمرات وحلقات البحث المتخصصة وطبعها وتوزيعها وتطوير مردودها. وتستطيع أن تؤدي دورها نظراً لاستقلالها التام أكثر مما تقوم به المؤسسات الثقافية الرسمية والأحزاب السياسية وتنظيمات المجتمع المدني.

رفوف وأرصفة



كيف بدأت المكتبات وأين؟

من المعروف أن المكتبات الحقيقية الأولى وجدت منذ حوالي 8000 سنة، وكان شعب بلاد ما بين النهرين الشعب الذي كتب على ألواح من الطين الرطب بعود على شكل وتد ويدعى «مسمار» لذا عرفت كتابتهم «بالمسمارية». وكانت الألوف من هذه الألواح تخزّن في قصور وهياكل حيث ترتب بترتيب موضوعي. أما المصريون فكتبوا على ألواح البردى التي كانت تلف حول عصا ذات مقبض وتوضع في صناديق أو على رفوف في الهياكل وتحت إشراف الرهبان.

إن أول مكتبة عامة قامت في أثينا على يد «بيزيستراتوس» العام 540 ق.م. أما أكبر مكتبة فكانت مكتبة الإسكندرية التي أسسها في العام 248 ق.م. أول ملوك البطالسة والتي دمرت عن آخرها في حريق المدينة على يـــد يوليـــوس قيصر العام 47 ق.م. وكانت هذه المكتبة تحتوي على 700 ألف لفة من البردى وكانت مفهرسة ومصنفة بالكامل تحت 120 فئة.

اهتم الرومان بالمكتبات العامة، وأنشئت أول مكتبة عامة بمبادرة من «بول ـ أميل» المقدوني في القرن الثاني ق.م. وكان أساسها الكتب التي أحضرها هذا الأخير من مقدونيا العام 167 بعد انتصار على «بيرسيوس» أخر ملوك هذا البلد.

أما عن مكتبات الأزمنة الحديثة فهذه أشهرها بالتسلسل الزمني على أن تذكر أول مكتبة في كل بلد.

1254 : سلامانك ـ مكتبة الجامعة.

1436 : فلورنسا ـ مكتبة أسسها «نيكول نيكولاي».

حوالى 1440: فيينا ـ مكتبة امبراطورية أسسها «فريدريك الثالث».

1446 : روما ـ مكتبة إمبراطورية أنشأها البابا «نقولا الخامس».

حوالى 1520: بلوا ـ مكتبة ملكية هي اليوم المكتبة الوطنية في باريس وأسسها «فرنسوا الأول».

1580 : ادنبورغ ـ مكتبة الجامعة.

1598 : أوكسفورد ـ مكتبة بودليان.

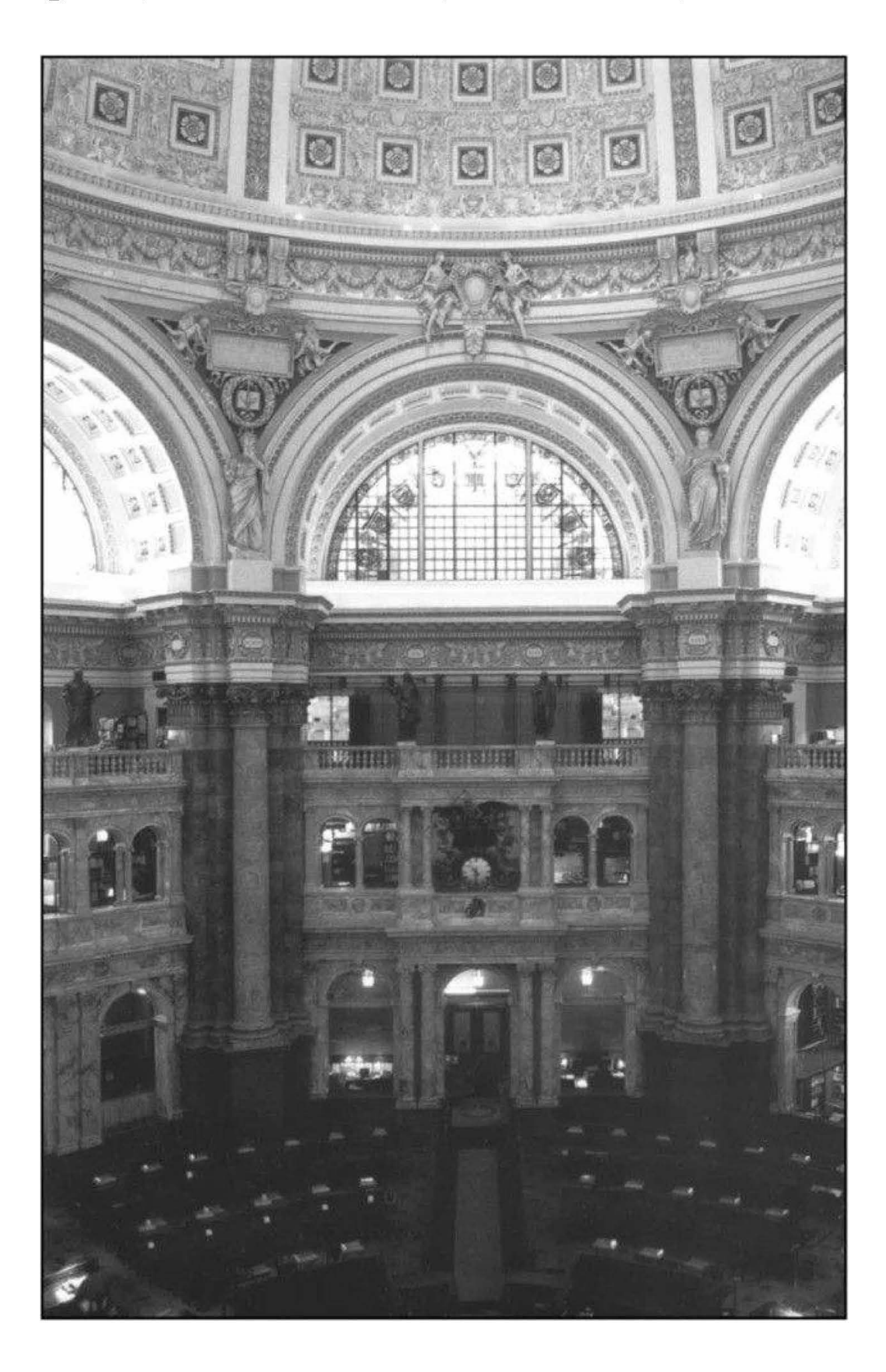
1638 : هارفارد ـ مكتبة الجامعة.

1659 : برلين ـ المكتبة الملكية.

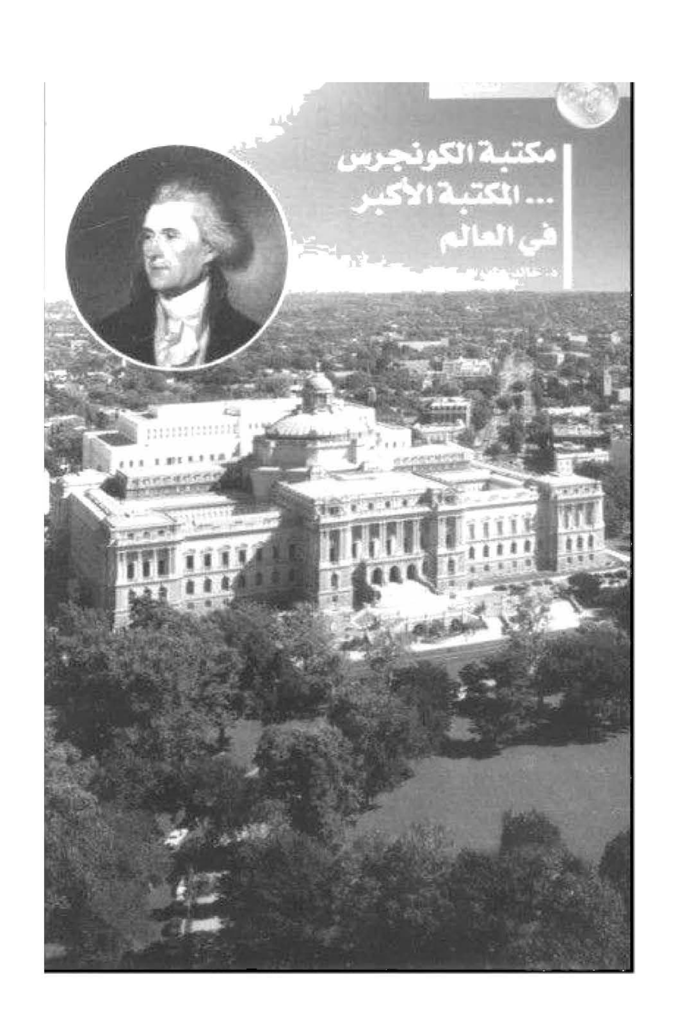
1796 : لشبونة ـ المكتبة الوطنية.

ما هو تاريخ نشأة مكتبة الكونغرس الأميركي؟

مكتبة الكونغرس الأميركي كما يدل عليها اسمها بنيت وجمعت مجموعاتها بجهود رجال الكونغرس، ويعود تاريخ نشأتها إلى تكوين أول كونغرس أميركي العام 1789 إذ تقرر تأسيس مكتبة للرجوع إليها في حالة إصدار قوانينهم وكانت تلك هي الانطلاقة الأولى في تاريخ المكتبة.



العام 1800 بدأت المكتبة باستيراد 150 كتاب في 750 مجلّد من إنكلترا. وفي العام 1814 زحف الإنكليز إلى واشنطن، حيث مقر المكتبة، وقاموا بحرق مكتبة الكونغرس. ونتيجة لذلك قامت المكتبة بشراء المجموعة الخاصة بالرئيس «جيفرسون» والمكونة من 6487 مجلّد مقابل مبلغ 23650 دولار. وكانت هذه هي النــواة التــي نمت بعد ذلك وأصبح رصيد مكتبة الكونغرس حوالي 82 مليون قطعة تراوح بين البرديات والكتب الحديثة مروراً بالقطع الموسيقية والأسطوانات والأفلام والميكروفيلم والصور الأصلية والخرائط... وأما رصيد مكتبة الكونغرس بمختلف محتوياتها فموجود في 470 لغة مختلفة.



بين الكتاب والمكتبة

نشأت المكتبات العربية، تاريخياً في رحاب الجوامع الكبرى كجامع الزيتونة في تونس والأزهر الشريف في مصر والنجف الأشرف في العراق، حيث شكلت معاقل العصر للثقافة والعلم والمعرفة. ومع ظهور الطباعة الأوروبية (في أواسط القرن السادس عشر) والمشرقية (في القرنين الثامن والتاسع عشر) بدأت المكتبات العربية عملها كمؤسسات ثقافية مستقلة، وترفدها المطابع الأوروبية والعربية (المطبعة الأميركانية العام 1834 والكاثوليكية العام 1848 أقدم مطبعتين في المشرق العربي) بنفائس المؤلفات لأشهر الفلاسفة والعلماء والأدباء.

اليوم وفي غمرة الثورة العلمية والتكنولوجية وأنظمة الاتصالات والمعلوماتية، لم تعد المكتبات مجرد صالات عرض للمطالعة أو لحفظ المؤلفات والمخطوطات والدوريات وحسب، وإنما أصبحت مؤسسات ثقافية عصرية تواكب حركة التطور، خطوة خطوة، وصولاً إلى مكننة كل ما يتعلق بتنظيمها وإدارتها وتعميم فائدتها عبر أجهزة الكومبيوتر المتصلة بشبكات الإنترنت العالمية.

هذا التطور بات يفرض نفسه، يوماً بعد يوم، على المعنيين بشؤون المكتبات حكومات ومؤسسات وأفراداً، لا سيما بعد أن أصبح هذا القطاع الثقافي علماً قائماً بذاته، وتخصصاً مهنياً تدرس مناهجه وقواعده ونظمه في الجامعات والمعاهد العالية.

وفي ما يخص البلاد العربية، يبدو أن هذه النماذج من المكتبات المتطورة لم تعمم بما فيه الكفاية إذ إن خمس دول منها ما تزال دون مكتبة عامة أو وطنية وبعضها الآخر يمتلك نواة لمكتبة تؤدي جانباً من وظائفها الأساسية وبعضها قد أتت عليه الحروب الأهلية كلياً أو جزئياً كما في لبنان والصومال. ففي الجزائر أنشئت أقدم مكتبة عربية العام 1835 وفي الأردن تأسست أحدثها العام 1990. أما معظم المكتبات الأخرى فقد تأسست في حقب تاريخية مختلفة ومعظمها غير مستقل بذاته إذ غالباً ما تكون المكتبات ملحقة بوزارات التربية والتعليم أو بدوائر المحفوظات الوطنية أو تابعة لإحدى المؤسسات العامة كالبلديات. وهي لذلك تتباين في أنظمتها ومصطلحاتها وكمية عناوينها ودورها الثقافي على المستوى الوطني والشعبي.

ثمة نوعان رئيسيان من المكتبات العربية: مكتبة عامة أو وطنية ومكتبات متخصصة، ولئن كان النوع الأول يحتوي على عدد كبير من المؤلفات والمخطوطات والدوريات والوسائل السمعية والبصرية وغيرها من الوثائق على اختلاف موضوعاتها وأحجامها ويضم عدداً من الموظفين وجلّهم من غير المؤهلين مهنياً.

ويتنوع رواده الذين غالباً ما ينتمون إلى شرائح المثقفين والباحثين والأكاديميين والطلاب الجامعيين، فإن النوع الآخر ينضوي إجمالاً مؤسسات البحث العلمي أو في مراكز المعلوماتية أو في المؤسسات المالية والتجارية والصناعية أو لدى المنظمات الإقليمية والدولية، وهو في مطلق الأحوال، أرقى تنظيمياً وأشد التصاقاً وتواصلاً مع المكننة العصرية ووسائلها التكنولوجية المتطورة.

تشير المعلومات الإحصائية الصادرة عن منظمة اليونسكو ومنظمة

ألكسو (المنظمة العربية للثقافة والتربية والتعليم)، إلى أن العاملين في المكتبات العربية يربو عددهم على ثلاثة آلاف شخص، لا تتجاوز نسبة المؤهلين منهم 2 بالمئة على الرغم من أن معظمهم من المتعلمين وحملة الشهادات الجامعية، كما أن الكتب المتوفرة فيها تزيد عن 12 مليون مؤلف تندرج تحت ما يقرب من 8000 عنوان، عدا الدوريات (اليومية والأسبوعية ونصف الشهرية والفصلية والسنوية) التي تصل أعدادها إلى نحو 8200، والأطروحات الجامعية (نحو 150 ألف) والمخطوطات (نحو 95 ألف) والوسائل السمعية ـ البصرية (نحو 60 ألفاً). وما يمكن ملاحظته أن عدد العناوين في المكتبات العربية يبدو هزيلاً (نحو 1 بالمئة) إذا ما قيس بمجمل الإنتاج العالمي[1].

مع ذلك سنعود إلى المكتبات العربية تاريخياً لنستعرض أبرز ملامحها وبصماتها، ومركزيتها نسبة إلى المدن.

(1) علي حويلي، مجلة "النور" تموز 2000.

المكتبات العربية في عصور الخلفاء والأمراء

شكلت المكتبات رافداً مهماً لإغناء الثقافة العربية، إضافة إلى أنها القاعدة المعرفية لطلاب العلم، إذ لا يخفى أن إحدى مميزات الحضارة العربية والإسلامية نشرها قواعد المعرفة من طرق الكتاب واحتضانها المكتبات وتعميمها وجعلها في متناول جمهور القراء... لقد شاهد المسلمون العرب الأوائل كتب الفرس ومكتباتهم وأعجبوا بها كما سمع العرب بمكتبة الإسكندرية الشهيرة التي أسسها «بطليموس الأول» مؤسس السلالة وغذاها وطورها من بعده ابنه وخليفته، «بطليموس فيلادلفوس» الذي جعل منها أكبر معهد أكاديمي في العالم القديم وجمع فيها أكبر عدد ممكن من الكتب والملفات.

ويذكر ابن الأنبار أنه رأى في مدينة الحديثة قرب الأنبار في العراق خزانة للكتب فيها مخطوط الإمامين الحسن والحسين وأمانات وعهد بخط أمير المؤمنين وخطوط لعلماء في النحو واللغة أمثال أبي عمرو بن العلاء وأبي عمرو الشيباني الأصمعي وابن الأعرابي وسيبويه والفرّاء والكسائي، ومن خطوط أصحاب الحديث مثل سفيان بن عيينة وسفيان الثوري والأوزاعي وغيرهم. ولقد حفل العالم العربي بجميع أنواع المكتبات العامة للجمهور على اختلاف أنواعه وثقافاته والمكتبات الخاصة التي يمتلكها أفراد معيّنون لخدمة أغراضهم الشخصية.

والمكتبات الملحقة بالمساجد والجوامع والربط، ومكتبات الدولة التي ينشئها الخليفة أو الأمير أو حام الولاية والمكتبات المخصصة للدراسات العليا والمكتبات التابعة للمدارس والجامعات ومكتبات المشافي وما شابه.

وتعتبر مكتبات المساجد والجوامع من أولى المكتبات التي ارتبط نشوؤها بنشوء الإسلام، إذ جرت العادة أن يودع الناس في المساجد عدداً من نسخ القرآن الكريم وغيره من الكتب الدينية. ومن الواضح أن مكتبة المسجد ظهرت منذ أن اتخذ المسلمون المسجد مكاناً للدراسة وجعلوا للمسجد خزانة للكتب وحملوا إليها كتباً كثيرة. وقد كان لأغلب هذه الخزائن ولاسيما الكبيرة منها مشرفون على شؤونها وهم من العلماء والمشهود لهم بالكفاية، فالمكتبة لا تحتوي كتباً دينية فقط وإنما كتب فلسفية وعلمية وكانت تدرس في المساجد جميع أنواع العلوم باستثناء الطب. وعلى سبيل المثال كان للحلقات التي تعقد في جامع طليطلة شهرتها وأهميتها وجذبت إليها الطلاب المسلمين والنصارى على السواء وكان يقصدها طلاب نصارى من جميع أنحاء أوروبا بما فيها إنكلترا واسكوتلندا وقد احتفظت طليطلة بمكانتها هذه بعد سقوطها بيد الإسبان عام 1085م.

أما المكتبات الخاصة فلقد انتشر هذا النوع من المكتبات في جميع أنحاء العالم الإسلامي وحرص الأغنياء والوزراء على اقتناء مجموعات ضخمة منها وامتلك علي بن يحيى المنجم بكركر من نواحي بغداد قصراً جليلاً وخزانة للكتب كذلك يجب أن نذكر ابن العميد وزير البويهيين ومكتبته الرائعة التي زهت بان خازنها كان المؤرخ الشهير ابن مسكويه لأن العميد لم يكن عالماً وبحاثة فقط وإنما أضاف إلى ذلك حباً شديداً

للكتب وكذلك تلميذه إسماعيل ابن عباد المعروف بالصاحب ابن عباد فقد كان أشد حباً للكتب من أستاذه وأكثر جمعاً لها. وهو أول من لقب من الوزراء بالصاحب. وقد كان للصاحب مكتبة قدّر عدد كتبها بحوالي مائتين وستة آلاف مجلد (206) وقد زارها أبو الحسين البيهقي ووجد أن فهرست تلك الكتب عشرة مجلدات. ويذكر «ول ديورانت» في قصة الحضارة أنه كان عند بعض الأمراء كالصاحب بن عباد من الكتب بقدر ما في دور الكتب الأوروبية مجتمعة.

وبخصوص المكتبات الأكاديمية لابد لنا أن نعرج على الحاكم بأمر الله الذي أسس دار الحكمة عام 395هـ وكان الغرض الأساسي منها هو تلقين أصول الدعوة الفاطمية ونقل إليها أعداداً غفيرة من الكتب الموجودة في خزانته الخاصة من سائر العلوم والآداب والخطوط. وقد قسمت المكتبة إلى أقسام، قسم الفقهاء وقسم لقرّاء القرآن وقسم للمنجمين وقسم لأصحاب النوع واللغة وقسم للأطباء.

وكانت هذه المكتبة منظمة ومرتبة في شكل يسهل خدمة القراء فيها وقد عيّن مشرفاً عليها القاضي عبدالعزيز من أسرة النعمان الشهيرة وهناك مكتبة أكاديمية أخرى هي مكتبة «مراغة» التي أسسها المغول بعد سقوط بغداد في مدينة مراغة من مدن أذربيجان. ومن أشهر المكتبات تلك التي أسسها عضو الدولة البويهي في شيراز مقر حكمه وهي دار كتب فخمة طار صيتها في الآفاق وجمع فيها من الكتب ما ليس له نظير ووضعت في عهدة ثلاثة أشخاص يتسلسلون في العمل والمسؤولية.

كذلك أوجد سيف الدولة مكتبة كبرى جعلها في عهدة شاعَرين أخوين مشهورَين هما الخالديان أبو بكر محمد ابن هاشم وأبو عثمان سعيد بن هاشم، كما كان لعبد الرحمن الأوسط في الأندلس مكتبة فخمة

في قرطبة وقد عمد إلى إرسال عباس بن ناجح إلى الشرق العربي ليلتمس بعض الكتب ويستنسخها وحذا حذوه الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر الذي أسس مكتبة كبرى في قصره وخزّن فيها الكتب بجميع اللغات.

أما المكتبات العامة فكان لها حضورها في العالم العربي ولعلّ أبرزها مكتبة سابور في بغداد في القرن الخامس الهجري، والثانية مكتبة بني عمار في طرابلس الشام في القرنين الخامس والسادس الهجريين.

فمكتبة سابور بن أردشير أسسها وزير بهاء الدولة البويهي سابور وسميت باسمه وكان ذلك عام 382هـ وتطلق على هذه المؤسسة تسميتان مختلفتان، فابن الأثير يذكرها باسم خزانة الكتب على حين أن غيره كياقوت الحموي وابن ثغري بردي يذكر أنها دار العلم وقد بلغ عدد كتبها 10400 مجلد من أصناف العلوم، منها مئة مصحف بخطوط بني مقلة، وقد ظلت هذه المكتبة حية حتى عام 451هـ حيث شبت نار هائلة أدت إلى حرقها.

ومكتبة بني عمار في طرابلس أصبحت قصتها كالأساطير، كان فيها عدد كبير جداً من الكتب بخطوط مؤلفيها وقد حوت جميع أنواع وفروع المعرفة الإنسانية من طب وفلك وفلسفة وأدب وتاريخ.

أما مكتبات المدارس فكان أشهرها تلك التي أنشأها نظام الملك الذي أسس مدرسة في بغداد عام 1067م وأطلق عليها اسم نطافية بغداد وألحق بها مكتبة منظمة زودها بكل غريب ونادر.

وكذلك أنشأ الخليفة المستنصر المدرسة المستنصرية على شاطئ دجلة وزودها بمكتبة حَوَت جميع أنواع الكتب.

وظهرت مكتبات المشافي، إذ ألحق الخلفاء بهذه المشافي مكتبات حافلة تضم ثمرات العقول وذكر أن عدد الكتب التي وجدت في مستشفى قلاوون بالقاهرة بلغ حوالي مئة ألف مجلد أخذت غالبيتها من دار الحكمة في القاهرة.

أما من حيث التنظيم فقد كانت المكتبات في العالمين العربي والإسلامي منظمة تنظيماً رائعاً، إذ كانت توضع تحت إدارة ثلاثة أشخاص، المشرف الأعلى ويسمى الوكيل وأمين المكتبة ويسمى الخازن ومساعده ويسمى المشرف. كما أهتم العرب المسلمون بفهرسة مكتباتهم وتنظيمها بحيث يسهل تناولها واستعمال كتبها على الباحثين والدارسين. ولقد كانت الفهارس على نوعين: إما أن تكون مكتوبة في مجلدات تستعمل للكتب فيرجع إليها المطالع من أجل معرفة محتويات المكتبة، وإما أن تكون أسماء الكتب والمؤلفين مكتوبة على لائحة معلقة على مدخل كل قسم من الأقسام.

من هذا المشهد، ننتقل إلى معلم أرتبط بالكتاب والثقافة عربياً، ألا وهو شارع المتنبي في العراق، فقد تأسس شارع المتنبي في أواخر العصر العباسي الثالث في عهد الخليفة المستعصم بالله. وعُدّ آنذاك امتداداً لسوق الوراقين «سوق السراي» حالياً، وكان يسمى في ذلك الوقت بـ «درب زاخا» وهي تسمية أرامية. كان مزدهراً بالمؤسسات الثقافية والمدارس الدينية والعلمية، ومن أشهر هذه المدارس مدرسة الأمير «سعادة الرسائل». وبعد سقوط بغداد على يد هولاكو عام 1258 ومرور بغداد بما يصطلح عليه بالفترة المظلمة أو مرحلة الإنتكاسة الحضارية خبا نجم هذا الشارع وخفت بريقه الثقافي إلى أوساط العهد العثماني حيث تم بناء «القشلة» على يد الإدارة العثمانية لتكون «سرايا

للحكومة» واستكمالاً لهذا الإنشاء كان لابد من منفذ لخروج العربات الداخلة إليها من جهة ساحة «الميدان» خصوصاً أن سوق السراي لا يسمح بذلك لضيقه وازدحامه، ومن هنا جاءت فكرة مد أو فتح شارع المتنبي ليرتبط بشارع الرشيد مثلما هو في وضعه الآن وقد سمي بادئ الأمر بشارع «جديد حسن باشا» نسبة إلى المشرف العام عليه وهو رئيس بلدية ولاية بغداد آنذاك «حسن باشا». ومن ثم أطلق عليه اسم شارع «الأكمك خانة» أي المخبز العسكري باللغة التركية وتقع مكتبة النهضة في بنايته نفسها الآن، وبعد ذلك وفي عهد الدولة العراقية الحديثة وتحديداً عام 1932 إبان فترة حكم الملك فيصل الأول تم إطلاق اسم المتنبي على هذا الشارع تخليداً للشاعر الكبير أبي الطيب المتنبي.

وإذا كانت ثمة رئة لبغداد اليوم فهي شارع المتنبي الذي يعدّ أقدم معرض دائم للكتاب في العالم ويمتد عمره تسعة قرون. وفي أيام الطاغية البعثي ساهم هذا الشارع عبر العاملين فيه في نشر الكثير من الكتب الممنوعة التي كانت تصدر في أماكن كثيرة من العالم وتهرّب إلى العراق لتجد مكانها السري في هذا الشارع، حيث تستنسخ وتباع سراً للقراء المتعطشين إلى المعرفة. وربما لا يمتلك هؤلاء القراء أية فكرة عن معاناة هؤلاء الباعة في كيفية صناعة الكتاب المستنسخ وعملية توزيعه وسط الرقابة المشددة التي كانت تمارسها أجهزة نظام الموت في الأزمات السياسية التي كانت تعصف بالعراق. فقد تشتد أحياناً المداهمات ما يحرم الكثير من الباعة لقمة العيش بسبب اضطرارهم إلى ترك السوق لفترة طويلة.

يقوم هؤلاء الباعة بترويج الكتب سراً، تحديداً يوم الجمعة حيث يكتظ الشارع بالمثقفين والأدباء والفنانين. أما نوعية هذه الكتب فهي

سياسية تفضح دور النظام وأساليبه الإرهابية في تعذيب العراقيين. وكذلك كتب فكرية ودينية ومجاميع شعرية وروايات وكتب نقدية يصدرها أدباء عراقيون يعيشون في المنافي، كانوا قد نجحوا في التخلص من بطش الطاغية.

هكذا أصبح شارع المتنبي رئة العراق الثقافية وأكبر موزع للكتب والمرجع لكل التيارات، كونه مصدراً للثقافة السرية. ولا يزال حتى الآن الكتاب المستنسخ مصدراً مهماً للكثير من القراء الذين لا يستطيعون شراء الكتب الجديدة بسبب أسعارها المرتفعة جداً. ولعب باعة الكتب المستنسخة والممنوعة في شارع المتنبي دوراً مهماً وخطيراً في مواجهة نظام الجهل حين قرروا المخاطرة بحياتهم وحياة أبنائهم وقاموا بتزويد القارئ بكل ما يستجد من كتب جديدة تخص الأوضاع في العراق. وتعرّض قسم منهم إلى التعذيب والسجن بتهمة حيازة كتب ممنوعة ككتب العلامة الشهيد محمد باقر الصدر والمفكر حسن العلوي ومذكرات الجواهري ومؤلفات حنا بطاطو وكنعان مكية.



إنها إذاً ثقافة الاستنساخ أو ثقافة المواجهة والمعارضة، خصوصاً حين نعرف أن أكثر مثقفي العراق عملوا كبائعي كتب في شارع المتنبي. عاد شارع المتنبي من جديد ليلعب دوره الحضاري والثقافي الذي طمس أيام النظام السابق. فقد تأسست جمعية ثقافية اجتماعية بالاسم نفسه ضمن مؤسسات المجتمع المدني الحديثة في العراق. وهذه المؤسسة يديرها مثقفون وباعة كتب وأصحاب مكتبات، وتمارس الآن دوراً مهماً في إحياء الثقافة الوطنية الجادة، حيث يجتمع المثقفون نهار كل يوم جمعة في مقهى الشاهبندر في مختلف انتماءاتهم السياسية والمذهبية لمناقشة أوضاع وطنهم السياسية والثقافية.

مكتبات الرصيف

نبقى في مناخات مكتبات الرصيف، إنما هذه المرة من بيروت حيث مكتبات الرصيف غير الثابتة، وربما تكون المؤقتة بعروض ذخيرتها من الكتب القديمة المستعملة التي تداولتها أياد عديدة حتى اهترأت بعض حواف أوراقها، أو تلك البادي عليها اعتناء فائق، حتى إذا ما وضعت على قطعة قماش أو نايلون مفروشة على الرصيف، أحس المهتم بها أنه أمام عينة من ثقافة معينة يمتاز بها الكتاب المعني، الذي كثيراً ما يكون بائعه غير عارف بالثمن الروحي لذاك الكتاب.



ظاهرة بيع الكتب القديمة على الأرصفة اختصت بها دول عدة من بينها الدول العربية التي أجازت دوائرها المعنية بيع تراث الكتب على الأرصفة، وهي إن انتشرت بشكل عشوائي في شوارع القاهرة وعند مداخل جامعاتها، فقد افتتح لها في منطقة الشميساني بالعاصمة الأردنية شارع خاص أطلق عليه «شارع الثقافة». وفي سوق المتنبي للكتب في بغداد، حددت الجهات المختصة يوماً واحداً هو الجمعة كي تعرض فيه الكتب القديمة على الأرصفة. تنظم هذه الظاهرة في الدول الأوروبية، حيث تنتشر أكشاك الكتب في أنفاق القطارات، وعلى الأرصفة وغيرها...

أما في بيروت، فالحكاية مختلفة بحيث تجمع هذه العاصمة ما بين المنظم والعشوائي. يفترش الباعة أرصفة شوارع البربير، كليمنصو وبعض شوارع الضواحي البيروتية، كما يتسابقون إلى اتخاذ المواقع الإستراتيجية في سوق الأحد. وما هو مسموح في هذه الأماكن، ممنوع في شارع الحمرا.

هذه الظاهرة «تعود إلى ما قبل الستينات، وكان الجميع يفترش أرصفة الحمرا لبيع الكتب بترخيص من وزارة السياحة. أما اليوم، فبلدية بيروت تحدد نقاط وجود الأكشاك وتمنح بالمقابل رخصاً سنوية لأصحابها»، بحسب حسان دكروب، صاحب كشك لبيع الكتب في الحمرا في الستينات والسبعينات وحتى خلال الحرب يفيض حركة ليلاً. أما اليوم، فزحمة الناس والسيارات تتركز خلال النهار، ما ينعكس على ساعات عمل أكشاك بيع الكتب والمجلات.

يضيف دكروب: «كان الوالد يعرض الكتب من الساعة العاشرة ليلاً حتى الفجر. أما اليوم، فأنا أبدأ نهاري السابعة صباحاً، وأنهيه الرابعة

عصراً، حتى خلال موسم السياحة، فشارع الحمرا بعد الرابعة عصراً يتحول مدينة أشباح، ولا شيء يشجع على البقاء ربع ساعة إضافية».

ويوافقه القول قاسم أيوب، بائع الكتب الوحيد على الرصيف في شارع الحمرا الذي لم يمنح ترخيصاً لكوخ حتى الآن، إذ يبدأ نهاره من السابعة والنصف صباحاً حتى الخامسة عصراً، ويتذكر أيوب سنوات الحرب فيقول بعفوية: «رزق الله على أيام الحرب، يا ليتها تعود». فجأةً، يستدرك أمنيته، ويشرح ما قاله: «يا ليت حركة المبيع تعود كما كانت عليه خلال سنوات الحرب». في هذا السياق تتجه ثقافة الرصيف إلى ثلاثة أقسام، منها كتب لا علاقة لها بالثقافة، حيث يستغل الرصيف لترويجها، وهي كتب العفاريت والجن والسحر ومثلث برمودا والجنس وليلة الزفاف، وهي كتب من الطبيعي إلا يكون مكانها في المكتبات الفاخرة، إذ إنها تبحث عن قارئ معين.

وهناك ثقافة أخرى تنتشر على الرصيف هي ثقافة الكتب الدينية ملخصات عن أمهات الكتب، أو التي ألّفها بعض الشيوخ المغمورين لمداعبة أحلام المراهقين، وتحدد معظم عناوينها في إطار عذاب القبر ونعيمه، وماذا ترى في النار؟ سكرات الموت، إلى آخر هذه القائمة.

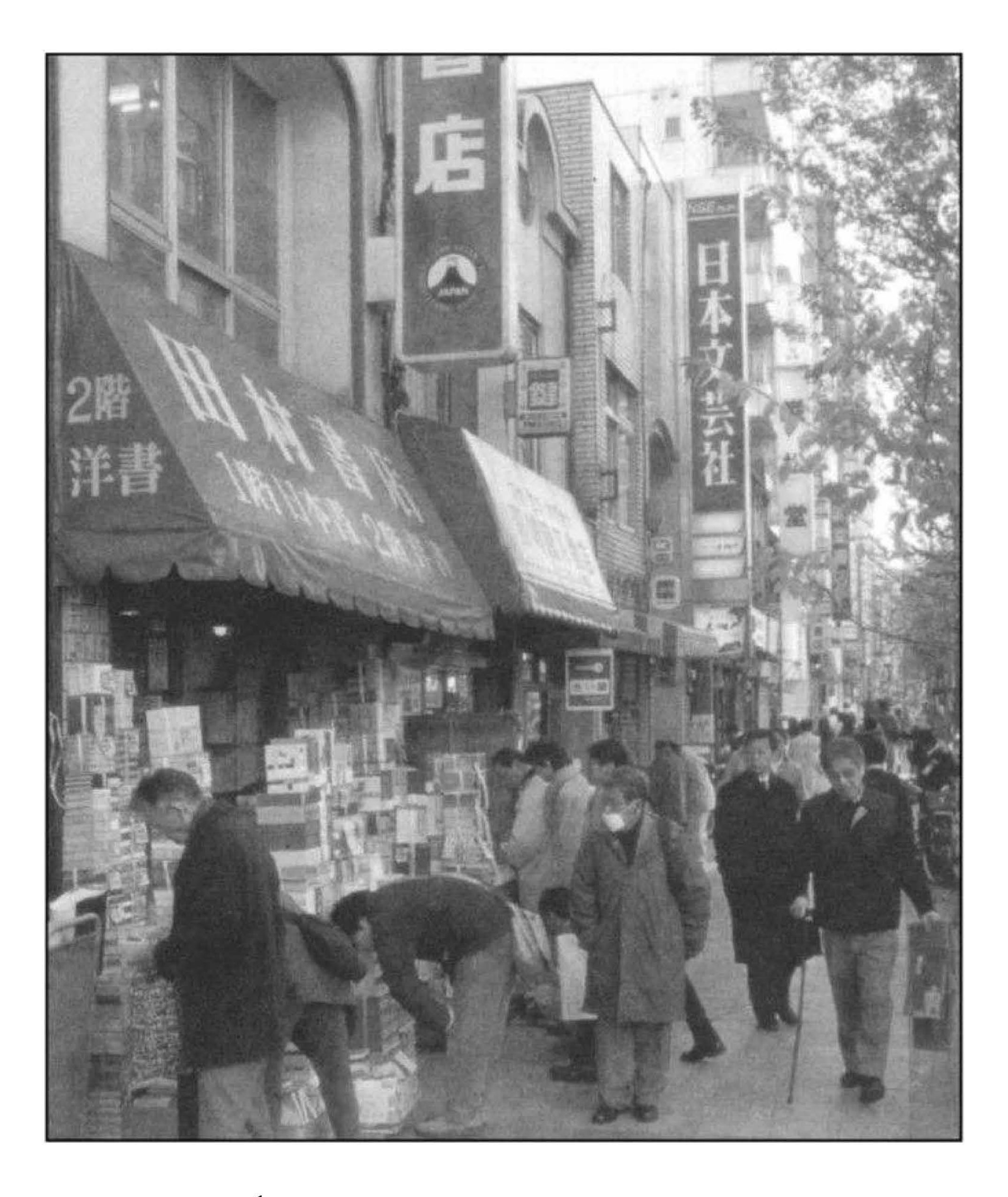
وآخرها كتب تعنى بثقافة جادة، وان كانت لا تجد قارئاً متميزاً. وهي الكتب الأدبية والثقافية والفلسفية والعلمية... وعلى الرغم من الأسعار الزهيدة فإن هذه الكتب أقل أنواع الكتب الثلاثة السابقة مبيعاً[1].

نتابع البحث عن الأماكن العالمية المهتمة بالكتاب، لنتوقف في أحد أحياء اليابان، حيث تباع الكتب المستعملة:

---

(1) سيرين سروجي، البلد، 26 – 10 – 2005.

أكبر حي في العالم للكتب المستعملة



يشتمل حي كاندا جيمبوتشو على الكثير جداً من المتاجر القديمة يصطف الواحد منها بجوار الآخر حتى إن هذا الجزء من طوكيو يعرف في بلاد أخرى باسم عاصمة الكتب في اليابان. ويمكنك أن تجد أغلب

المتاجر في شارع ياسوكوني على بعد 500 متر شمال القصر الإمبراطوري بمركز طوكيو. هناك حوالي 160 متجر منهم في مساحة لا تزيد عن نصف كيلومتر مربع ويتعدى المجموع الكلي للكتب مليون مجلد، فهذا هو أكبر سوق في العالم للكتب من ناحية كثافة المتاجر وعدد الكتب ونوعيتها.

ويأتي الناس إلى هنا من كافة أنحاء اليابان أملاً في العثور على كتاب محدد وفي بعض الأحيان تجد عشاق الكتب يقفون في صف طويل أمام متاجر بعينها ينتظرون أن تفتح أبوابها.

إن كاندا جيمبوتشو هو مركز اليابان للكتب القديمة والمستعملة وهنا تعمل المتاجر مستقلة عن بعضها ويتخصص كل منها في مجال أواخر، ولأن هذا العدد الضخم من المتاجر يتركز في حي واحد فإن مجموعة المتاجر بكاملها تعرض كتباً في كل المجالات تقريباً. أحد المتاجر ويدعى «أويا شوبو» يتخصص في أعمال عهد إيدو «أوائل القرن السابع عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر»، ولديه مجموعة جيدة من الطبعات الملونة من كليشيهات خشبية والمعروفة بفن «أوكي ـ يوئي» . هناك متجر آخر يدعى «ياجوتشي شوتن» يبيع سيناريوهات المسارح والأفلام وكتيبات لعشاق الدراما. أما العملاء الراغبون في كتاب جميل من الأنواع البالغة الصغر أو مجلد أنيق من طبعة محدودة فيمكنهم الاتصال بمتجر «جوهاتشي شوبو». عبر شوارع الحي تجد المتاجر متجمعة معاً كل متجر قد وجد لنفسه مكانه الخاص حيث يتخصص في التاريخ أو السياسة أو الاقتصاد أو قراءة الخط أو الرسوم الكاريكاتيرية أو كتب الأطفال وغير ذلك كثير.

وأسرع طريقة للحصول على ما تبحث عنه هو سؤال شخص يعمل في أحد المتاجر فإذا لم يكن لديه ما تريده في متجره فسيحرص على إرشادك إلى مكان آخر تجد فيه غرضك.

«إن الطريقة الوحيدة لمعرفة ما يريده زبائننا هي أن يتحدثوا معنا، نحن أيضاً يمكننا أن نساعد غير اليابانيين إذا كانت لديهم القدرة ولو البسيطة على التحدث باليابانية». هذا ما أخبرنا به أوكودايرا كوتشي في محل يسمى تاموراشتين. في هذه الأيام أصبح غير المستغرب أن يشتري الناس ويبيعون الكتب عبر الإنترنت ولكن تظل متعة الحديث وجهاً لوجه من أحسن الطرق للحصول على ما ترغب من كتب»[1].

لكن الكتب المدرسية المستعملة في مصر، طريقة أخرى للبيع، ألا وهي عربات الترمس وهي طريقة لم يفقهها اليابانيون.

(1) مجلة "دليل اكتاب"، شباط 2006.

الكتب المدرسية على عربات الترمس

«كـل القديـم للبيـع ... بيكيـا روبـابيكيـا». هكذا ينادي مشتري الـ «روبابيكيا» الذي يدفع بيديه العربة أو يجلس فوقها ويجرها الحمار. فيجمع من البيوت كل ما لا يلزم وكل ما أصبح عديم الفائدة مما يعتبره الناس «كراكيب» ويريدون التخلص منها، ولو في مقابل بضعة قروش أو قليل من الجنيهات التي يحصلون عليها من هذا الرجل الذي يجمع الـ«روبابيكيا».

وتختلف مستويات ما تحمله عربات الـ «روبابيكيا» التي تجوب شوارع القاهرة كل صباح، وفق مستوى الحي الذي تلملم منه القديم. فالأحياء الراقية تختلف «كراكيبها» عن الأحياء الشعبية، ولكن القاسم المشترك على هذه العربات في الإجازة الصيفية وبعد انتهاء العام الدراسي، هو الكتب المدرسية التي تجمع من كل البيوت بالأكوام، لتتحول أوراقاً يستعملها باعة الترمس واللب (البزر) ...

فبمجرد انتهاء العام الدراسي وظهور النتائج في المدارس المصرية، تلقي الأسر بالكتب المدرسية فوق العربات غير نادمة ودونما التفكير قليلاً أو كثيراً في حاجتها إلى هذه الكتب. والكتب المدرسية التي تتخلص منها الأسر المصرية سنوياً ... أشكال وألوان.

منها الكتب التي تطبعها وزارة التربية والتعليم كل عام وتكلفها ملايين الجنيهات لتوزعها على تلاميذ المدارس الحكومية مجاناً، وعلى المدارس التجريبية للغات بمبالغ بسيطة، ويشتريها أهالي طلبة المدارس الخاصة بـ «دم قلبهم»، ذلك الكتاب المدرسي الذي يخضع للتطوير شكلاً وربما مضموناً كل بضع سنوات، كما تعلن التصريحات الوزارية في محاولة لإنشاء ألفة بين الطالب والكتاب الذي تضغط به الوزارة على التلاميذ عند كل امتحان للشهادات العامة، مؤكدة أن الامتحان لن يخرج عنه.

وعلى الرغم من ذلك، ما زالت العلاقة مفقودة بين هذا الكتاب والطلبة في كل المراحل التعليمية تقريباً، وتشهد على ذلك عربات الـ «روبابيكيا» فالكتب المدرسية عليها جديدة ونظيفة كما استلمها الطالب وربما كما خرجت من المطبعة. وعلى الرغم من صدور قرار وزاري منذ بضع سنوات يقول بأن الطالب الذي يعيد كتبه إلى مدرسته في حال جيدة بعد انتهاء العام الدراسي، سيحصل على تخفيض في الرسوم الدراسية لعامه الدراسي الجديد إلا أن الطلاب لم يستجيبوا.

أما النوع الآخر من الكتب التي تحملها عربات الـ «روبابيكيا»، فهي الكتب الأجنبية التي نجحت في منافسة الكتاب المدرسي منذ زمن بعيد وأسعارها مرتفعة، خصوصاً بالنسبة إلى طلبة اللغات، ولكنها تخضع للتفكير قبل التخلص منها، فقد تهديها الأسرة إلى طالب آخر يحتاج إليها في عامه الدراسي الجديد، أو تلقى كغيرها كـ «كراكيب» لا طائل منها، وإن اختلفت عن سابقتها في الشخبطة وانثناء الأوراق التي تعكس مدى استخدامها طوال مدة الدراسة.

أما النوع الثالث الذي يستقر على العربات المذكورة، فهو «كراريس» الدروس الخصوصية التي تتكدس مع كل حصة للدرس الخصوصي. والكتب الدراسية الملقاة للبيع على العربات ليست فقط كتباً مدرسية، بل كتباً ودفاتر جامعية من كليات مختلفة وتخصصات متباينة. ويرى الطلاب أن تكدس الكتب المدرسية عاماً تلو آخر، لن يفيدهم في شيء، وأن الحصول على معلومة أصبح أكثر سهولة في عصر الإنترنت. فبضغطة زر واحدة يمكن الحصول على تفاصيل أي موضوع يثير اهتمامهم.

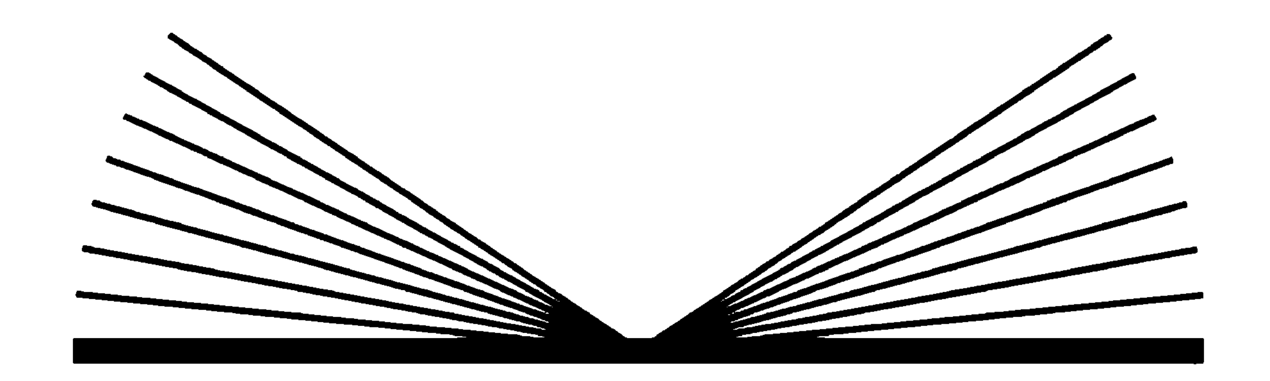
ويؤكد آخرون أنهم حاولوا الاحتفاظ بالكتب الدراسية لبضع سنوات، على أمل الاطلاع عليها لاحقاً، ولكن لم تتح لهم الفرصة في ظل إجازة صيفية يحتاجون فيها إلى الترفيه وليس إلى قراءة كتب دراسية تحديداً. ويرى فريق آخر أن العلاقة السلبية مع الكتاب المدرسي والتي تدفعهم إلى التخلص منه، ترجع إلى أنهم يدرسون ما لا يريدون وما لا يحبون من علوم ومعارف، ومن ثم لا يريدون الاحتفاظ بأي ذكريات حولها!

أما آراء الأهل فتدور حول البيوت والمنازل الضيقة التي لا تتسع لتكدس عشرات الكتب المدرسية ودفاتر الدروس الخصوصية كل عام دراسي[1].

---

(1) نادية برسوم، الحياة، 2007/7/3.

أين القارئ؟



القارئ المستهلك

لا يمكن الحديث عن الكتاب دون التطرق إلى القارئ، أي المستهلك بحسب المصطلح التسويقي، فالقارئ يمثل العنصر المحرك والمحرض، لذلك تتبارى كبريات دور النشر العالمية لمغازلته، واستمالته إلى جانبها، على الرغم من أنها أحياناً تتنازل عن أصول المهنة كرمي لعينيه (أو جيبيه)، طبعاً القارئ الغربي أكثر شجاعة من العربي الذي لا يقبل على الشراء ولا القراءة بالنسبة المقبولة.

من هنا نقدم رأياً لعبده وازن حول كتاب الجيب الرائج غربياً والخامل عربياً، كذلك نغوص في الأسئلة العامة المتعلقة بالقراء وأمزجتهم عربياً وتركياً.

لماذا نقرأ؟[1]

طرح الكاتب الإيطالي أمبرتو إيكو قبل أشهر سؤالاً مهماً في إحدى محاضراته، وهو: «لماذا نقرأ»؟ وفي إجابته قال باقتضاب: «نحن نقرأ لأننا نستمتع بما نقرأ، ولكن الأهم هو أننا نشعر بأن حياتنا ليست مرضية، وبأننا نبحث في القراءة أحياناً عن أنفسنا».

ربما يختصر إيكو كثيراً من القضايا الكبرى في كلمات قليلة، فحياتنا التي لا تعجبنا، يتم البحث عن بديل لها في القراءة، ما يعني أن الكتابة تنطوي على إعادة إنتاج الحياة في شكل آخر لم نألفه ولم نختبره ولم نراكم أي تجربة عنه. والكتابة في هذا المعنى ليست مجرد رسم الصورة القائمة أو المخزونة، بل هي أيضاً ما يتمكن الخيال الإبداعي من ابتكاره وتشكيله.

إن عملية البحث عن أنفسنا في القراءة، تعني غياب المعنى المحدد، أو حتى التقريبي للحياة، كما نراها ونختبرها ونعايشها. فهل تتمكن الكتابة من تحقيق هذا المعنى في شكل أو آخر؟ في الإجابة تقفز أسئلة أخرى أكثر خصوصية في ما يتعلق بمفهوم الكتابة، وأهميتها، وضرورتها في الحياة.

---

(1) يوسف ضمرة، الحياة 2007/11/18.

الكتابة في أحد جوانبها ـ كما نفهم من أمبرتو إيكو ـ تعبير عن ذات جمعية، وإن بدت تجربة فردية في مظهرها. ذلك أن الذات هي الماهية، والشخص هو الهوية، كما يقول جون جوزيف في كتابه الأخير «اللغة والهوية». والهوية الشخصية ليست نتاج الماهية، بمقدار ما هي نتاج الذات الجمعية القومية والجغرافيا الثقافية والدين واللغة. وإذا كانت اللغة في أحد جوانبها تعبيراً عن الذات، فإنها أيضاً تعبير عن الشخص، الذي هو الهوية، والتي هي ليست فردية على الإطلاق. الكتابة في هذا المعنى تحددها اللغة، والشخص، والذات. وهذه العناصر الثلاثة كلها ترتبط بالهوية بعلائق جدلية. فاللغة التي تعد أحد مكونات الهوية، نجدها نتاج الهوية أيضاً. فإذا كنت أميركياً فإنك بالضرورة ستتحدث الإنكليزية ـ الأميركية، لا النيوزلندية أو الأسترالية. وإذا كنت تتحدث الإنكليزية ـ الأميركية، فأنت بالضرورة تنتمي إلى جماعة محددة. هذا يعني أن اللاوعي الجمعي مرتبط بالهوية، وأن الكتابة مرتبطة باللاوعي الجمعي، أي بالهوية. لكي تكون كاتباً عربياً فإنك تكتب باللغة العربية، لكن اللغة وحدها ليست قادرة على تحديد هوية الكتابة، فقد تكتب بالعربية عن «الهومليس» مثلاً، وهو ما يعني أن خبراتك ليست عربية، ورؤيتك للحياة ليست رؤية عربية. فليس من المعقول أن تكتب عن «الهومليس» وأنت تعاني استبداد السلطة العربية، وغياب الحريات، والاحتلالات الأجنبية للأرض العربية، وتعاني تجريد المواطن العربي من أبسط حقوقه البشرية. والكتابة لغة ولا يمكن أي موضوع أو فكرة أن تصبح أدباً ما لم تعالجها اللغة. وهو ما يعني أن الكتابة في جوهرها عملية لغوية في المقام الأول. فلا هاملت ولا مكبث أو عطيل أو الملك لير، كانوا قادرين على الحضور إلا في اللغة. وقد كان الحضور اللغوي أحياناً

أكثر سطوعاً من الحضور الموضوعي. أي أن هذه الشخصيات تشكل هويات أكثر وضوحاً من كثير من الشخصيات الحقيقية، والسبب هو اللغة.

ونعود إلى السؤال : لماذا نقرأ؟

في هذه الحال يمكن القول إن أمبرتو إيكو كان واضحاً وهو يحدد المتعة. لكنه لم يكن واضحاً تماماً في الإشارة إلى عدم الرضا عن حياتنا، والبحث عن معنى ذواتنا. فالبحث عن معنى الذات والحياة، ليس مرتبطاً فقط بالقراءة، كما أن القراءة وحدها لا تقدم إجابات واضحة ومحددة. ربما تنجح القراءة في قيادة العقل إلى طريق المعرفة، لكنها معرفة ناقصة، تماماً مثل أي معرفة تتعين في حقل آخر غير العلوم الرياضية.

القراءة عملية كتابة. وعملية الكتابة هي في المقام الأول تعبير عن الذات وعن الشخص والكتابة مدفوعة بالأسئلة الجوهرية والأزلية والراهنة، وحقل يمكن الإنسان أن يلعب فيه، وأن يكتشف ما هو متاح أو ممكن. والقراءة في بحثها إنما تؤكد ماهية صاحبها وهويته. والكلام عن الرغبة الكبرى في الإطلاع على تجارب الشعوب الأخرى في الكتابة، يعني الاطلاع على هوايات أخرى مغايرة، سعياً إلى معرفة الهوية الشخصية والقومية. فأنت لا تعرف الذات من دون معرفة الآخر. هكذا تكون القراءة في العمق بحثاً محموماً عن الهوية، تماماً كالكتابة. وهذا لا يعني التخلي عن المتعة. لكنّ المتعة ليست مجردة. فالمتعة لا تتأتى في الجماليات الكتابية فحسب، بل وفي جماليات التأويل والذهاب إلى ما هو أبعد من حدود النص... أي في المعرفة.

كلنا يسأل حتى اليوم عما فعلته ميديا مثلاً؟ لماذا؟ وهل الحماقة

البشرية وحدها قادرة على قيادة المرء إلى ارتكاب مثل تلك الجريمة؟ وهل غيرة عطيل هي السبب حقاً في قتل ديدمونة؟ ربما يمكن القول إن ما يحدث في هذه الحالات، إنما هو نتيجة عطب أصاب الماهية أو الهوية. ففي حال ميديا هي الماهية، وفي حال عطيل هي الهوية. ولكن هذا لا يشكل قانوناً عاماً مصمتاً لا يمكن الخروج عليه، ما يعني أن الكتابة أكثر تعقيداً مما نظن، وأكثر عمقاً مما قد نصل إليه في محاولة لاكتشاف أسرارها وتجلياتها. فلا يمكن الجزم بأن شكسبير كان يعاني عطباً في الماهية أو في الهوية، ولكن، أيضاً لا يمكن الجزم بأنه لم يكن في اللاوعي قد خبر مسألة البحث عن الذات أو الهوية.

يقول فلوبير إنه هو نفسه إيما بوفاري! إن التأمل في هذا التصريح الخطير، يتيح لنا إمكان الولوج إلى أعماق أدنى في عملية الكتابة. فهل كان فلوبير يعاني مشكلة البحث عن الذات؟ في هذه الحال، فإن ما يقوله أمبرتو إيكو عن القارئ، يصح تماماً عن الكاتب، وهو ما جعلنا نقول من قبل: إن القراءة عملية كتابة أخرى. ولكن، لماذا حوّل فلوبير نفسه إلى امرأة؟ ألم يكن قادراً على البحث عن الذات في شخصية رجل؟ إن التأمل في هذه الحال يعطينا فرصة القول إن إيما بوفاري جمعت في شخصيتها الذات والشخص... والماهية والهوية فالماهية هي ما يتناقله النقاد والقرّاء عن الحماقة البشرية في الذات الإنسانية، أياً كانت هويتها. لكنّ أيما بوفاري امرأة فرنسية، ما يعني أننا أمام هوية واضحة ومحددة. وهنا لا يصح القول بالحماقة البشرية، ما دامت أيما جزءاً من ذات كبرى، أو ممثلة للهوية القومية.

لماذا نقرأ؟ ربما تكون الأجوبة كلها صحيحة، وربما تكون ناقصة لكننا سنظل نقرأ، ما دام الناس يبحثون عن شيء ما في ذواتهم، أو في حياتهم.

الكاتب سلطة مجتمع، وكل سلطة تثير فنوناً متعارضة من الاستجابات، والقارئ مستهلك له قوة الاستهلاك وأثره، وله أحياناً قوة الإنتاج وبراعته. القارئ قد يعتمد على نوع من المراوحة والسلبية القاتلة، والكاتب قد يكتب غير واثق من السمع، والقارئ يقرأ أو يعزف عن القراءة غير واثق من قوة أثره، وربما يسأم الكاتب من القراء، ويسأم القرّاء من الكاتب. والمجتمع قد يتعثر في هذا المكر المتبادل الذي كان يسمى في العصر القديم باسم الأخذ من كل شيء بطرف. هذا هو تسخير القراء للكتاب، وهذا هو الكاتب الذي فرض عليه تمثيل كل الأدوار أو تقمص كل الشخصيات، أو تقليب المكياج دون انقطاع، هذا يعني أن الكتّاب والقرّاء يجفون بعضهم بعضاً، حيث يودّ بعضهم بعضاً.

الكاتب إذن لا يطمئن إلى القراء دائماً. الكاتب يراوغهم أحياناً عالماً بما يصنع، الكاتب قد يصارع القارئ، كذلك القارئ، الدور الذي يشترك فيه القراء والكتّاب دور لا تضحية فيه ولا فداء، بل هو دور تجارة وربح وخسارة، وتعاقد على أن يصبر أحد الطرفين لصاحبه، وأن يتركه بعد قليل دون ندم.

أخشى ألا تكون الكتابة، في هذه الأيام، هي الممثل الرئيسي لثقافتنا. لأن للكتابة نصيباً لا يسلم له في سهولة. إننا نحفل، على الأرجح، بأشياء أخرى غير الكتابة على رأسها كرة القدم. كرة القدم تمثل نصاً يتألف من اللاعبين والمتفرجين والغلاة والمتعصبين، والأحاديث التي تدور بين الناس، وأخبار اللاعبين والجمهور، وضربات اللاعبين، والاختلاف أحياناً في تقديرها، وما يقال عن النصر والهزيمة، وما ينفق من الوقت والجهد لاستيعاب الكرة، واستيعاب الحياة الرياضية،

وإذاعات وفضائيات الرياضة، وحياة اللاعبين في الداخل والخارج، وأجورهم وتعاقدهم فضلاً عن المسيرات الحاشدة وصنوف التعبير عن الإعجاب وازدحام الملاعب وطرائق الحكام.

كل ذلك يعني أن كرة القدم لغة تنافس الكتابة العادية، وتكاد تضيّق عليها الطريق. هذا يعني أن المجتمع ربما لا يفرغ للكتابة والكتاب، ربما يتابعهم متابعة متقطعة ضئيلة لا حماسة فيها ولا خصومة ولا نقاش، ولا حيوية ولا تجمع، الناس يجتمعون حول الوسائل البصرية بأكثر مما يجتمعون حول كتابة وكاتب. الكتابة الآن ليست جزءاً حقيقياً من حياة معظم الناس. أصبحت الكتابة غريبة إلى حد ما. مغزى هذا كله أن الناس بدأوا منذ بعض الوقت يستغنون عن الكلام واللغة، والكتابة والكتاب، والقراءة والقراء هناك تفاعلات ثانية أكبر الظن أنها لا تدرس، يترفع عنها الخاصة، ولا يزيد هذا الترفع الناس إلا إصراراً واعتزازاً بنص الصورة.

أخشى ألا تكون الكتابة والقراءة في حياتنا نصاً أصلياً قوياً. الكتابة والقراءة الآن أقرب أحياناً إلى ما نسميه المتوتر نعترف به من ناحية، وننكره من ناحية[1].

---

(1) مصطفى ناصف، العربي، آب 2005.

كتاب (جيب) عربي؟[1]

كلما حل الصيف تبرز ظاهرة كتاب «الجيب» ليس في العالم العربي طبعاً بل في أوروبا وفرنسا خصوصاً. هذا «الكتاب» الجميل بحجمه الصغير لا يحتاج القراء الفرنسيون إلى من يذكّرهم به أصلاً، فهو رفيقهم شبه اليومي أينما كانوا، في المنزل أم في المترو أم في القطار والطائرة... لكن دور النشر التي تعتمد سياسة كتاب «الجيب» تنتظر بداية الصيف لتروج هذه الظاهرة على نحو لافت وجاذب جداً. فالصيف موسم مهم بدوره مثله مثل موسم الخريف الذي تبدأ خلاله الحياة الثقافية كل سنة. والاستراحة الصيفية لا تعني في «حساب» المواطنين التخلي عن القراءة والانصراف إلى اللهو والتسلية... فالكتاب جزء من العطلة وهي لا تكتمل من دونه.

هكذا يستعد الناشرون لهذا الموسم من خلال خطة مدروسة فيصدرون الكتب التي يمكن أن تقرأ على الشواطئ وفي الجبال، ويروجونها في حملات إعلامية وإعلانية. وتؤدي الصحافة دوراً مهماً في هذا القبيل. كأن تعد الصحف والمجلات قوائم للكتب التي تنصح بها قراءها، مفردة صفحات لكتاب «الجيب». ومرة أفردت إحدى المجلات

---

(1) عبده وازن، الحياة، 2007/7/23.

غلافها لما سمته، «قراءة الفلسفة على الشاطئ» وحمل الغلاف صورة امرأة ممدّدة على الرمل تحمل كتاباً فلسفياً. وكتب أخيراً صحافي فرنسي مقالاً في هذا الصدد عنوانه «السعادة في الجيب».

لا يزال كتاب «الجيب» كتاب الصيف بامتياز. عندما يهيئ المسافر حقيبته يضع تلك الكتب في الجيوب. إنها زاده في العطلة، يقبل عليها بنهم حتى وإن كان على الشاطئ. وما أكثر الذين يقرأون وهم مستلقون تحت الشمس. وكم من فنادق ونوادٍ عمدت إلى «ارتجال» مكتبات صغيرة على الشواطئ تستعار منها الكتب على اختلافها. هذه الظاهرة لا تعرفها شواطئنا وكيف لها أن تعرفها والكتاب يكاد يكون سلعة «كاسدة» في حياتنا وفي مكتباتنا نفسها تلك التي يتراجع عددها سنة تلو أخرى؟ حتى الآن لم يستطع الناشرون العرب أن يرسخوا ظاهرة «كتاب الجيب» عربياً. بعض المحاولات التي قام بها قلة منهم، مشرقاً ومغرباً لم يتسنَّ لها أن تثبت وان تستقل كمشروع بذاته. ومعظم كتب «الجيب» التي «راجت» لم تكن مهمة ولا جديرة بالقراءة، إن لم تكن سطحية وتجارية ورخيصة في أحيان كثيرة. ويمكن استثناء عدد قليل منها لم يكتب له الرواج المفترض. وقد يكون الناشرون أنفسهم وراء انحسار ظاهرة «كتاب الجيب» وكذلك القراء الذي لم يعتادوا هذا النوع من النشر الرائج جداً أوروبياً وأميركياً، ناهيك بما يعاني النشر العربي عموماً من أزمات وشجون تحول دون المضي بمثل هذه الظاهرة.

لا يستطيع الناشر العربي أن يحاكي الناشر الغربي. هذا أمر لا جدال حوله، والقارئ العربي يختلف عن القارئ الأجنبي الأرقام التي تعمم حول مسألة القراءة تحسم دوماً هذا الشأن لمصلحة القارئ الأجنبي، حتى ليمكن القول إن القارئ العربي هو أشبه بالطيف وساعات

قراءته لا يجدي حسبانها. وإذا كان الكتاب العربي «مأزوماً» خلال المواسم التي يفترض أنها مواسم القراءة، فما تراه يكون أمره خلال الصيف الذي يمكن وصفه بـ «موسم» هدر الوقت من دون أي إفادة؟

في العام 2003 احتفل مركز بومبيدو في باريس بالذكرى الخمسين لانطلاق كتاب «الجيب» الفرنسي وأقام معرضاً بديعاً يستعرض تاريخ هذه الظاهرة بالأغلفة وصور الكتاب والحقول التي تتوزع فيها الكتب «الصغيرة» عطفاً على الوثائق والخرائط التي تكشف مسار هذه الكتب. وأبرز أول إحصاء للمبيعات أجري في العام 1959 رقم مهم حينذاك هو ثمانية ملايين نسخة. لكن هذا الرقم ما لبث أن تصاعد سنة تلو سنة وبلغ في العام 2005 مئة وثلاثين مليونٍ.

والآن أصبح كتاب «الجيب» تقليداً أدبياً وثقافياً وتجارياً إن أمكن القول، بعدما فرض نفسه في قلب ما يسمى «الاستراتيجية» التجارية لحركة النشر المعاصر في فرنسا وأوروبا وأميركا.

والمنحى التجاري هنا لا يلغي البتة المنحى الأدبي والثقافي لهذا الكتاب الذي بات إحدى الركائز الرئيسة لـ «طرق» القراءة وإن بدت فرنسا شديدة الاهتمام بهذه الظاهرة وكأنها ظاهرة فرنسية صرف، لا سيما بعدما طوّرتها وبلورتها ضمن سياسة فريدة في النشر، فإن بريطانيا مثلاً كانت سباقة إلى تبني هذه الظاهرة عبر «بنغوين بوكس» التي انطلقت في لندن عام 1935 وكذلك الولايات المتحدة التي انطلقت فيها عام 1938 سلسلة «بوكت بوكس»..

إلا أن كتاب «الجيب» الفرنسي يخضع لسياسة في النشر طليعية جداً وفريدة جداً، وبلغت مجموعاته ثلاثمئة وسبعين لدى الناشرين.

وتوزعت حقول هذا الكتاب بين التاريخ والأدب القديم والجديد والدين والفن والجغرافيا والأركيولوجيا والأدب البوليسي بامتياز تبعاً لسعره المغري ولحداثته ومواكبته العصر في شتى الميادين.

ليت الحلم العربي بمثل هذا الكتاب الجميل والأنيق يتحقق يوماً ويصبح لدى القراء العرب موسم هو موسم كتاب «الجيب» سواء في الشتاء أم في الصيف. هذا الكتاب لا بد من إيجاده عربياً... ولكن متى؟

ماذا يقرأ العرب؟

منظمة غير حكومية أصدرت دراسة شيّقة عن سلوك القرّاء في العالم العربي. نتائج الدراسة تظهر أن الكتب الدينية تتصدر قائمة الكتب المقروءة، تليها الترجمات. غياب التشجيع في المدارس ورداءة كتب الشبيبة أهم أسباب العزوف عن القراءة.

أشار تقرير التنمية البشرية العربي لعام 2003 والصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، أن العالم العربي تسوده حاجة كبيرة للتعليم. ولكن النقص ليس في الكتب والترجمات فحسب، بل إن ثقافة القراءة لدى العرب هي الأخرى في تردٍّ، كما أشارت الدراسة المقدمة إلى معرض فرانكفورت للكتاب.

ومنذ سنوات طويلة تقوم «مؤسسة الصفحة القادمة»، وهي منظمة غير حكومية، بدعم الكثير من الترجمات والمنشورات الأدبية في أكثر من خمسة وثلاثين بلداً، وبالتعاون مع منظمة «تلاسا» الألمانية في العاصمة الأردنية. فقد تم إعداد دراسة جديدة عن سلوك القراءة في عشرة بلدان عربية، من خلال سؤال خمسة آلاف شخص قادر على القراءة.

ترى ناتاشا مولينس من «مؤسسة الصفحة اللاحقة» أنه لا توجد أية

معلومات عن سلوك القراءة في جميع أرجاء العالم العربي، وتضيف مولينس قائلة: «إن معلوماتنا هي معطيات واضحة للتنمية المعرفية في المنطقة». وتشدد على أهمية تقديم الدراسة للناشرين العرب للاستفادة منها وإجراء نقاش حولها.

يتناول الجزء الأول من الدراسة مصر ولبنان والمغرب وتونس والسعودية، وسيقدم الجزء الثاني من الدراسة في كانون الثاني 2006، وهو يتناول سوريا والأردن ومناطق السلطة الفلسطينية والجزائر واليمن.

لماذا العزوف عن القراءة؟

يوضح غريغور مايرينغ، مدير «لاسا» أنه من المفاجئ أن نجد أن بلداناً مثل تونس والمغرب ولبنان، التي تعد متطورة بشكل أكبر من بقية الدول العربية، قد حازت على 50% فقط، محققة نسبة قليلة في عدد القراء. يضيف مايرينغ قائلاً: «إنها لمفاجئة حقاً، فلبنان يعد منتجاً للكتب والمطبوعات في العالم العربي». وفي السعودية ومصر نجد أن قرابة 90% من القادرين على القراءة على العكس من ذلك، يطالعون الكتب باستمرار.

يطالع الكثير ممن يمكنهم القراءة الصحف والمجلات، أما الكتب فيقل الإقبال على قراءتها، صحيح إن مواضيع مثل الأدب والثقافة تجد إقبالاً، ولكن الاهتمام بالأدب لا يترجم إلى القراءة، فالمسألة تبدو إذن متناقضة فالأشخاص الذين تم سؤالهم في أثناء إعداد الدراسة أبدوا اهتماماً أقل بالسياسة، ولكنهم على العكس من ذلك يقبلون على شراء الكتاب السياسي بشكل أفضل قياساً بالأنواع الأخرى من الكتب.

أخذت الكتب الدينية مكانة متقدمة جداً على قائمة الكتب

المقروءة. كما أشارت الدراسة إلى أن هناك ثمة إقبال على قراءة الكتب التي تتناول الآداب الأجنبية المترجمة، فكثيرون ينظرون إليها على إنها أفضل من الجانب النوعي، عند السؤال عن الكاتب المفضل أو الكتاب المفضل أعطى 5000 قرابة 4700 إجابة. وكانت أعمال الكاتب خليل جبران هي الأكثر قراءة من قبل الكثيرين.

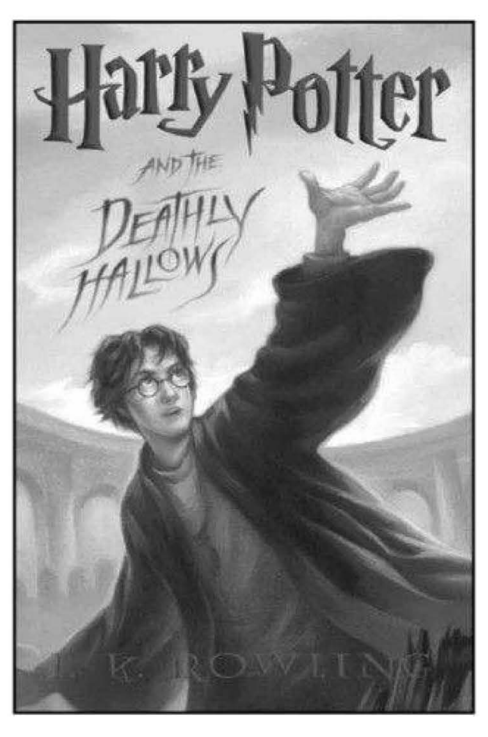
ما هي الحلول؟

ترى الدراسة أن جانباً كبيراً من المشكلة يكمن في عدم تشجيع القراءة، فقد قال أغلب الذين لا يقرأون أنهم حاولوا القراءة للمرة الأولى في المدرسة. ومع تركهم المدرسة فإن اهتمامهم بالكتاب ينتهي. وهي إشارة سلبية على دور الوالدين والمعلم والمدرسة، كما أنها إشارة سيئة على نوعية الكتب المدرسية.

توجد هناك بعض البرامج لتشجيع ثقافة القراءة وكذلك لدعم البرامج الأدبية ولكن لا توجد مبادرات في القطاع التربوي، ويقول مايرينغ عن هذا: «المسألة تتعلق بكتب الشبيبة. فيجب أن تكتب وتصور بشكل أكثر إمتاعاً كي يستمر الطلاب بالقراءة حتى بعد المدرسة».

قراءة جريدة عند انقطاع التيار الكهربائي. ربما سيتغير الموقف من القراءة مستقبلاً. فجملة «ليس لدي الوقت الكافي»، كانت تشكل الجواب الأكثر استخداماً لعدد كبير من الذين تم سؤالهم. تتقدم المغرب قائمة الدول بنسبة 65% في عدد الذين يرون أن القراءة عمل شاق.

هل ما زلنا نأمل ظهور القارئ غير العادي؟



قد لا تكون قصة «هاري بوتر أند ذا ديثلي هالوز» هي القصة الأكثر سحراً هذا العام، إذ تعد رواية «ذا انكومون ريدر» (القارئ غير العادي) لـ ألان بينيت، والتي تتخيل تحول ملكة بريطانيا فجأة إلى قارئة نهمة في آخر حياتها، منافسة حقيقية لا تقل انتشاراً.

وإذ تخوض الكتب حرباً ضروساً بمواجهة قوى الـ«ماي سبايس» والـ«يو تيوب» و«تلفزيون الواقع»، تبدو فكرة التحول الفجائي للبعض من حالة اللامبالاة تجاه الأدب إلى حالة الشغف في هذا المجال، وكأنها انتهت وانطوت مع زمن آفل.

لكن هل انقضى الأمل؟ أم أن هناك ما قد يعيد البشر إلى مشهد الثقافة المتمثل بقراءة الكتب والشغف بها؟

ليس ثمة جواب حاسم، على ما يكتب موتوكو ريتش في النيويورك تايمز (2007/12/8). وبحسب الكاتب، فإن الجواب الإيجابي على هكذا تساؤلات يفترض أن يحقق المزيد من الكتب الصادرة حديثاً

أرقام مبيعات توازي ما حققه كل من «هاري بوتر» و«ذا دافينشي كود».

وجود قارئ مثابر وملتزم بدوام قراءته هو أمر بالغ التركيب تدخل فيه عناصر شخصية وخارجية. كما أنه أمر له علاقة بالمخيلة، على ما يكتب ريتش، أن يكون الأهل قراء مثابرين هو أمر مساعد في خلق قراء جدد بأوساط الأجيال الجديدة، لكن الأمر الأخير يبقى غير مضمون بالكامل. كما يساهم المكتبيون وأساتذة المدارس الذين يحبون مهنتهم، في التأثير الايجابي في المسألة، لكن موضوع القراءة في النهاية يبقى موضوعاً شخصياً خاصاً، على ما يكتب موتوكوريتش.

«لماذا يقرأ الناس وماذا يقرأون يبقى أمراً شخصياً وغير واضح تماماً»، تقول سارا نيلسون مديرة تحرير مجلة «بابليشر ويكلي» (أسبوعية الناشرين) الأميركية.

الكاتب جونات دياز، مؤلف كتاب «ذا بريف وندوريس لايف أوف أوسكار واو» يروي تردده إلى مكتبة صغيرة، وذلك بعد وصوله وعائلته المهاجرة من الدومينيكان ريبابليك إلى ولاية نيوجيرسي، حيث كان في السادسة. في المكتبة المذكورة انجذب جونات إلى كتاب ريتشارد سكايري المصور، وهو سلسلة من الكتب التي تنشر رسومات للطبيعة الأميركية من القرن التاسع عشر، هذا بالإضافة إلى إحدى طبعات كتاب «ساين أوف فور» للمؤلف كونان دويلي، فهل ساهمت هذه العناوين الثلاثة في تحويله إلى شخص مهووس بالكتب والقراءة؟ هل ثمة كتب وعناوين محددة تجعلنا متعلقين بالكتب؟

ثمة نظريات عديدة تحاول تفسير ما قد يحوّل المرء إلى قارئ نهم يسعى وراء الكتب طوال حياته. كتاب «ذا أنكومون ريدر» (القارئ غير

العادي) يتحدث عن نظرية «الكتاب المناسب في الوقت المناسب»، وذاك الكتاب الذي بوسعه أن يوجد في الأشخاص عادة القراءة لمدى الحياة.

«يمكن للقراءة أن تكون كمثل المخدرات لكن بشكل إيجابي»، يقول دانييل غولدن، المدير العام لمكتبة هاري دبليو سوارتز في ميلواكي، ويسكينسون الأميركية «فإن حظيت بالكتاب الذي يجعل المرء يقع في حب القراءة فسرعان ما تبدأ بطلب كتب أخرى تضمها إليه».

لكن ما الذي يجعل ذلك الكتاب الأول محفزاً دائماً للقراءة؟

البعض مما وقّع على ذلك الكتاب، يجد شيئاً يشبهه فيه، أو شيئاً يطابق أفكاره ومشاعره لآخرين «إنها إثارة اكتشاف عالم لا يشبههم أبداً». على ما رأت أزار نافيسي، الكاتبة الإيرانية التي ألفت «قراءة لوليتا في طهران»، الكتاب الذي سجّل أعلى نسب مبيعات في طهران قبل أعوام.

السؤال عن مدى جوهرية القراءة في مسالة تعلق الناس في الكتب اليوم بات اكثر تعقيداً إذ أن مصادر القراءة باتت متعددة ولم تعد مقتصرة على الكتب. فهناك مواقع الإنترنت الكثيرة، وهناك برامج التلفزيون المتعددة التي تقدم القصص والمرويات. على أن كثيرين من أنصار الكتب باتوا اليوم أكثر تفاؤلاً بالنظر إلى مستقبلها وذلك بناء على الحقيقة التالية: «على الرغم من الميزانيات المتدنية لتسويق الكتب، الميزانيات التي لا تقارن بتلك التي للتلفزيونات والإنترنت، فإن الكتب ما زالت تحقق رواجاً كبيراً». الأمر بالنسبة لجانوت دياز شديد الإيحاء والدلالة.

الكتاب وأزمة القراءة، إشكالية تصدت لها إحدى كبريات المجلات التركية «مليت-فن» باعتبارها مادة رئيسية لعدد 15/3/2000 في

ملف واسع أعطى الموضوع آفاقاً جديدة، ولعلّه وضع الملح على الجرح كما يقال.

لقد كان السؤال الذي طرحته الصحيفة بسيطاً ومباشراً: لماذا لا يقرأ الكتاب في تركيا؟ وكانت الأجوبة التي وردت كالآتي:



الكاتب (أورهان تولاي أوغلو): «لم تمض خمسة أشهر على تسلم هتلر رئاسة الدولة في ألمانيا، في مساء العاشر من أيار (مايو) العام 1933، حتى اجتمع آلاف الشبان في ساحة جامعة برلين تحت إشراف المسؤولين في الحزب النازي حاملين المشاعل ليرموها فوق كومة كبيرة من الكتب، وهكذا بدأت رقصة النار البدائية.

من بين الذين أحرقت كتبهم آنئذ: توماس مان ـ جاك لندن ـ سيغموند فرويد ـ إميل زولا ـ مارسيل بروست ـ أندريه جيد ـ ألبرت أينشتاين... وآخرون.

بعد خمسين سنة على هذه (الرقصة) حدثت قضية مشابهة في تركيا فترة الحكم المباشر للعسكر العام 1980. لقد وثق تلك الحادثة الباحث سليمان إيجة في كتابه (رقصة الكتاب النارية) وقال: «بلغ عدد الكتب التي أحرقت 133.607 كتاب لأنها اعتبرت خطرة».

بعد ذلك يربط الكاتب الحادثتين بمقدمة رواية (راي برادبوري) المعدة للسينما، هذه المقدمة التي كتبت العام 1993 أي بعد أربعين سنة على صدور الرواية، مما جاء فيها: «يمكن إحراق الكتب دون ثقاب أو نار». كيف؟ يتحول الطالب إلى حافظ والنظام السياسي يعتبر الكتاب أداة

جريمة. كيف نسأل عن أسباب تراجع القراءة، أي أن الكتب تباع تحت تأثير إعلامي معين، لكنها لا تقرأ وبهذا نعرف كيف تتم عملية إحراق الكتب دون ثقاب أو نار.

الكاتب (أرن ديز أطاسو)، لماذا نقرأ؟ «أعزائي القرّاء! هل سمعتم عن شعوب متنقلة تحمل كتبها معها؟ بالتأكيد لم تسمعوا ... حسناً متى استقرت آخر القبائل في بلدنا؟ في هذا القرن، لابد من الأخذ بعين الاعتبار الهزائم، والاحتلال الأجنبي، والتصنيع، والرحيل الذي فرضه الإرهاب».

لولا أن هدم المغول المدينة التي أسسها السلاجقة لكان من المحتمل أن بلدنا الآن مختلف، ولكنه حدث وعاش بلدنا أعظم حالة ظلم في تاريخه على الرغم من أننا نقبل بجنكيزخان باعتباره زعيماً تركياً (يفاخر عموم الأتراك وخصوصاً في المناهج المدرسية بجنكيزخان وأحفاده لأنهم أتراك الأصل من أواسط آسيا) علماً أن جنكيزخان وأحفاده لم يضعوا حجراً على حجر في هذا البلد.

القراءة ـ الكتابة ـ التفكير ثلاثة عوامل متكاملة ومتداخلة، يتحول كل واحد منها إلى آخر.. وعلى الأغلب فإن التركيز الذهني لا يوجد إلاّ بشرط الهدوء الجسدي، فالراحة بذهن منفتح غريبة كل الغرابة عن عامل متنقل يقوم بأعمال شاقة. وليس من فراغ ولد المثل الشعبي القائل: «دفئ رجليك، وبرد رأسك، واحصل على عمل في هذه الدنيا، ولا تفكر بعمق» وشعبنا عموماً لا يحب أن يجلس وحيداً، فكيف سيحب ثلاثي: التفكير ـ القراءة ـ الكتابة، الذي لا يمكن أن يتم إلا عندما يكون وحيداً؟».

الكاتب (آيدن تشبو كتشو) : ليس ثمة كتاب مهم يبيع مئة ألف نسخة! «لقد فرض على المجتمع الإيمان بأنه ليس من حقه اتخاذ القرار بمستقبله أو إبداء الرأي حوله، ولا يمكن لمجتمع كهذا أن يبذل مجهوداً لفهم ما يجري، أو اكتساب معلومات عما يحدث. هذه خصوصية تحتاج إلى خوض صراع من أجل كسبها».

في الحقيقة إننا اليوم نطرح أسئلة كما كنا قبل ثلاثين عاماً، مثل: ما هي الإمبريالية؟ ما الذي يفسد النظام؟ هل ينهض البلد على كاهل الدولة أم القطاع الخاص؟ ونناقش في ما إذا كان للتاريخ والفن والأدب والفلسفة والحقوق والاقتصاد علاقة جدلية بين بعضها البعض أم لا..

ومن المؤكد أن هذه الموضوعات تقرأ، وتناقش، ولكن ليس ثمة قراءة شاملة ومترابطة ومهمة، وهكذا ليس ثمة كتاب مهم يستحق القراءة يبيع مئة ألف نسخة».

(برهان غونال) رئيس رابطة الأدباء : «ليس من المدهش ألا تجد القراءة والكتابة مكاناً في مجتمع يتألف من أصحاب عقول مقلدة، ومتأثرة، وكسولة، وليس لها هدف حضاري للمستقبل وأنانية، ومصلحية، وحافظة ومستسهلة، وقدرية. ولن يصل أي ضرب من ضروب الفن (بما في ذلك السينما والموسيقى الجادة) إلى درجة الضرورة في مجتمع كهذا».

مع الأسف، أن هذا التعميم ـ الفرضية ـ يتطابق مع الواقع. في مجتمع هذه هي خطوطه العامة، واستثناءاته لا تخرب المشهد العام، وفي مفهوم حياتي كهذا لماذا سيدرك الأفراد المحصنون بخصوصية القطيع أن القراءة ضرورية؟ من يستطيع طرح القراءة باعتبارها فعلاً حياتياً؟

أن قوتي لا تؤهلني لجذب هذه الضرورة إلى نهج مقنع وطالما، أن السياسة التعليمية الاقتصادية الحالية فلا اعتقد أنه بالإمكان الوصول إلى نقطة إيجابية بهذا الخصوص...».

الشاعر (الطاي اوكتام): ثمة قطاع كبير لا يمكن أن يقرأ!: «قبل كل شيء فإن الشريحة السكانية التي نتوجه إليها صغيرة جداً نسبة إلى التعداد العام للسكان ثمة قطاع كبير لا يقرأ، ولا يمكن أن يقرأ. من الممكن ألا يكون ثمة قرية لم تدخلها الكهرباء والهاتف والتلفاز، ولكن هذا ليس تطوراً، أو على الأصح أن هذا ليس تطوراً صحياً، بالتأكيد أن الناس الذين يتناولون إفطارهم في بيوتهم، وعشاءهم في باريس ويعودون إلى بيوتهم هم حقيقة، وأمر واقع. وثمة من يعيشون في المغاور، ويشربون مع أبقارهم من جرن واحد.. أي قطاع من هذين القطاعين نستطيع تسميته قطاعاً مستهدفاً»؟

ليس أياً منهما بالتأكيد. لعلّنا نتحدث عن حفنة من البشر هي في المنتصف، وهي المقصودة بسؤالنا: لماذا لا تُقرأ الكتب؟ وهذا سيوصلنا إلى النتيجة. نحن لسنا بلداً عدد سكانه 60 ـ 70 مليون نسمة، فعدد السكان متغير حسب الموضوع. إن سؤالنا هنا موجه إلى شريحة عددها 3 ـ 4 ملايين نسمة في أفضل الظروف، الباقون لا يقرأون، ولا يستطيعون أن يقرأوا. وهذه الشريحة ليست هدفنا وحدنا مع الأسف، بل هدف لآخرين أيضاً، لأنها الشريحة الأكثر حيوية، والأقدر على التغيير والتحويل. وهي تتعرض لهجوم السياسة الأيلولية (السياسة التي أرساها العسكر إبان انقلاب 12 أيلول ـ سبتمبر ـ 1980) وما تمتلكه من وسائل إعلام، وما تبثه من مفاهيم عرقية وشوفينية ورأسمالية واستثمار ديني.

وكل جهة تمسك بطرف قميصها وتشدها نحوها، ونحن أيضاً التقطنا طرفاً من قميصها قائلين: نرجوك إقرئي!...».

الشاعر (أحمد أوزار): طريق الوصول إلى المصادر الضرورية مقطوعة نحن نعيش حالة فقدان للقيم. ينشأ شبابنا دون علم بسنوات العطاء الماضية، بالقيم الإنسانية المنتجة، هل يعلمون بوجود شاعر في هذا العالم اسمه بوشكين (في برنامج تلفزيوني منوع يسجل نسبة عالية من المشاهدة، وبينما كان العالم يحتفل بالذكرى المئوية الثانية لبوشكين، استدعى المذيع ضيفاً إلى المنصة، واسماه «ألكسندر بوشكين» فأدخل كلب).

وهل يعلمون بطاغور، وريتسوس، وهوميروس، وديستوفسكي، وسرفانتس؟ هل قرأوا سطراً أو بيتاً من الشعر لأحد هؤلاء؟ هل يعلمون بكاتب يدعى صباح الدين علي (واحد من رواد القصة القصيرة في تركيا وأكبر المجددين على صعيد اللغة) هل دفعهم الفضول لمعرفة سبب عدم دخول أشعار ناظم حكمت إلى المناهج المدرسية، وسألوا عن هذا الأمر؟.

أين نحن من هذا؟! يُقدم للإنسان المعاصر أدوات معلبة تحت اسم معلومة، وتستهلك كما تستهلك منتجات ماكدونالدز وتفيدهم آنياً، وينسونها في اليوم التالي.

النتيجة: لا نقرأ. لأن الطريق تقطع أمامنا للوصول إلى المصادر الضرورية للقراءة. ما زال مدرّسونا يؤنبون من قبل مدراء المدارس والمفتشين ومسؤولي وزارة التربية القومية لأنهم درّسوا تلاميذهم كتباً غير موصى بها (ثمة كتب معينة، تصدر وزارة التربية قرارات وتوصيات

بقراءتها في المدارس). إننا ننحدر من جيل يعادي القراءة. نربي أجيالاً غير قارئة من أجل نبذ خطورة الجيل القارئ. نعم نربي أجيالاً مطيعة أليفة غير قارئة وبشكل مقصود. ماذا يريد الأشخاص الذين يديرون هذا المجتمع منذ سنوات طويلة أكثر من هذا؟».

الكاتب (أونار ياغجي): نتائج السياسة التعليمية. «أنا أرى أن وضع الكتاب في بلد ما زال يشكل أحد المقاييس للحضارة. وعندما نتناول الأمر من هذا المنظور فإنني أرى أن لنظام الدولة دوراً فاعلاً في العلاقة بين الإنسان والكتاب وفي السياسة التعليمية من أجل استمرار هذا النظام، وهذه النتيجة (عدم قراءة الكتب) هي نتيجة واحدة فقط من النتائج التي أوجدتها تلك السياسة.

إذا كان الكتاب غير مقروء في مجتمع ما، وإذا لم يعد ضرورة وعادة وجزءاً من الشكل الحياتي، فإن الذنب يقع بالدرجة الأولى على عاتق النظام التربوي المسؤول عن تنشئة الأجيال الشابة.

الكاتب (أحمد يلصندز) رئيس تحرير مجلة الأدب والنقد. بالتأكيد أن الإجابة عن سؤال: لماذا لا نقرأ؟ لا يتطلب بحثاً في طبيعة الإنسان التركي، ترى لماذا كان يقرأ تلاميذ المعاهد الريفية (مؤسسات تعليمية أسست في الريف تفسح المجال أمام الذين فاتتهم فرصة التعليم لإكمال تعليمهم) في أثناء رعي مواشيهم؟ لأن إرادة القراءة ليست عاملاً وراثياً. إنها تحقق للإنسان حالة تفكير جيد، ومحاكمة جيدة، ومتعة جيدة، وتكسبه إمكانية إلقاء نظرة نقدية إلى المخزون الثقافي الإنساني كله. فعل القراءة هو عمل تربوي كامل، وهنا يكمن أساس سؤال: لماذا لا نقرأ؟ في مطلع السبعينات اعتبر البنتاغون مؤسسات إعداد المعلمين في تركيا رأس الحربة بالنسبة إليه. والآن نحن نعرف ونرى كيف تفتت

المؤسسات التي كانت تعد المعلمين، وكيف أبعدت عن حرارة العلاقات التربوية. إكساب إرادة التعود على القراءة من كلاسيكيات التنوير، وقد أوجدت عوائق خطيرة أمام هذا الأمر اليوم. من يريد أن تتشكل دولة من زمرة غير قارئة؟ إن الإجابة عن هذا السؤال يحمل في طياته إجابة عن سؤال: لماذا لا نقرأ؟ ماذا ننتظر من مدرس أدب لا يقرأ كتاباً واحداً في العام؟ القراء الحقيقيون اليوم متكدسون في أربع أو خمس مدن كبرى، وتضيق الدائرة تدريجياً من الريف نحو المدينة. نحن في هذه المدن نعزف وحدنا ونستمع لأنفسنا إن المبلغ المستثمر في قطاع إنتاج الكتاب في ألمانيا هنالك تقارب في عدد السكان بين ألمانيا وتركيا يساوي 25 ـ 30 مليار دولار وهذا يساوي مجموع قيمة الصادرات التركية، ويقرأ في إيطاليا سنوياً 90 ـ 100 مليون كتاب.

غير هذا فإن عامل الانغلاق على الذات والابتعاد عن الناس ومشاكلهم الذي ظهر في الأدب التركي خلال السنوات العشرين الأخيرة أبعد القراء عن الأدب عموماً، والقراءة خصوصاً.

الكتاب يقاوم الرقمنة بوسائط تقربه من القراء

تنازعت مدرستان حول تشخيص مستقبل الكتاب في عصر الرقمنة. فذهبت الأولى إلى أن الرقمنة إنتاج مجتمع ينسج علاقاته على مثال شبكي، ويؤول هذا إلى تداول المعارف تداولاً ديمقراطياً ومقسوماً بالسوية، وعليه، فالناس كلهم مقبلون على الكتابة، وعلى الوساطة، وتتداعى الحواجز، وتسود ثقافة الجمهور مجاناً ولا تستثني أحداً. وأما المدرسة الثانية فزعمت أن الشاشة المتملكة والمتسيدة لن تبقي على وسيط من وسطاء المعرفة، وأولهم الكتبيون (أصحاب المكتبات الذين يبيعون الكتب ويشيرون بقراءتها على القراء المشترين) فالكتاب مقبل على الأفول والموت.

والوقائع التي تلابس الكتاب، إنتاجاً وإعداداً ونشراً وتوزيعاً وعائداً، وتحوطه، تدعو إلى مزيج من المخاوف والتوقعات المتفائلة. ومن هذه الوقائع أن المكتبات العامة (البلدية على وجه الخصوص) لم تلئم الصدع الاجتماعي، فهذه المكتبات وهي المرفق الذي يرتاده القرّاء ويقدمونه على غيره، تكاد تتحول حكراً على الطبقة (الاجتماعية) المتوسطة. والحال هذه، فهي لا تضطلع بالمهمة التي أوكلتها إليها خطة

السبعينات الثقافية، أي التوسط بين أكثر الفئات الاجتماعية حرماناً من وسائل المعرفة وبين هذه الوسائل.

والواقعة الأخرى هي تردي قراءة الفتيان وتراجعها قياساً على حالها السابقة، ولا مبالاة المراهقين وانصرافهم عن القراءة، وإلى هذا فمن يسمون «كبار القرّاء» أو «القرّاء النهمين»، وهم من يقرأون فوق 20 كتاباً في السنة يميل عددهم إلى النقصان[1].

ولكن عدد القراء، جملة، يتعاظم سنة بعد سنة، وهؤلاء يقرأون كتابين أو ثلاثة في العام ويلاحظ أن بعض المرافق مثل الشعر والمسرح وعلوم الإنسان، تشكو الضعف. وتضع دور النشر، اليوم 250 ألف كتاب جديد في السنة، وهي لم تكن تطبع قبل 5 أعوام أكثر من 40 ألفاً، أو أكثر من 30 ألفاً قبل 10 أعوام، فيصدق في قطاع الطباعة والنشر أنه وحده بين القطاعات الاقتصادية يعالج تردي الطلب بتضخم العرض. فيغلب منطق الإنتاج على منطق المرجع والمرتبة والنوع، فالكتّاب يستعجلون الكتابة وينجزون أعمالهم أو «مخطوطاتهم» في وقت قصير. ودور النشر تضطر إلى قراءة عشرين مخطوطة عوض العشر، فتستعجل القراءة ولا تقوم بالعمل الذي يقتضيه تحرير ونشر حريصان ومدققان. والكتبيون، بدورهم تحوجهم الكثرة إلى التصفح السريع أو إلى ترك القراءة، والمكتبات العامة تلهث وراء تصنيف سيل الكتب الجديدة، ولا تدرك بغيتها ولا مهمتها، ويبلغ اليوم متوسط دوام أو «عمر» الكتاب في المكتبة 3 أشهر أو أكثر بقليل، وكان يبلغ 6 أشهر قبل جيل واحد.

---

(1) بيسنوا إيفير، "لوديبا" الفرنسية، 2007/8/5.

وتصيب الحال هذه وعواملها المتفرقة، «الطبقة المتوسطة» من الكتاب. فالكاتب المبدع أو المنشئ الذي جمعت أعماله جمهوراً يعرفه وينتظره وكاتب الكتاب الرائج والجماهيري، هما على خير ما يرام مبيعاً وتوزيعاً، على خلاف «الوسط المتنور». فالبحث السياسي أو التاريخي أو في باب من أبواب علوم الإنسان كان يطبع، قبل جيل 4 آلاف نسخة، ويدوم عرضه 6 أشهر في المكتبات وينتهي به المطاف إلى بيع 3.5 آلاف نسخة، هذا الصنف من الكتب يقتصر اليوم على طباعة 800 نسخة إلى ألفين، ولا ينفي هذا مضاعفة موازنة مرفق النشر والطباعة في الأعوام العشرين الأخيرة. وتباع الكتب في مواضع لا قياس بين كثرتها وبين قلتها السابقة، فالكتب تباع في محطات سكك الحديد، وفي المخازن الكبرى، و «الميغا ستور» على مثال «فيرجين» و «كولتورا». والمكتبات العامة ازدادت عدداً ومقتنيات. وأدت اللامركزية إلى بناء مكتبات عامة جديدة، في المدن والأحياء والبلدان والقرى وفي المحافظات. وإلى مكتبة الكتب أنشئت مكتبة وسائل الاتصال المرئي والمسموع. ولم تتحقق نبوءة المتخوفين على الكتاب مصيراً بائساً. فهو لا يزال، من غير قياس، موضوع الطلب الأول. ويتردد إلى مكتبة عامة فرنسي من اثنين وكان عددهم أقل ضعفين، قبل 20 عاماً. فالعصر شديد الغرابة، فمن جهة يعم التشكيك في الوسائط والتوسط ومن جهة أخرى تلح الحاجة إلى المراجع والتحكيم[1].

وفي المنافسة بين الكتاب التقليدي وبين الأرشفة الرقمية، لا يبدو لي الكتاب التقليدي خاسراً، وإذا سئل الفرنسي عن تعريفه الكتاب، قال

(1) المرجع السابق.

إنه الكتاب الأدبي. والحق أن إنتاج الكتب يتناول ثلاث دوائر أو ثلاثة أثلاث: الثلث الأول أدبي على أنواع الأدب وفنونه، والثاني علمي ومن أبوابه علوم الإنسان وتقريب المعارف من غير إسفاف، والثالث عملي ومن أبوابه الإعلام والقانون، وأنا على يقين من أن الثلث الأول، أي دائرة القراءة قصد المتعة ماض على النماء والاتساع والكتاب على خلاف الأسطوانة أو القرص المدمج، رمز اجتماعي قوي الدلالة، والمكتبة الشخصية أو المنزلية قرينة على صاحبها، والثلث الثاني يجمع المتعة إلى الواجب، ويدعو إليه الاستعلام أو العمل والمهنة، ويقتصر الثلث الثالث على القراءة النفعية، وهذا الثلث يقع في دائرة الرقمنة، على ما نرى اليوم في حل الموسوعات ومعاجم المعارف وقواميسها، فمنذ العام 2010 الآتي، يتوقع أن تكون الشاشة مدار ثلث أعمال النشر والطباعة.

والحق أن الحساب المحض لا يلمّ بوقع مرفق النشر ودواعيه، فداعي العمل الأول في القطاع هذا ليس الربح بل المشروعية. ومن وجه آخر، تستقوي الرقمنة بالمجانية، فما الحال إذا وضعت الشبكة يدها على كتب حديثة الصدور، ولعل المجانية عامل راجح من عوامل أزمة الكتاب الآتية. ويدعى إلى المجانية باسم الديمقراطية، ولكن يغفل عن الأثمان الباهظة التي تترتب على المجانية، ويتولى تسديدها الكتّاب والباحثون ودور النشر والموزعون. وتتطاول هذه الأثمان إلى التنوع والحرية، وفي الأثناء ينبغي الإمساك عن الانقياد للتهويل، فالرقمنة أصابت الصحافة في توزيعها، فتردّى، وفي «نقاط» المبيع، فقلّت. ولكن الرقمنة لم تصب الصحافة بعلة مميتة. وفي ضوء سابقة الصحافة، على سياسة الكتاب أن تعزز اضطلاع الوسطاء التقليديين بأدوارهم داخل الإطار الاقتصادي الرقمي الجديد. والوسطاء هم الناشرون وقراء دور

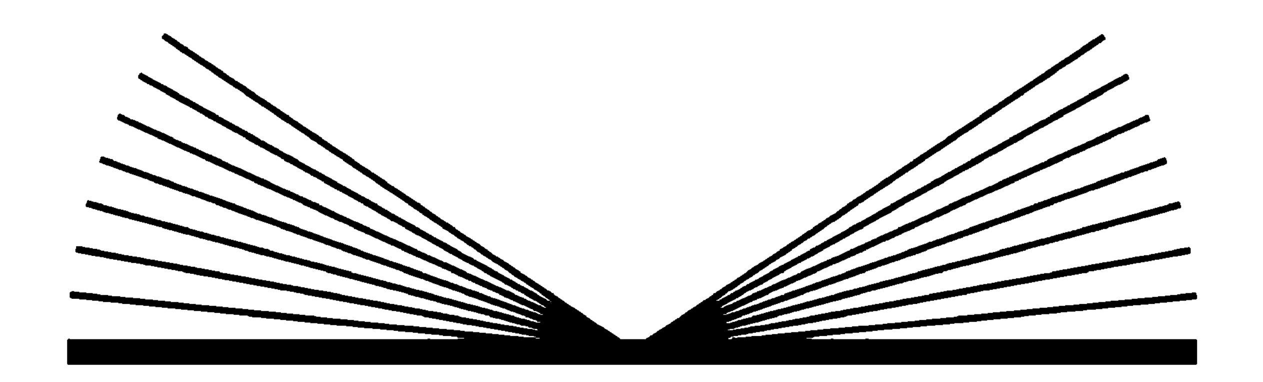
النشر، والكتبيون، والنقاد، والمكتبات على أنواعها، وحلقات القراءة. والمكتبات التقليدية هي الحلقة الهشة. فمعظم الكتبيين باشروا عملهم ومهنتهم في السبعينات، فهم على مشارف التقاعد، وخلافتهم مضطربة. وهامش ربح المكتبات يبلغ 1.5 في المئة، وهو إلى تردٍّ. ويسدد كتبي كبير 15 إلى 20 في المئة من عائده إلى مساعديه، نظير 6 إلى 8 في المئة يسددها بائع كتب جماهيري. والفرق هذا وهو 10 في المئة، هو ثمن وساطة يتولاها لقاء بيعهم كتباً صعبة أو عسيرة على التناول، وتعريف الكتبيين المستقلين والمرجعيين هؤلاء تعريفاً دقيقاً يجيز المطالبة بامتيازات ضريبية مثل تخفيف الرسوم المهنية ورفع المعونة إلى «الدفعة» الأولى.

ووزارة الثقافة عازمة على مساعدة الناشرين الذين يغامرون في نشر كتب ثقافية قيّمة، ومن وسائل المساعدة عقد اتفاق بين الدور هذه وبين المكتبات، المستقلة والعامة. ينظم رقمنة كتب دور النشر شرط حفظ حقوقها، وإلى اليوم لم تنجز المناقشات صيغة الاتفاق. وينهض الناشرون بدور يحوطه الصمت والكتمان في عالم لا يعفّ إعلامه عن الشاردة والواردة. فالناشرون يختارون الكتاب، و«يؤهلونه» للطباعة والنشر، وهذه مهمة حيوية، وينبغي أن تتمتع بالمشروعية المعنوية والمكانة اللتين تستحقهما والنقد الصحافي يميل إلى مجاراة الشاشة ووقتها الخاطف. فبعض الصحف اليومية الكبيرة انقصت صفحات النقد في ملحقاتها، ووزعت البقية على عدد أكبر من الكتب، فيقتصر النقد على أسطر قليلة محايدة وسريعة، وهذا ينقص «عمر» الكتاب فتناول الكتاب، كلاماً وكتابة، جزء من «عمره»[1].

---

(1) المرجع السابق.

الورق صراع البقاء



صون الكتاب من التلف

لا شك في أن دراسة أساليب مزاولة الكتابة في عصرنا الحداثوي الراهن من أولويات الباحثين، بينما تتغير هذه الأساليب بسرعة كبيرة. فتحولات الزمن الحاضر تقلب أسس الكتابة وركائزها، وتقنيات نشرها وتوزيعها، وتغير أساليب القراءة، في آن. ولم يشهد تاريخ البشرية مثل هذه التحولات من قبل، فاختراع المطبعة لم يعدّل بنى الكتاب الأساسية، أي الدفاتر والأوراق والصفحات المجموعة في عمل واحد، وفي القرون الأولى من زمن المسيحية، ساد شكل الكتاب الجديد الـ codex (وهو مجموعة أوراق مطوية يربطها خيط بحافة مشتركة)، وحل محل نموذج اللفائف الورقية، وظهور النوع الجديد هذا من الكتب لم يلازمه تغير تقنيات نشر النصوص.

والحق أن القراءة شهدت تحولات كبيرة. ولكن هذه التحولات وقعت على مراحل، وطوال عهد كتاب الـ «كوديكس». ولكن الثورة الرقمية قطعت الصلة القديمة الناشئة بين الخطاب وماديته، فهذه الثورة تلزمنا إعادة النظر في المفاهيم والإجراءات التي نحملها على مزاولة الكتابة. فأجزاء النصوص التي تظهر على الشاشة (شاشة الكمبيوتر) ليست صفحات ورقية، بل تركيبات فريدة وزائلة. ولا يختلف شكل الكتاب الإلكتروني المادي عن بقية المنشورات المكتوبة، فالقراءة على الشاشة هي قراءة متقطعة وجزئية ترتبط بالجزء أكثر من ارتباطها بالكل.

وهي وريثة أساليب مستقاة من كتاب الـ «كودكس». فهذا النوع من الكتب يدعو القارئ إلى تصفح النصوص، وإلى الاستعانة بالفهرست ومقارنة الفقرات ونسخ أو اقتطاع عبارات وأقوال ذائعة. ولكن هذا الشبه بين أساليب الكتاب الورقي وبين المنشورات الرقمية يبقى شكلياً. ولكن كيف نحافظ على مفهوم الملكية الأدبية، وهذه حددت منذ القرن السابع عشر وتستند إلى هوية الأعمال المستقرة والثابتة، في عالم النصوص المتحركة والسائلة والمشرعة في وجه مبادرات القارئ وتعديلاته؟

ويبدو أن حلم المكتبة الكونية بات أقرب إلى الحقيقة أكثر من أي وقت مضى. فتحويل مجموعات الكتب الورقية إلى كتب إلكترونية، يعد القراء بإنشاء مكتبة ضخمة لا حدود لها، تعرض فيها الكتب التي نشرت منذ بدء البشرية كلها، وتجمع تراث الإنسانية. واحتمال نشوء هذه المكتبة يبعث الفرح والنشوة في الصدور. وبعد الإفاقة من هذه النشوة، يتساءل المرء عما يترتب على العنف المرتكب في حق النصوص، فهذه تعرض للقراءة بأشكال لم يألفها قراء الماضي. والفرح بإنشاء مكتبة إلكترونية كونية يتبدد إذا ترتب على إنجاز هذه المكتبة تلف الأعمال المطبوعة التي لطالما غذّت أفكار قرائها، ورفدت أحلامهم[1].

وتتفاوت المخاطر المحدقة بالكتب، فعمليات الإتلاف لن تشمل الأعمال القديمة والمخطوطات ولكن المنشورات الحديثة والمتواضعة قد لا تنجو من المقصلة. ويكثر الكلام في هذه المسألة. فكأن هذا الكلام يرجو تبديد احتمالات اندثار المطبوعات الورقية. والحق أن المؤرخين لاحظوا أن الحاضر يتكون من تراكمات الماضي أو من تشابك خيوطه. ففي وسع المؤرخين الإجابة عن تساؤلات معاصريهم، وطمأنتهم على

---

(1) روجيه شاريتيه، لوموند، 2007/10/13.

مصير المنشورات الورقية. ويجب أن يتناول البحث سلطة الأعمال المكتوبة وتقلبات المعنى وحركته، قدر ما يتناول النشر الجماعي، وشأن الجمع بين فروع معارف مثل نقد النصوص وتاريخ الكتاب، وعلم اجتماع الثقافة، إلقاء الضوء على كيفية ارتباط ما يفهمه القارئ والمستمع والمشاهد بالمعنى المقصود في النصوص، وبالدلالات التي يفرضها شكل المنشورة، وبمؤهلات جماعة القراء وعلاقاتهم بالثقافة المكتوبة. ويحسن في هذا المعرض، الاستناد إلى مفهوم التصورات والتمثلات. وهذه لها بعدان، على ما نبه لوي مران، الأول متعد والثاني استبطاني. فهذا المفهوم يعين المؤرخين على التحرر من «فكرة الواقع الهزيلة» على حد قول الفيلسوف ميشيل فوكو. وليست التصورات مجرد صور بسيطة تنقل واقعاً يتربص خارجها. فالتصورات تملك قوة على الإقناع بأن العالم، أو الماضي هو ما تقول التصورات أنه موجود. فالجمع بين تاريخ الثقافة وتاريخ التصورات يربط بين سلطة الأعمال المكتوبة والرسوم الذهنية، وهي رحم الأحكام وأعمال التبويب والترتيب ويترتب على هذا الجمع بين ضربين من التاريخ: يقضي الأول بحمل العمل على عصره وحقله، وتعقب علاقاته بأعمال أخرى معاصرة تنتسب إلى حقول أخرى، ثقافية أو سياسية، ويقضي الثاني بحمل العمل على تاريخ الفن الذي ينتسب إليه، ويمثل عليه. ولعل وطأة الماضي أقل ثقلاً من العلوم الدقيقة، أو في الاقتصاد، من حالها في الأدب والعلوم الإنسانية، فهذه تتناول المواضيع البعيدة، والموغلة في القدم، على نحو حاضر حسي وتستلهم أعمال الحاضر من الماضي القديم والبعيد مادتها وشكلها. فأي روائي معاصر يسعه الجهل بـ «دون كيخوتي»؟ وأي مؤرخ يسعه ابتداء محاضرته في هذه الدار من غير الفيء ولو مرة واحدة، إلى ظل جول ميشليه الكبير والمديد؟ وكان سبق أن رأى بيار بورديو في معاصرة المواضي المتعاقبة خاصية من خاصيات الانتاج والاستهلاك الثقافيين.

ويميز التصرف بالماضي العلماء من العامة الساذجين، ويصيغ بصبغته علاقة العمل الجديد بالماضي هذا. فيقلده العمل الجديد تقليداً حرفياً ومصطنعاً، أو يبعثه على صورته الفائتة (الـ «كريتش»)، أو ينفخ الروح في القديم، أو يحاكيه محاكاة ساخرة، أو يدير له ظهره ويستقبل ما لا يسبق من قبل. وعندما يحاكي ثيربانتيس كتب الفروسية، والروايات الرعوية (حين يتحول دون كيخوتي إلى الراعي كيخوثيز) والسير المقامية، «الهمدانية» (حين يلمح إلى سيرة الأسير جينيس دي باسامونتي)، يقر في قلب الحاضر ثلاثة فنون تتباين أزماتها ويستنبط خلافاً لها ونقيضاً، طريقة غير مسبوقة في كتابة المتخيل، ويسوق الكتابة هذه في «نثر الحياة المنزلي»، ويتنكب التصنع الأدبي[1].

وتتنازع أوروبا المعاصرة خشية متناقضة. فمن وجه ينتابنا الجزع بإزالة تناسل المكتوب وركام الكتب النافلة، وفوضى المقال، لا إلى غاية. ومن وجه آخر، يعضنا الخوف من الخسارة والفقد والنسيان. فحالنا حال بورغيس وتعلقه بعمل ضاع ولم يبق منه مخطوط ولا نسخة مطبوعة. فثمة أعمال، شأن مسرحية «قصة كاردينيو» كتبها السيد فليتشير والسيد شكسبير، في 1613، وبقي منها أمر بتسديد أجر الفرقة التي أدتها، صادر عن البلاط، ولم يبق نص أو نسخة نص. واسم كاردينيو يرد إلى «دون كيخوتي». وهذا طبعت ترجمته إلى اللغة الإنكليزية، في 1612، وسبق الإسباني البالينسي (من بالينسيا) غيبان دوكاسترو، فليتشر وشكسبير إلى استلهام عمل ثيربانتس موضوع مسرحية، ولحق بهما الفرنسي غيران دو بوسكال، وهذا مثال على احتمال ترجح العمل بين الإلحاح وبين التبدد وعلى تحولات النص وانبعاثه وتقلبه وتملكه على

---

(1) المرجع السابق

أنحاء مختلفة من الأداء المسرحي إلى المخطوطة فالأعياد الأرستقراطية والكارنفالية التي كانت تستعير بعض أزيائها مـن القصص والمسرحيـات (ومن هذه الأزياء زي كاردينيو). وهذه الظلال لم يبق منها إلاّ كلمات تحملنا على إصاخة السمع إلى الموتى بأعيننا[1].

يقول روبرت فرنيك[2]:

«كتبنا تموت»! صيحة أطلقتها أمينة المكتبة جاكلين سانسون وهي ترشدني إلى الطبقات الإحدى عشرة في «المكتبة الوطنية» بباريس حيث يخزن نحو عشرة ملايين كتاب. أخذت تشير في كل رف إلى ظرف بني واحد على الأقل عليه لصقة حمراء كتب عليها «لا تنزعه». ويحتوي الظرف على بقايا كتاب لا تحتمل ملامسة أيدي البشر. قالت مفسرة: «هذه الكتب موتى، وهذه قبورها».

وإذ مشينا بين الرفوف المتراصة سحبت سانسون كتباً كيفما اتفق؛ في بعضها صفحات أصفرّت أطرافها وأخرى ذات صفحات بالية ومتشققة، وكتب تتمزق أجزاء إذ تفتح وتنحلّ نثاراً ضارباً إلى السمرة.

تقول سانسون: «هذا أخطر الأوبئة في الزمان المعاصر، وليس في وسعنا أن نعرف أن الكتاب عليل إلا إذا نزع من الرف الموضوع عليه. وكثير من الكتب ثاو في أمكانه لا يؤخذ ومع ذلك ففي تقديرنا أن ثلث كتبنا عرضة للهلاك».

وزودني آخرون تقديرات تبعث على الأسى، إذ إن ثلث الكتب البالغ عددها 152 مليونا في مكتبات البحوث بألمانيا الغربية ونحو 90 في

---

(1) المرجع السابق

(2) روبرت فرنيك، المختار، تشرين الثاني 1990

المئة من 17 مليوناً في المكتبات السويسرية أصابها تلف تدريجي. وذكرت مجلة «ساينس» في تقرير خاص أن قرابة مليون كتاب في المكتبات الأميركية آخذة في التفتت والتحول نثاراً.

والمعضلة قديمة. ففي العام 1900 أعلن ليوبولد دوليل مدير «المكتبة الوطنية» في مؤتمر لأمناء المكتبات: «إن رداءة الورق ستؤدي إلى تلف ألوف الكتب في مستقبل قريب».

لكن أمناء المكتبات لم يبالوا بالتحذير وأخذوا يبحثون عن تعليلات أخرى لتلف الكتب. فأنحوا باللائمة على الحشرات ونور الشمس ودرجة الرطوبة والأبخرة الكبريتية المنبعثة من المصانع والسيارات والازدياد المطرد في عدد القراء. كل هذه الأمور أخطار سببت ـ وستسبب ـ ضرراً ذا شأن، غير أن المذنب الحقيقي ما لبث أن انكشف في الخمسينات. إنه الحمض، أي إن التركيب الكيمائي للورق العصري هو الذي يدفعه إلى تأكُّل ذاته.

الترياق المنتظر : ظهرت الكتب في القرن الأول للميلاد. وكانت عزيزة، مخطوطة باليد، تصنع من الرق والبرشمان النفيس. وكان نتاجها يستغرق وقتاً طويلاً، فكانت موضع تفاخر وتباهٍ، إضافة إلى أنها وسائل للتعلم. وبحلول القرن الرابع عشر شاع في أوروبا الورق المصنوع من الألياف والخرق. ثم اخترع غونتبرغ المطبعة في القرن الخامس عشر، وبذا خفت ندرة الكتب، وإن ظلت مكلفة للعامة واكتنازها حكراً على أقلية.

في القرن التاسع عشر فشت معرفة القراءة والكتابة، وازداد الطلب على الكتب والمجلات والصحف، ولم تفِ الخرق بالحاجة إلى الورق،

خصوصاً بعدما أدت الحرب الأهلية الأمريكية في الستينات من القرن التاسع عشر إلى قطع الإمدادات الأساسية للقطن في العالم. فابتكر العلماء وسيلة جديدة لصنع الورق من لب الخشب، وهو رخيص ومتيسر، وبذلك أصبح في وسع كل الناس اقتناء الكتب للمرة الأولى في التاريخ.

لكن الورق المصنوع من لبّ الخشب لم يمتص الحبر جيداً، فأضاف إليه المهندسون حجر الشب والراتينج الصمغي ليغدو سطحه أفضل، لكن ما لم يعلموه هو أن حجر الشب والراتينج يمتزجان بالأوكسيجين مع السنين، فتتشكل مركبات من الأحماض تلتهم الورق.

ليس في وسع الاتحاد السوفياتي والهند والأرجنتين والبرازيل وسواها من كبار منتجي الكتب تحسين جودة الورق. عرِّضوا للنور صفحة من الكتب السوفيتية أو الهندية المتداولة، تروا نتفاً من جذور خشبية دقيقة هي دلالة على الصنع الرخيص الذي لا يدوم طويلاً.

غير أن تحول كل الصانعين إلى إنتاج الورق الخالي من الأحماض لا يفيد ملايين الكتب التي تجمعت فيها العلوم والمعارف منذ قرن ونصف قرن، إذ فات أوان حفظها. وثمة أعداد لا تحصى لا يمكن الحفاظ عليها كما هي ولا مناص من نسخها.

والنسخ الوحيد المتاح اقتصادياً على نطاق واسع هو التصوير على أفلام مصغرة. وهذه عملية طويلة وباهظة الكلفة تنطوي على تجزئة الكتب صفحة صفحة وتلقيمها آلة التصوير واحدة تلو أخرى. ويراوح متوسط كلفة تصوير كتاب واحد بهذه الطريقة بين 50 دولار و100 دولاراً، وبذا تبلغ تكاليف تصوير ملايين الكتب أرقاماً فاحشة. وإذا ما توافر المال فثمة معضلات لا يمكن تذليلها. أن مكتبة الكونغرس في

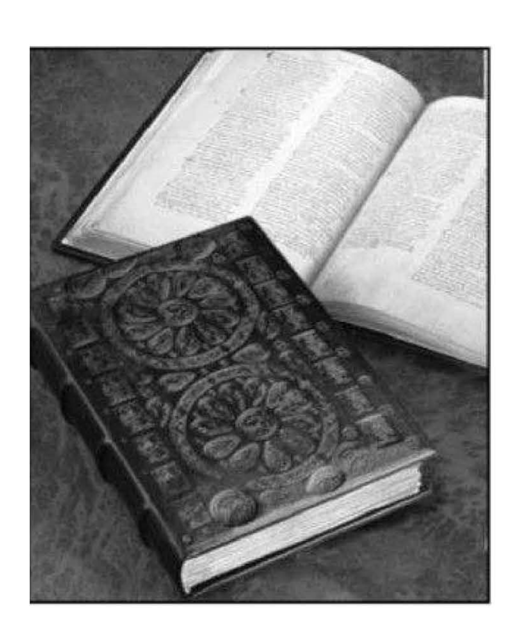
العاصمة الأميركية واشنطن، مثلاً، غير قادرة على تصوير أفلام مصغرة لأكثر من 11 ألف كتاب من أصل 70 ألفاً من الكتب المصنفة هشة كل سنة، فضلاً عن ثلاثة ملايين ونصف مليون كتاب هش تتضمنها مجموعتها حالياً.

كانت مكتبة الكونغرس الأمريكي ابتكرت برنامجاً أكثر طموحاً في منتصف الثمانينات، فوضعت ألوف الكتب في حجرات مفرغة من الهواء: يضخ الهواء ومعظم الرطوبة من الحجرة، ثم يتدفق عليها غاز النيتروجين صرفاً، بعد ذلك تملأ الحجرة بغاز الزنك الثنائي الأثيل الذي يبطل مفعول الأحماض ويتفاعل مع الرطوبة المتبقية في الكتب لتشكيل طبقة رقيقة من أوكسيد الزنك تقي الورق التلف التدريجي الذي قد يسببه الحمض في المستقبل. وفي نهاية المطاف يُدخل بخار الماء إلى الحجرة لإعادة النداوة واللدانة إلى الكتب. وبعد 55 ساعة من المعالجة ترد الكتب المعافاة إلى رفوفها. وترتقب مكتبة الكونغرس إزالة حمض نحو مليون كتاب سنوياً بنهاية 1992.



يتولى جيرار بانيك المسؤول عن الصيانة في «المكتبة الوطنية» النمسوية، تجميد الصحف 60 ساعة بعد وضعها في مغطس كيميائي، معالجا بذلك مئة ألف صفحة أسبوعياً. وابتكر القائمون على حفظ الكتب في مكتبة «دويتش بوشيري» في ليبزيغ بألمانيا وسيلة ممكنة لفلق الصفحة رقاقتين وإدخال طبقة مقوية من نسيج رقيق بينهما.

المحفوظات القديمة محصنة من التلف على نقيض المستحدثة



لا تزال قراءة نصوص وضعت قبل 5 آلاف عام في متناول الباحثين وغيرهم من القرّاء. ولكن قراءة أول بريد إلكتروني أرسل منذ ثلاثة عقود، يكاد يكون مستحيلاً. وبرزت مشكلة حفظ الوثائق الإلكترونية، واستعادتها في العصر الرقمي، وليس في عصر ساحق سابق.

ويؤرخ أمناء المكتبات والأرشيف قصة علاقة الزمن بالوثائق ويقسمانها فصلين. ويبدأ الفصل الأول في عهد غيوم «الفاتح» الذي كلف في 1085 مستشارية تنفيذ مسح العقارات والممتلكات في أنحاء إنكلترا، وجمع عناصر دقيقة ببلاده، وجمع هذا المسح في كتاب وسم بـ «كتاب دومزداي»، وهو مرجع أساس لفهم إنكلترا في القرن الحادي عشر الميلادي، ومحفوظ منذ أكثر من 900 سنة، في الأرشيف الوطني البريطاني.

وأطل الفصل الثاني في 1986، أي في المئوية التاسعة لهذا المسح

العقاري، عندما أطلقت الإذاعة البريطانية «بي بي سي» مسحاً كبيراً يضاهي تلك المدونة في دومزداي. وطلبت «بي بي سي» من المدارس مسح الأماكن والبلدان ببريطانيا العظمى المعاصرة. وحفظت المواد المكتوبة والمسموعة والمرئية في كمبيوتر الإذاعة، ونشرت على شرائط فيديو وأقراص ليزر، وعرفت بـ «دومزداي بيس»، تثنية على الأول. وبعد مضي 15 سنة على التخزين الإلكتروني، تطورت تقنيات الكمبيوتر كثيراً، وتغيرت فاستحالت قراءة تلك المحفوظات الإلكترونية بواسطة الأجهزة الحديثة، وعليه، بلغ «عمر» النسخة المعاصرة من «دومزداي» أقل 60 مرة من عمر سلفها. ولكن الفصل الثاني من عمر الوثائق الرقمية لم ينته. وأفلح خبراء في استعادة الملفات الرقمية من طريق عملية دقيقة وباهظة التكلفة. وصارت مراجعتها ممكنة في أرشيف «بي بي سي».

والحق أن المخطوطات والمحفوظات الإلكترونية وسيلة لحفظ وثائق، تكاد لا تشوبها شائبة سوى احتمال فقدان «صلاحيتها»، بسبب تنوع الملفات الإلكترونية، والتحولات التي تطرأ على أنظمتها وأجهزة حفظها. وعلى خلاف المحفوظات الإلكترونية، تدوم المخطوطات القديمة طويلاً، وفي وسعنا قراءتها ولو بعد خمسة آلاف سنة.

ومع التقادم، ازدادت وسائط الحفظ الإلكتروني سعة، وتناقص «متوسط عمر» الوثيقة ودوامها، وقدرت مكتبة لوزان، بسويسرا، على احتساب نسبة دوام التدوين (النص) إلى المساحة التي يحتلها على السند الذي يحفظه، أو وسيلة الحفظ وخلصت إلى أنها نسبة معكوسة. فكلما زادت كمية المعلومات المسجلة على سند إلكتروني، انخفضت مدة صلاحيته. والدليل أن لوحاً حجرياً من بلاد الفرس، ويعود إلى نحو أربعة آلاف سنة، ويحمل خمس علامات في السنتيمتر المربع (أي

الرموز مع الفراغات) يتوقع أن يبقى مقروءاً طوال نحو 10 آلاف سنة، بينما يتسع قرص «دي في دي» حديث لـ 500 مليون علامة في السنتيمتر المربع، ولا يدوم أكثر من 10 سنوات. وتدوم كتب طبعت على ورق مخرق، في القرن السادس عشر، وسجلت نحو 15 علامة في السنتيمتر المربع 500 سنة.

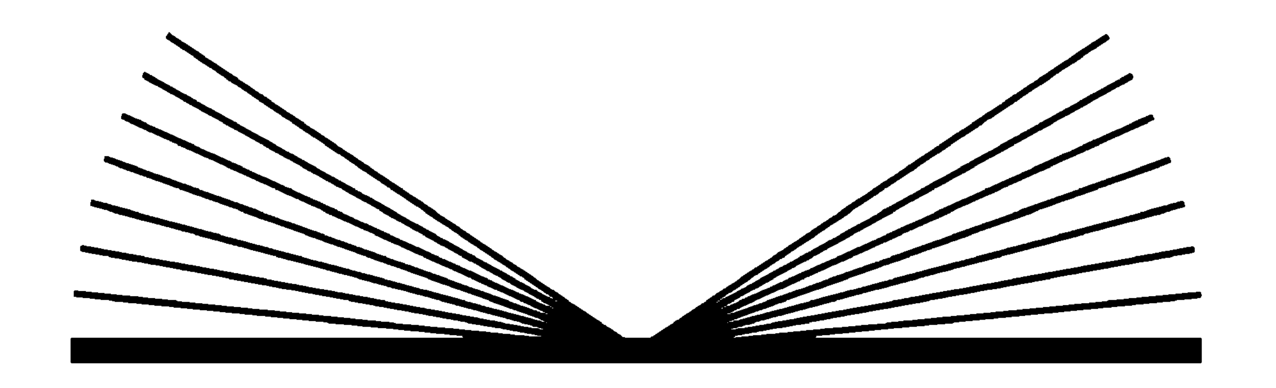
وبين 1950 و2000، لم يحفل عالم المحفوظات بمستقبل الملفات الرقمية، وبحسب الخبراء يومها أن تخزين المعطيات في ظروف جيدة يضمن حفظها عقوداً طويلة. وعلى سبيل المثال تبددت المعلومات التي كانت ترسلها أولى الأقمار الاصطناعية إلى وكالة الفضاء الأميركية (ناسا) ولم يتوقف خبراء التكنولوجيا عن البحث عن البريد الإلكتروني الأول الذي أرسل قبل نحو ثلاثين سنة.

ومنذ عام 2000 بدأ أمناء المكتبات والأرشيف يدركون أن حفظ الوثائق الإلكترونية مرة واحدة لم يعد كافياً لضمان بقاء المحفوظات المعاصرة، بينما تتنوع أجهزة الحفظ وتقنياته وتتغير. ويلجأ المشرفون على المكتبات إلى التأكد دورياً من أن الملفات لا تزال قابلة للفتح والقراءة، على الرغم من تطور التقنيات، ويقومون بنسخ المعلومات والملفات، ويحفظونها بواسطة أنساق رقمية مختلفة، اتقاء فوتها واستغلاقها[1].

---

(1) كريستين سالفاديه، "لوتان" السويسرية، 2008/3/24

الإنترنت وسيلة إلغاء أم تطوير؟



الكتاب وثورة الاتصال[1]

تفجر الاتصال في عالمنا منذ حوالي ربع قرن تقريباً، وترافق هذا مع ثورة التقنية (التكنولوجيا) وتظافرت ثورتا الاتصال والتقنية معاً، وأثرتا تأثيراً مباشراً وكبيراً وبنيوياً على تطور المجتمعات ومفاهيمها ونظمها السياسية وعاداتها وتقاليدها وسلم أولوياتها وأنماط سلوكها، وولدتا مع شروط أخرى ما سمي (بالثورة الديمقراطية) على خلاف تسمياتها ومضامينها. وقد أصبحت هذه (الثورات) الثلاث من معالم عالمنا المعاصر وبديهياته، وأثرت في أشكال وآليات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمعات الإنسانية المتقدمة منها والمتخلفة، وأخذت تلعب دوراً متنامياً ومتسارعاً في تشكيل وعي الفرد والجماعة وتشكيل الرأي العام، والتأثير في أنماط السلوك (وأنماط العيش أيضاً) وفي إشاعة مفاهيم جديدة في كل مناحي الحياة، ووضع أولويات جديدة لسلم القيم الاجتماعي والأخلاقي والاستهلاكي. وساهمت في توحيد أنماط الحياة في مجتمعات الأرض كلها، وأصبحت الوسيلة الفعالة للعولمة المعاصرة بمختلف جوانبها الثقافية والقيمية والسلوكية فضلاً عن الاقتصادية، وصار العالم بمتناول كل أفراده وكأنه فعلاً قرية صغيرة. وهكذا لم تكن نتائج هذه (الثورات) ذات دور في

---

(1) حسين عويدات (مع آخرين)، أزمة الكتاب العربي من الحرفة إلى المطبعة، دار الهادي، بيروت 2005، ص 149 ـ 151.

أشكال التطور فقط وإنما أيضاً في مضامينه، ولعلها أسقطت مفاعيل فلسفات هامة في تاريخ الإنسانية في مجالات تأثيرها ودورها السياسي والاجتماعي.

وقع التأثير المباشر لثورة الاتصال على وسائل الاتصال نفسها بالدرجة الأولى (وسائل الإعلام والتربية والثقافة) فتغيرت آليات عمل هذه الوسائل ومضامينها ومنهجياتها وطريقة تواصل المتلقين معها وعلاقتهم بها، كما تغيرت أولوياتها وأولويات المتلقين في مجال التعامل مع وسائل الاتصال، واستطراداً تراجعت أهمية بعض هذه الوسائل وتقدمت أهمية الأخرى، وانتشرت وسائل اتصال جديدة مختلفة كلياً عن الوسائل التقليدية، سرعان ما استحوذت على اهتمام الناس ثم على شعورهم بالحاجة إليها وأخيراً عدم إمكانيتهم الاستغناء عنها، ولعل من أهم منجزاتها قيام شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت) التي ربطت مراكز الدراسات في العالم ربطاً عنكبوتياً، ووفرت المعلومات للمتلقي بأسهل سبل البحث وأرخصها، كما وضعت بين يدي المستخدم الدراسات التي أنتجها الدارسون والصحف العالمية والموسوعات وأمهات الكتب وبدأت تضع بين يديه أيضاً ما يصدر من كتب في مختلف أصناف العلوم والآداب والاقتصاد والاجتماع، وبالتالي تعزز ارتباط المتلقي بهذه الشبكة على حساب تواصله مع الوسائل الثقافية والإعلامية الأخرى بسبب أدائها دوراً كبيراً في توفير المعلومات لمن يريدها بأسرع الوسائل وأقلها كلفة بشكل غير مسبوق في التاريخ الإنساني.

إن الكتاب جزء من وسائل الاتصال، وقد طاولته ثورة الاتصال كما طاولت غيره من الوسائل، وتأثر تداوله سلباً أو إيجاباً بانتشار استخدام شبكة المعلومات العالمية التي أخذت تزاحم الكتاب من جهة

وتحضن الكتاب الإلكتروني ويتنامى نشره بها عاماً وراء عام من جهة أخرى، حتى أعتقد كثير من الدارسين والقراء والناشرين أن هذه الشبكة ستستحوذ على نشر الكتب مما يلغي بعد حين الكتاب الورقي، فهل ستستطيع ذلك؟ وهل ستكون نتائج ذلك سلبية بالمطلق على الكتاب الورقي وسبباً في تراجعه حتى التلاشي؟ أم أن المستقبل يحمل بين طياته نتائج أخرى غير متوقعة؟

لا بد أن يلاحظ المتابع لتاريخ وسائل الثقافة والاتصال، أنه عندما بدأ انتشار السينما في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أعتقد كثيرون في ذلك الوقت بأنها ستنهي دور الكتاب والمسرح، وعندما اخترعت الإذاعة ووضعت أجهزة المذياع بين أيدي الناس ظنوا أن الصحف ستتراجع وربما ستضمحل مع الزمن وذلك بسبب سرعة المذياع وتنوع برامجه، والأمر نفسه انطبق على المخاوف من خطر التلفزيون على السينما، وكلما توصلت البشرية لاختراع جديد في مجال الاتصال تراءى لكثيرين أن الوسيلة الناشئة ستقضي على الوسيلة القديمة المشابهة لها أو ستضطرها للتراجع إلى الحدود الدنيا، ونسمع اليوم ونقرأ آراء كثير من الناس يظنون أن تراجع الكتاب الورقي أو انتهاءه أصبح قاب قوسين أو أدنى من التحقق، وأن الوسيلة الناشئة أي (الإنترنت) ووسائل الاتصال الحديثة وتوسع شبكتها العالمية ستستوعب عملية نشر الكتاب (الإلكتروني) وتقضي على الكتاب الورقي. وها نحن بعد أكثر من مئة عام من انتشار السينما وثمانين عاماً من تحول الإذاعة إلى وسيلة اتصال جماهيري وخمسين عاماً من انتشار التلفزيون ما زلنا نتداول هذه الوسائل جميعها، ومازال كل منها له جماهيره.

مستقبل القراءة[1]

سبق أن أنشأ مؤسس Amazon جيف بيزوس مكتبة جيدة، ويعتقد أنه قادر اليوم على تحسين أحد أنجح اختراعات البشرية : الكتاب.

قال يوماً الرائد في عالم الكمبيوتر آلان كيري: «التكنولوجيا هي كل ما تم اختراعه بعد ولادتكم»، ليس من العجب أن نتغاضى، عند استذكار كل الاختراعات التكنولوجية في حياتنا، عن التفكير في غرض رائع التصميم وعملي بامتياز ومفيد للغاية ومحبوب أكثر بأشواط من أي جهاز إلكتروني تشترونه في متاجر بيست باي: نتحدث عن الكتاب. فهو وسيلة تخزين يمكن التعويل عليها أكثر من قرص الكمبيوتر ويسهل جداً استعمالها (بحيث ليس من الضروري تأليف كتيب تعليمات حول كيفية استعماله). وهو شغّال على الفور ولا يحتاج إلى بطاريات. يعتقد الكثير من الناس أنه من الكمال بمكان بحيث لا يمكن إضافة تحسينات عليه، لا بل يردون بسخط عندما يشار إلى ما هو عكس ذلك.

يقول جيف بيزوس، الرئيس والمدير التنفيذي للشركة العملاقة على الإنترنت Amazon.com والبالغ الـ 43 من العمر: «لقد تبين أن الكتاب أداة رائعة». يقولها ويطلق إحدى ضحكاته المميزة. لقد عادت الكتب بالكثير من الخير على جيف بيزوس. فعندما اختار ولوج عالم

(1) ستيفن ليفي، نيوزويك، 27 تشرين الثاني 2007.

الأعمال في الأيام الأولى لعصر الإنترنت، قرر إطلاق مكتبة على الشبكة، وهو قرار حوله إلى بليونير ووضع شركته في مصاف الشركات الناجحة ودفع بالمؤلفين إلى قضاء ساعات وساعات وهم يطلعون على أرقام مبيعات كتبهم على الموقع. وعلى الرغم من ولع بيزوس بالكتب على الصعيد المهني والشخصي ـ فهو يعشق المطالعة وزوجته كاتبة روائية ـ فإنه يعرف أن التكنولوجيا ستكتنف كل الوسائط التي نستعملها. وقد صرح في مؤتمر صحافي عقد بسياتل في المقر الرئيسي لأكبر مكتبة على شبكة الإنترنت في العالم: «الكتاب من آخر المعاقل المناهضة للعالم الرقمي، لقد دخلت الموسيقى وأفلام الفيديو العالم الرقمي منذ وقت طويل، كما أن مطالعة الصحف وأشكال القراءة القصيرة قد تم ترقيمها أيضاً منذ بداية الانترنت، غير أن أشكال القراءة الطويلة لم تدخل بعد العالم الرقمي». بعد ذلك يطلق بيزوس هذا الأسبوع «أمازون كيندل» وهو جهاز إلكتروني يؤمل له أن يتخطى المحاولات السابقة التي استهدفت القرّاء على الشبكة ليصبح النقطة المفصلية في عملية تغيير شكل الكتاب.

هذا باختصار فحوى الثورة (وقد سبق وبدأت) التي ستغير الطريقة التي يقرأ بها القراء ويكتب بها الكتّاب وينشر بها الناشرون. ويمثل أمازون كيندل مفصلاً مهماً في هذه المرحلة الانتقالية يتنافس فيها قطاع النشر المتأزم مع التلفزيون والألعاب الإلكترونية وأجهزة الجوال المتطورة. ويتحسر النقاد الأدبيون على موت الثقافة المطبوعة، وتلقي وفاة نورمن ميللر منذ بضعة أيام الضوء مرة أخرى على تدني عدد الروائيين الكبار، من جهة أخرى، هناك الكثير من القراء العاشقين للمطالعة على الإنترنت ينتظرون بلهفة فرصة لتجديد عالم الكتب.

ومن موقعها المميز، تحاول Amazon دفع الأمور إلى الأمام وتأخذ المسألة بغاية الجدية، ففي النهاية، نحن نتحدث عن الكتاب.

ويقول بيزوس: «إذا أردتم دخول هذا الميدان، لا بد من تقديم أمر بجودة الكتاب نفسها على الكثير من الأصعدة، بل وعليه أيضاً أن يقدم ما لا تقدمه الكتب التقليدية».

وفيما يشير إلى لوح أبيض، يشرح المميزات التي لا بد أن يتحلى بها كتاب إلكتروني، وهو جهاز آخر في عالم بات مليئاً بالأجهزة. أولاً، لا بد أن يتسم بطابع كتابي، لذا لا ينبغي أن يكون جهازاً بأزرار كثيرة بقدر ما يجب أن يكون وسيطاً رزيناً للثقافة. وبالتالي فإن كيندل، (أي الشعلة، وقد سمي تيمناً بالشعلة المتقدة للمعرفة)، بحجم كتاب بغلاف ورقي وبسماكة تحاكي سماكة كتاب فعلي. كما أنه لا يزن سوى 292 غرام، وخلافاً للكمبيوتر المحمول، لا يسخن ولا يصدر أصواتاً مزعجة. ولا بد أن يكون جهاز المطالعة جهازاً ذكياً قابلاً للديمومة، بحسب ما يقول بيزوس. وباستعمال الحبر الإلكتروني، وهو اختراع تكنولوجي باهر أبصر النور منذ بضعة أعوام ويضاهي بنقاوته الكتاب المطبوع، يقدم كيندل شاشة بقطر ست بوصات تتسم بسهولة القراءة بنسبة عالية. كما يقول بيزوس إنه لابد أن تدوم البطارية طويلاً لأنه أزعج ما يكون ألا تستطيع قراءة كتاب بسبب عطل كهربائي (يسمح جهاز كيندل بالمطالعة طوال 30 ساعة ويمكن تعبئته كهربائياً في غضون ساعتين). ولتهدئة مخاوف محبي الكتب المطبوعة، بإمكان كيندل عرض صور من كتب قديمة وطبعات أولى وأعمال كتاب محبوبين مثل إميلي ديكنسون وجين أوستن».

لكن بعد ما ذكر، تأتي المميزات التي لا يسع الكتاب الورقي مضاهاتها. فالأجهزة الإلكترونية من أمثال كيندل تسمح لكم بتغيير حجم الخط: فالقراء الكهول سيستمتعون بإمكانية تكبير خط أي كتاب بكبسة زر، كما أنه بوسع هذا الجهاز المحمول باليد الاتساع لمائتي كتاب

ومئات الكتب الأخرى على بطاقة ذاكرة وأعداد لا تحصى ولا تعد في مكتبات الكتب الإلكترونية التي تديرها Amazon على شبكة الإنترنت. كما يسمح لكم جهاز كيندل بالبحث عن كلمة أو عبارة في النص.

وكانت بعض الخصائص متوفرة في كتب إلكترونية سابقة لاسيما جهاز سوني ريدر. وينبع إنجاز كيندل من ميزة لم يسبق أن قدمها أحد من قبل: الاتصال بالشبكة بطريقة لاسلكية عبر نظام يدعى ويسبرنت (وهو يستند إلى خدمة النطاق العريض إيفدو التي تقدمها شركات الهواتف المحمولة مما يسمح للجهاز بالعمل في أي مكان وليس فقط في الأماكن المزودة بقدرة التقاط واي في). ويقول بيزوس إنه نتيجة لذلك «لم يعد جهازاً بل خدمة».

هو بالتحديد امتداد لمتاجر Amazon (حيث بالطبع سيتم بيع أجهزة كيندل). وقد صممت Amazon جهاز كيندل حتى يعمل بطريقة مستقلة تماماً عن الكمبيوتر: فبالإمكان استعماله لقصد المتجر والبحث عن كتاب والإطلاع على توصيات تتماشى مع أذواقكم وقراءة تعليقات القراء وتحميل تعليقاتكم الخاصة بالكبس على لوحة مفاتيح سهلة الاستعمال. وإن شراء كتاب على جهاز كيندل تتم بكبسة زر. وما إن تشتروه، حتى يقوم كيندل تلقائياً بتحميل الكتاب وتركيبه في مكتبتكم ليكون جاهزاً للقراءة. ويتابع بيزوس بالقول: «ما نطمح إليه هو أن تتمكنوا من قراءة أي كتاب ـ ليس فقط أي كتاب منشور بل حتى أي كتاب نشر في يوم من الأيام ـ على هذا الجهاز في أقل من دقيقة».

وقد عملت Amazon حثيثاً لدفع الناشرين إلى تكثيف الجهود بغية نشر نسخ رقمية للكتب الجديدة والكتب التي يعاد نشرها باستمرار، وسيكون أكثر من 88.000 كتاب مطروحاً للبيع في متاجر كيندل (مع أن بيزوس لم يدخل في التفاصيل، إلا أن Amazon تخضع الكثير من الكتب

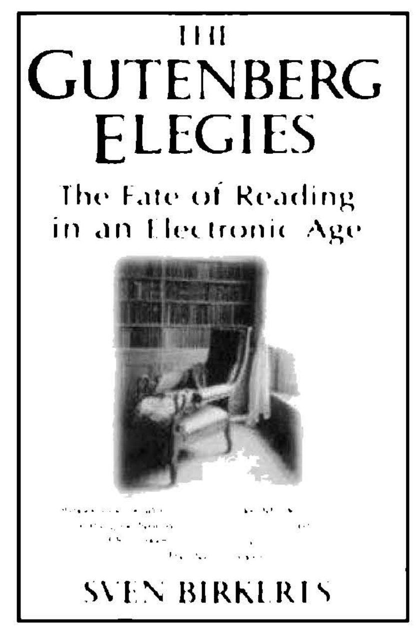
لجهاز المسح التصويري في إطار برنامج «البحث في داخل الكتاب». لكن أغلبية الكتب الإلكترونية يصدرها الناشرون مباشرة بكلفة تقترب من الـ 200 دولار عن كل كتاب مرقم. وتخضع الكتب الجديدة لهذه العملية لكن الكثير من الكتب التي يعاد نشرها لا تزال في الانتظار.

يقول الرئيس والمدير التنفيذي لدار بينغوين، ديفيد شانكس: «هناك زحمة كتب خانقة تنتظر الترقيم». وتسعرّ Amazon طبعات أكثر الأعمال مبيعاً بحسب صحيفة نيويورك تايمز كما الأعمال الجديدة بالغلاف الكرتوني والمخصصة جميعها لجهاز كيندل بـ 9.99 دولار. ويتوفر الفصل الأول من أي كتاب تقريباً مجاناً.

وجهاز كيندل ليس للكتب فقط، إذ يمكن عبر متاجر Amazon الاشتراك في صحف يومية (مثل ذا نيويورك تايمز ووول ستريت جورنال وذا واشنطن بوست ولو موند) ومجلات (مثل ذا أتلانتيك). فعندما ترسل الصحف إلى الطباعة. ترسل تلقائياً المنشورات الإلكترونية إلى جهاز كيندل الذي تحملون (فالجهاز أقرب إلى موزع صحف يرمي بالجريدة عند عتبة منزلكم منه إلى عملية نفاذ إلى كل مقال على حدة على الشبكة). وهو ما يكلف 99 سنتاً أو 1.99 دولار في الشهر لكل موقع.

كما بوسع جهاز كيندل التجول على شبكة الإنترنت بمفرده كي يبحث عن أمور على موقع Wikipedia أو Google أو اتباع وصلات من مواقع شخصية ومواقع أخرى على الإنترنت. إضافة إلى ذلك، بوسعكم تحديد الصفحة التي وصلتم إليها في الكتاب أو تسطير مقاطع بأقلام ألوان إلكترونية. وإذا أرسل لكم صديق ملفاً يقرأ باستخدام برامج وورد أو أكروبات لمايكروسوفت إلى بريدكم على كيندل، يظهر في مكتبتكم تماماً كأي كتاب. ومع أن بيزوس يتلكأ في إقامة المقارنة، إلا أن Amazon على قناعة بأنها اخترعت ما يوازي جهاز الـ آي بود في عالم المطالعة.

ويكلف جهاز كيندل الذي يتم شحنه في هذه الأثناء 399 دولار. عندما سيعلن بيزوس هذا السعر عند إطلاق الجهاز هذا الأسبوع، سيرى على الوجوه الدهشة ذاتها التي رآها ستيف جويس عام 2001 عندما أعلن أن «آبل» ستبيع بالسعر نفسه جهاز الموسيقى الرقمية الذي يتسع في الجيب. لا شك في أن الجهاز غالي الثمن، لكن إن سارت الأمور على ما يرام، بعد سنوات عدة، سنرى أجهزة كيندل مجهزة بشاشات ملونة وخصائص إضافية بسعر أدنى بكثير، أما مكتبات الكتب، تماما مثل متاجر أسطوانات الموسيقى المهجورة اليوم، فستكون أمكنة أكثر وحشة فيما ستدفعنا القراءة الرقمية إلى الحقبة المثيرة والثورية لما بعد عصر الطباعة.



فهل سيهاجم جهاز كيندل وأمثاله اختراعاً تألق طوال عقود وكان من أسس حضارتنا الإسلامية؟ إن موت الكتاب ـ وبشكل أوسع، موت الطباعة_ خبر تناقلته الألسن منذ أكثر من عقد. وقد قام سفين بيركرتس في The Gutenberg Elegies (رثاء غوتنبرغ، الصادر عام 1994) بإلقاء نظـــرة إلى المستقبل وخلص إلى ما يلي: «ما يكتبه الكاتب وكيف يكتبه وينشره ويطبعه ويبيعه وكيف يقرأ كتابه وكل الافتراضات القديمة باتت تحت الحصار». مثل هذه الأقوال كانت تجابه دائماً باحتجاجات من المتشددين الذين يصرون على أن هذه الأغراض المثالية التي تقبع على المناضد قرب الأسرة وفي الغرف غير قابلة للاستبدال. وقد سيطر الكمبيوتر على كل مرحلة من صناعة الكتاب ـ من أدوات البحث والتأليف والإنتاج ـ

لكن الخطوة الأخيرة من العملية حيث يمتزج خاطر القارئ بخواطر الكاتب في رقصة تانغو غير متناغمة لكن رائعة، ستظل مقدسة ولا يمكن مساسها بحسب المتشددين، وعلى سبيل المثال، في عام 1994، نشر اقتباس لصاحبة الكتب الخيالية آني برولكس وهي تقول: «لن يجلس أحد ويقرأ رواية على شاشة صغيرة ترتعش. أبدا أبداً».

يا عزيزتي آني! في عام 2007، باتت الشاشات في كل مكان (وباتت أقل ارتعاشاً) وبات يقرأ الناس عليها كل شيء ـ من وثائق وجرائد ومجلات ومواقع شخصية ـ تماماً كما يقرأون الروايات، أجل الروايات. وليس فقط على الشاشات الكبرى. فشركة كتب ـ كتب جديدة مرخصة من الناشرين أو كلاسيكية لكتاب أمثال جين أوستن ـ مباشرة إلى بريدكم الإلكتروني بأجزاء من 1.000 كلمة (كنت أقرأ Life of Johnson ـ حياة جونسون ـ لبوسويل على جهاز آي - فون، وهو جهاز من المتوقع أن يكون مشغلاً مهماً للكتب الإلكترونية في الأشهر المقبلة). وأخيراً كتب أحد الصحافيين بإسهاب في صحيفة شيكاغو تريبيون عن مطالعته أعمال جين أوستن على جهاز البلاك بيري الذي يملكه.

ويعتبر التصدي لمجلد الكتاب بحد ذاته التحدي الأساسي لأجهزة القراءة المحمولة التي لا يشكل كيندل سوى آخر نسخة جدية عنها. وفي الماضي، نافس هذا الجهاز روكت إيبوك بزنة 624 غرام تقريباً (حتى إن مخترعيه كانوا من صنع سيارة تيسلا رودستر الكهربائية). وبذلت جهود لتوزيع كتب إلكترونية على أقراص مدمجة. لكن الدفع الكبير باتجاه الكتب الإلكترونية دخل في مرحلة ركود بداية الألفية الثالثة. وتقول كارولين رايدي، رئيسة دار «سايمون آند تشوستر» للنشر: «لم تكن الأداة سهلة الاستعمال وكان من الصعب إيجاد الكتب الإلكترونية وقراءتها وشراؤها».

لقد كان الإنجاز العظيم لهذا العقد هو اختراع الحبر الإلكتروني الذي صنع في مختبر وسائط الإعلام في معهد مساشوسيتس للتكنولوجيا. ويعمل هذا الحبر عبر ترتيب المواد الكيميائية تحت سطح الشاشة بشكل يظهرها وكأنها صفحة مطبوعة. وقد استعمل الحبر الإلكتروني لأول مرة بشكل مهم في جهاز سوني ريدر الذي أطلق سنة 2006 وتم الترويج له على نطاق واسع بسعر 299 دولار. ولم تكشف شركة سوني عن أرقام المبيعات لكن مدير الأعمال بوب نيل قال إن جهاز سوني ريدر قد فاق توقعات الشركة وبداية هذا الشهر أدخل سوني نموذجاً جديداً سماه 505 (ولا يمكن لجهاز ريدر الاتصال بالإنترنت بطريقة لاسلكية، ولا بد من تحميل الكتب على الكمبيوتر ثم نقلها إلى الجهاز، كما لا يسمح بالبحث عن كلمة داخل الكتاب).

ويصل اليوم إلى الأسواق كيندل الذي بدأت Amazon بتصميمه عام 2004. ويدرك بيزوس أنه على الرغم من جميع مميزاته، إذا لم يتم نقل كل خصائص الكتاب الحسي بالشكل الملائم، فسيلقى هذا الاختراع فشلاً ذريعاً. ويقول: «أهم خصائص الكتاب أنه يختفي «فلا نشعر بوجوده».

وفيما قد يحتج المولعون بالكتب الحسية على فكرة أن القدرة على الاختفاء هو ما يضع أجهزة القراءة الإلكترونية والصفحات المطبوعة في منافسة محمومة. يبقى أن التواصل مع الكاتب هو ما يخلق فينا هذا الشغف للكتب. ويقول بيزوس: «لقد تساءلت: «لماذا أحب هذا الكتاب المحسوس؟ لماذا أحب رائحة الغراء والحبر»، والجواب هو أنني أربط الرائحة بكل هذه العوالم التي أنتقل إليها من خلال قراءتي. ما نحب فعلاً هي الكلمات والأفكار».

وقبل أن يتم استحداث فضاء الإنترنت، كانت الكتب تحملنا إلى عالم خيالي. ويكتب فيكتور نيل في كتاب لعام 1988 بعنوان Lost in a Book (ضائع في كتاب): «الكتب أحلام نود أن تصبح حقيقة وتملك تماماً كالأحلام القدرة على تغيير مستوى وعينا. وقد أطلق نيل اسماً على هذه الحالة النشوية التي يدخل فيها القراء عندما يطالعون الكتب من أجل المتعة: «المطالعة الترفيهية». وقد زعمت آني برولكس أن الجهاز الإلكتروني لن يستطيع يوماً خلق هذه الحالة من السحر والانبهار. لكن علماء التكنولوجيا يعارضون هذا القول. فالمسؤول عن القراءة الإلكترونية في شركة مايكروسوفت، بيل هيل، قد غاص في ألغاز هذه المنطقة التي ينقلنا إليها الكتاب بغية محاكاة الظروف نفسها على الكمبيوتر بأفضل شكل ممكن.

وحاول وضع «نظرية عامة لما يقرأ» ستبين ألغاز المطالعة الترفيهية وتفسر قدرة الكتب على دفعنا إلى حالة الانغماس الكامل في القراءة. «هناك 550 سنة من التطور التكنولوجي في الكتاب، وكل ما فيه معد كي يعمل ضمن أربع إلى خمس بوصات من مقلة العين إلى الجزء في الدماغ الذي يفكك (الرموز على الصفحة) لفهمها»، بحسب ما يقول هيل، وهو رجل صاخب يرتدي تنورة أسكتلندية في مطعم للمأكولات البحرية في سياتل حيث يقدم محاضرة مرتجلة عن نظريته. «هذه آلة مسح تصويري»، يقولها مشيراً بالبنان إلى جبينه، «تقوم بمسح خمسة عناصر في الثانية وتنتقل بين العنصر والآخر في غضون 20 جزءاً من الثانية، وتقوم بهذا طوال ساعات وساعات وساعات». ويشير إلى قرون من تحسين الكتاب حتى يتلاءم مع هذه الجوهرة الجسدية التي نملكها عبر تكييف شكل الصفحة والعناوين وحجم الخط وهيئته ومساواة طول

الأسطر... «لا بد أن نولي العناية ذاتها للشاشة تماماً كما فعلنا مع الكتاب المطبوع».

ويصر هيل ـ ولا عجب في ذلك طالما أنه موظف لدى مايكروسوفت ـ أن تكنولوجيا القراءة المثالية ليست بالضرورة جهازاً مخصصاً للمطالعة، بل الشاشة التي نستعملها والتي تم تحسينها لهذه الغاية (سبق أن قرأ ستة مجلدات من كتاب جيبسون The Decline and Fall of the Roman Empire انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية ـ على كمبيوتر الجيب الأول). وهو يضيف في هذا الصدد: «ليست إنترنت إكسبلورر متصفحاً للصفحات بل هي جهاز مطالعة، يمضي الناس حوالي 20 بالمئة من الوقت وهم يتصفحون الصفحات سعياً وراء المعلومات و 80% من قراءتها وفهمها. لقد سبق وحصل التحول ولم نلاحظه».

لكن حتى هيل يقر بأن القراءة أمام شاشة كشاشة التلفزيون ليست بالتجربة الفضلى. فعلى مر القرون، تمّ تحديد المكان المفضل: لابد من كتاب يحمل باليد ويؤخذ إلى الفراش. وإن أجهزة مثل كيندل مع شاشة تعرض الحبر الإلكتروني بدقة 167 نقطة في البوصة الواحدة ومع هيئة خط رفيع تماماً كأي كتاب محسوس. ومعه ننغمس أيضاً في المطالعة.

ومع أن كيندل هو في الصميم جهاز قراءة صنعه بائع كتب ـ ويعمل بشكل مذهل حينما تشترون كتاباً أو تقرأونه ـ إلاّ أنه لا يقتصر فقط على هذه الوظائف : فهو إدارة متصلة باستمرار بشبكة الإنترنت.

يكفي أن ترتعش أصابعكم على لوحة المفاتيح حتى تقطع الأواصر التي مددتموها بين خواطركم وخواطر الكاتب ـ أو تزداد ـ حتى تتدفق عليكم أطنان من المعلومات.

ومن هنا تكمن الطبيعة الانقطاعية لجهاز كيندل. فهو أول كتاب «متصل على الدوام» بشبكة الإنترنت.

ما الذي سيحدث إذا كانت الكتب متصلة على الدوام بشبكة الإنترنت وإذا بات خلفاء كيندل الأكثر تطوراً من الأمور الشائعة؟ أولاً، قد يغير ذلك عملية الاكتشاف بالنسبة إلى القراء، ويقول كريس أندرسون، صاحب كتاب The Long Tail (الذيل الطويل): «مشكلة الكتب ليست مشكلة طباعة أو تأليف. لا يقرأ ما يكفي من الناس الكتب» (ويفيد تقرير جمعية التربية الوطنية لعام 2004 أن 57 بالمئة فقط من الراشدين يقرأون كتاباً واحداً ـ أياً كان ـ في السنة. وقد كان هذا المعدل 61 بالمئة قبل عقد). ويأمل هذا الكاتب بأن يوصل الكتاب الإلكتروني إلى كتب أخرى أو يسمح لمجموعات من القراء باقتراح أسماء كتب رائعة لكن غير معروفة.

كما أن الاتصال بشبكة الإنترنت يؤثر في شكل قطاع النشر ويعطي بعض الأمل لميدان لا يبلغ فيه نمو العوائد العشرة بالمئة، فيما نمو عوائد الألعاب الإلكترونية يشهد ارتفاعاً غير مسبوق. ويقول بيزوس: «لم يعد من الضروري أن ينفذ مخزون طبعة ما. فمثل هذه الطريقة تقصر حلقات النشر». كما قد تؤثر في الأسعار. فلطالما اشتكى القراء من أن الكتب الجديدة غالية الثمن؛ أما رد Amazon على هذه المسألة فبيع الكتب الجديدة وأفضل الكتب مبيعاً بـ 9.99 دولار (كما بالإمكان شراء كتب كلاسيكية بسعر أغنية. فقد حملت كتاب Black House ـ الدار القاتمة ـ لقاء 1.99 دولار). ويشرح بيزوس أنه من العدل أن تدفعوا أقل مقابل كتاب إلكتروني لأنكم لا تستطيعون إهداءه وبسبب السياسات التقليدية لمكافحة القرصنة، لا يمكنكم إعارته أو بيعه. (مع أن المكتبات قد

وضعت إجراءات الإعارة لنسخ قديمة من الكتاب الإلكتروني تماماً مثل كاسيت الفيلم في Mission Impossible التي تتبخر بعد فترة الإعارة. ويقول بيزوس إنه متقبل لفكرة أن يقوم بالأمر عينة مع جهاز كيندل).

ويتصدى الناشرون لفكرة بيع الكتاب الإلكتروني بسعر أقل، ويقول بيتر شانكس، رئيس دار بينغوين، رداً على أسعار Amazon البخسة مقابل أكثر الكتب مبيعاً: «لن أوافق على هذه الفكرة» (وبدا مندهشاً عندما قلت له إن كتاب آلان غرينسبان الذي ينشره يباع بسعر محسوم بما أنه لم يقدم أي عرض عليه). ولا شك في أن Amazon تبيع بخسارة كتباً مماثلة، ويقول بيزوس إنه باستطاعته الاستمرار على هذا النحو إلى ما لا نهاية. «لدينا تجربة في المبيعات مع نسب أرباح ضئيلة وكميات كبيرة. لا بد أن تحرصوا فقط على أن يعمل هذا المزيج (بين كتب محسومة وأخرى غالية الثمن). على الرغم من ذلك لا بد أن يخفف الناشرون الكبار (وكلهم يتعامل معهم جهاز كيندل) من تشددهم، فإذا كنتم على وشك أن تستقلوا طائرة، قد تشترون السيرة الذاتية لإيريك كلابتون لقاء 10 دولارات ـ لا بل مقابل خمسة دولارات! ـ لكن إذا كان الكتاب يكلف أكثر من 20 دولاراً، فقد ينتهي بكم الأمر بتصفح الصحف والمجلات. لنقل إن تخفيض السعر إلى النصف سيضاعف المبيعات. وبالتالي بما أن العوائد في النهاية ستكون هي ذاتها، فإنه سيفضل آنئذ الكاتب أن يطالع ضعفا عدد القرّاء عمله؟ وعندما طرحت السؤال على جيمس باترسون الذي ترد رواياته على قائمة أفضل المبيعات، أجابني بعد إطلاعه على جهاز كيندل بأنه لو كانت العوائد هي ذاتها، فإنه سيفضل آنئذ أن يبيع بسعر أقل لعدد قرّاء أكبر. (كما يؤمن بأن جهاز كيندل سيحقق النجاح: «يعشق جيل الكهول الكتب المطبوعة. لكن الجيل الصاعد ينجز كل شيء أمام الشاشة»).

أما النموذج الآخر الذي تستعمله وسائط الإعلام لإبقاء الأسعار منخفضة فبالطبع الإعلانات، ومع أنه لا يبدو أن ذلك يدخل ضمن خطط كيندل، إلا أن بعض شركات الإنترنت تتحدث عن كتب مدعومة من قبل معلنين. ويقول بيل ماكوي، المدير العام للمنشورات الإلكترونية في شركة «أدوب»: «اليوم، لا يبدو منطقياً وضع إعلانات في الكتب بسبب توقيت المطالعة الذي لا يمكن التنبؤ به ولا نوع القراء، لكن ذلك تغير مع التوزيع الرقمي».

وهناك تغيير آخر ممكن: بفضل الكتب المتصلة بالإنترنت، فإن المجال بين الكاتب والكتاب يظل موجوداً حتى بعد الشراء. فبالإمكان تصحيح الأخطاء، فوراً. أما فيما يتعلق بالإضافات فمتوفرة أيضاً ـ إذ بدلاً من شراء الكتاب في عملية منفصلة، بوسعكم الاشتراك في كتاب على أساس أن الكاتب سيضيف إليه فصولاً بشكل مستمر. وسيكون ذلك أكثر ملاءمة للكتب غير الخيالية منه للروايات. لكن حتى الروائي بإمكانه إعادة كتابة خاتمة القصة أو تغيير أمر في مجرى القصة، بوسعنا العودة إلى عصر ديكنز من حيث النشر بصورة متتالية. ومع كتاب متصل دائماً بالإنترنت، يصير بمقدور الكاتب إعادة صياغة الرواية من أجل مشترين مستقبليين وربما يكون بوسعه الوصول إلى داخل مكتبات القراء وإجراء التغييرات (لنأمل أن تكون التدابير الأمنية لدى Amazon صارمة حتى لا نكتشف ذات يوم أن أحدهم قد مزق كتاب هاري بوتر أو مدام بوفاري).

غير أن هذه التطورات هادئة مقارنة بالتغييرات العميقة التي يستبقها البعض، ففي كتاب متصل بالإنترنت، لم يعد الانغماس في المطالعة من جانب واحد فقط نتيجة تأثير الكاتب في القارئ، فلحسن الحظ أو سوئه، سيشارك القرّاء في صنع الكتاب.

فإن تحدثتم إلى أشخاص فكروا في مستقبل الكتب، هناك جملة لا تنفك ترد في أحاديثهم: القراء سيقرأون في العلن والكتّاب سيكتبون في العلن. وبالطبع يستمتع القراء حالياً بدور أبرز في وسط المؤلفين إذ يعربون عن آرائهم على مواقعهم الشخصية وفي المنتديات على الشبكة ويرسلون تعليقاتهم على موقع Amazon. وسيزداد هذا المنحى في عصر الكتب المتصلة بالإنترنت. ويقول بوب شتاين، وهو أحد الرواد في وسائط الإعلام الرقمية الذي يرأس معهد مستقبل الكتاب، وهي منظمة مقرها في بروكلن بنيويورك: «سيصبح بإمكان أندية الكتب الاجتماع داخل كتاب، وفي النهاية، ستأخذ الفكرة مجراها ويصبح المجتمع فاعلاً في عملية صنع الكتاب بحد ذاته».

ستاين يرى تبعات أكبر بالنسبة للمؤلفين، بعضها يتضمن دعوة جدية بالنسبة إلى التقليديين منهم. فهو يقول: «هذا هو ما لا أعرفه، ما الذي يحدث لكاتب يذهب إلى مكان هادئ لاستيعاب المعلومات واختصارها إلى 300 صفحة من المحتوى التي تكون معلوماته بصورة مميزة فريدة»؟. وما يقصده هو أن هذه العملية الدقيقة قد تسير بالوجهة التي اتجهت بها علامة الكتاب الجلدية القديمة التي لا يستعملها أحد الآن. إذ إن فكرة المؤلف وصاحب السلطة ستتلاشى أمام عملية حكمة الجمهور التي تنشرها الطبعة التالية من الويب المعروفة باسم ويب 0.2 ويقول بن فيرشبوه، المدير المشارك للمعهد إن «فكرة التأليف ستتغير وتصبح عملية أكثر من كونها منتجاً».

وهذا واقع الأمر يحدث منذ الآن على الإنترنت، فبدلاً من الانعزال في غرفة مكتظة بقطع سدادات النبيذ الفلينية للقيام بعملهم، فإن مؤلفين مثل كريس أندرسون وجون باتيل (مؤلف كتاب The Search ـ

البحث) وأستاذ جامعة نيويورك ميتشيل ستيفنز (الذي يؤلف كتاباً عن المعتقد الديني حالياً) قاموا بتأليف كتبهم بالاستفادة من ردود الفعل والإسهامات التي تلقوها من مجموعة من الناس المنكبين على مدوناتهم الإنترنتية.

ويقول بيتر برانتلي، المدير التنفيذي لاتحاد المكتبات الرقمية، وهي رابطة للمكتبات العامة والمؤسسات: «إن إمكانية التفاعل بين الكاتب والجمهور ستعيد تعريف عملية التأليف». وعلى عكس بعض الداعين إلى الكتابة العلنية، فهو لا يوفر الروائيين من هذا. وقال إنه «سيكون على مايكل تشابون أن يعيد التفكير في كيفية الكتابة لهذه الوسيلة الإعلامية». ويتصور برانتلي نوعاً من التعاون في التأليف كمثل ذلك الذي يتم في كتابة مدخلات الموسوعة الإنترنتية Wikipedia، حيث المؤلف، بدلاً من أن يكون السلطة الوحيدة، سيصبح «المستعمل الرئيسي»، أو القائد الرئيسي لخلية من الكتّاب المبدعين. (مع أن من الصعب تصديق أن كتّاب القصص الإنطوائيين لن يكونوا دائماً منزوين في أحد محلات قهوة ستاربكس بحيث يطفئون أجهزة الارتباط اللاسلكية بالإنترنت، واي فاي، لكمبيوتراتهم، ويكتبون رواياتهم ليخرجوا بعد ذلك بنسخة روائية رئيسية).

ولعل كل هذا يصبح حتى أكثر إرباكاً حين تأخذ في الاعتبار أنه حين ينضج قارئ الكتب الإلكترونية، فإن هناك الآن مبادرات ضخمة يتم تنظيمها لتحويل مكتبات بحالها إلى مكتبات رقمية. فموقع شركة Amazon بالطبع هو جزء من هذه الحركة (مشروعها المسمى «البحث داخل الكتاب» أحرز بعض النجاح بتوفيره أول فرصة لكي يحصل القراء على نتائج البحث من كومة من مئات الآلاف من المجلدات الكبرى). ولكن بصفة Amazon شركة معلنة لبيع الكتب، فإن أهدافها هي أهداف

مختلفة عن سواها من اللاعبين في هذا المجال، مثل محرك البحث Google ـ الذي تتمثل مهمته في جمع وتنظيم كل المعلومات في العالم ـ وأهداف تحالف المحتوى المفتوح، وهو تحالف من المؤسسات الذي يسعى إلى تحويل كتب العالم إلى كتب رقمية بصورة لا تكون خاضعة لملكية أحد. (القوة المحركة لهذا التحالف، بروستر كاهل، صنع ثروته ببيعه شركته لشركة Amazon، ولكنه غير سعيد للطريقة التي تعالج بها هذه الشركة ملكية حقوق الطبع: فخياره لقارىء الكتاب الإلكتروني هو الوسيلة الإلكترونية الرخيصة جداً المعروفة باسم أكس أو التي صممتها مؤسسة كمبيوتر محمول لكل طفل). هذه عقبات معقدة ويمكن أن تكون معقدة قانونياً لكل هذا: ولعل الأبرز هي قضية قانونية بارزة تتعلق بحقوق الطبع رفعها تجمع ناشرين، بالتحالف مع رابطة المؤلفين، والتي تتهم بانتهاك قوانين الحماية الفكرية عن طريق نسخ محتويات الكتب التي تقوم بتصويرها لوضعها على قواعد معلوماتها. ومع ذلك فإن التوجه قطعاً يسير باتجاه خلق مكتبة مرتبطة ارتباطاً هائلاً بالإنترنت لتقديم وسائل قراءة الكتب الإلكترونية المستقبلية بقدر من المحتوى يزيد على محتوى كل الكتب الموجودة في مدينة تعج بالمكتبات. وكما كتب الصحافي كيفين كيلي في مقالة مثيرة للجدل نشرتها له مجلة نيويورك تايمز، فإن الهدف يتمثل في «جعل كل العمل الفكري للإنسان، منذ بدايات التاريخ المسجل، وبجميع اللغات، متوافراً لكل الناس في كل الوقت».

وقد قام محرك Google باستنساخ مليون كتاب من المكتبات الشريكة معه مثل جامعة ميشغان ومكتبة نيويورك العامة، وهي كتب باتت الآن متوفرة في قواعد بيانات المحرك. (الأسبوع الماضي قامت زوجتي بالبحث عن معلومات حول أول طبعة إنجليزية لمذكرات بير كام، وهو

رجل سويدي مدافع عن الطبيعة قام بالتجوال في أمريكا في عهدها الكولونيالي. وخلال أقل من ثانيتين، كان محرك Google قد عاد إليها بالنص الكامل للكتاب كما تم نشره عام 1771).

بول ليكريك، كبير المديرين التنفيذيين لمكتبة نيويورك العامة، يقول إنه يشارك في مشروع يدعى التنوير الإلكتروني. وهو مشروع أكاديمي (ولد في جامعة أكسفورد) لجمع كل المعلومات والكتابات عن كل شخصية من شخصيات عصر التنوير. وهذا يتضمن كل كتابات الحواشي والمراسلات والتعليقات التي كتبها 3.800 كاتب من كتّاب القرن الـ 18 مثل جيفرسون، وفولتير، وروسو، بطريقة مرتبطة بعضها ببعض وبصورة تسمح بالبحث فيها، كما لو كان قد تم ضغط غرفة صغيرة في مكتبة لتصبح وثيقة حية واحدة. ويتساءل: «كيف كان لك أن تقوم بشيء كهذا سابقاً؟».

الآن تخيل أن يحدث هذا لكل الكتّاب، ويقول كيلي إن «القراءة تصبح نشاطاً مجتمعياً، فالمواقع المفضلة يمكن تشاطرها مع القراء الأصدقاء. ويمكن بث التلويحات... بطريقة مثيرة للفضول جداً، وتصبح المكتبة العالمية نصاً واحداً كبيراً جداً، جداً: الكتاب الوحيد للعالم».

العاملون في Google فكروا في الكيفية التي يمكن بها لهذا النوع من الارتباط أن يؤثر في الكيفية التي يقرأ بها الناس. ويقول آدم سميث، مدير المنتجات في مشروع بحث الكتب، إن العملية كلها تتعلق «بالتخلص من فكرة أن الكتاب هو صفيحة (مغلقة)». ويصف أحد زملائه، دان لانسنغ، كيف يمكن لذلك أن يعمل: «مثلاً أنت تريد أن تتعلم شيئاً عن الشرق الأوسط وتبدأ في قراءة كتاب يدعي أن حدثاً معيناً قد حدث في لبنان عام 1981، حيث يقوم المؤلف بسرد رأيه في ما

حدث. ولكن واقع الأمر أن رأيه لا يمثل ما حدث (بالفعل). تجد هناك مقتطفات من أخبار الجرائد عن الحدث، وهناك أناس آخرون كتبوا عن هذا الحدث يختلفون معه بشأن ما يقول إنه حدث، هناك آراء أخرى. إن حقيقة أن كل هذا بات متوفراً لك بنقرة من إصبعك وحقيقة أنك تستطيع ربط هذا كله معاً إنما يغير بالكامل الطريقة التي نقوم بها بالبحث. تستطيع أن تحصل على جميع معلومات العالم، جميع الكتب التي نشرت جميع مكتبات العالم».

ويشير جيم غيربر، مدير شراكات المحتوى بشركة Google، على سبيل المثال أن يقوم شخص من التيار الليبرالي بكتابة تعليقاته على حواشي كتاب آن كولتر، موفراً روابط داحضة لكل مقولة تعتقد الكاتبة أنها معلومات غير دقيقة. هذه التعليقات، التي ربما يمكن تعزيزها وتحديثها من قبل أي شخص يريد أن يشارك في ذلك، يمكن إعادة دمجها في محتوى الكتاب نفسه، إذا أردت أن تضمها إلى نص الكتاب. قد يجعل هذا آن كولتر سعيدة جداً لأنه سيكون عليك أن تشتري كتابها من أجل مراجعة قائمة الاعتراضات عليه.

كل هذه الأفكار هي أفكار مقيتة بالنسبة إلى التقليديين. ففي مايو 2006، قرر الكاتب الروائي جون أبدايك، الذي هالته فكرة مقالة كيلي، (بعنوان «سيناريو مفزع حقاً») أن يتحدث إلى العاملين في صناعة الكتب. فقد وصف، في خطاب ألقاه في حشد من العاملين في صناعة بيع الكتب: «الكتاب المطبوع، المرصوص والمدفوع ثمنه» بأنه أحد المثل، وأعرب عن قلقه من أن قراء الكتب وكتّابها «يقتربون من المواقع الصامدة الأخيرة، النساك الذين سيرفضون الخروج واللعب في ضوء النهار الإلكتروني في قرية ما بعد غوتنبرغ». (الواقع أن الدراسات تشير إلى أن

قراء الإنترنت المدمنين يقرأون قدراً أكبر من الكتب من أولئك الذين لا يتصفحون الإنترنت كثيراً).

وأعلن أن «حواشي» الكتاب التقليدي لا يجب التعدي عليها، وبرأيه أن الأغلفة الصلبة التي تربط الصفحات بعضها ببعض ليست مجرد أغلفة، بل هي متاريس، وعلى الناس الذين يتفقون على هذا الرأي أن «يدافعوا عن هذه القلعة».

هذه القلعة، بالطبع ستصمد لفترة طويلة جداً، إن التقنية الرائعة التي أنتجت الكتب الأصلية لنا ـ وحبنا للكتب ـ سيبقي على الكتب كأدوات حيوية لنا لسنوات طويلة قادمة. ولكن ليس هناك شيء واحد يبقى للأبد. مسؤول شركة مايكروسوفت بيل هيل يكرر المقولة ذاتها حين يتحدث عن عملية صنع الكتب اليوم، الهادرة للطاقة والمستنزفة للموارد. فنحن نقطع الأشجار، وننقلها إلى المصانع ونقوم بضغطها إلى أن تصبح لباً، وننقل اللب إلى مصنع آخر لتحويله إلى صفائح ونقوم بنقل الصفائح إلى مصنع آخر لوضع إشارات قذرة عليها، ثم نقوم بقطع الصفائح ونربطها معاً قبل أن نقوم بشحن هذا الناتج حول العالم. ويقول: «هل تعتقدون فعلاً أننا سنظل نقوم بهذا خلال 50 سنة»؟.

الجواب قد يكون لا، ولهذا فإن جهاز كيندل مهم. ويقول جيف بيزوس: «إن هذا هو أهم شيء قمنا به حتى الآن، إنه لأمر طموح جداً أن تقوم بأخذ شيء متطور مثل الكتاب وتحسنه. وربما حتى تغيير الطريقة التي يقرأ بها الناس». ما دامت البطاريات مشحونة.

هل يستطيع إطلاق العنان للخيال[1]؟

قراءة السطور الرفيعة في جهاز Amazon الجديد.

يقول الرئيس التنفيذي لـ Amazon إن جهاز كيندل قد يكون أهم شيء ابتكره في حياته. ولكن ما مدى جودة عمله؟ بصفتي أول صحافي يجرب الجهاز، وجدت أنه يحتل مكانه بين يدي بشكل رائع. إن حمله مريح، وزري «الصفحة التالية» و«الصفحة السابقة» الضخمين الموجودين على الجانبين يسهلان القراءة بنمط منتظم ومطرد. من ناحية ثانية، يكاد نتوء هذين الزرين يحول دون التقاط الجهاز من دون تقليب صفحة افتراضية عن غير قصد.

التنقل بين مختلف المزايا يتم من خلال نظام جديد يتمحور حول «عجلة اختيار» قابلة للضغط عليها، فتحرك مؤشرة فضية صعوداً ونزولاً على طول شريط رفيع، على غرار مصعد يتحرك عبر ممره العمودي. إن التمكن من استعماله سهل للغاية، لكنه بطئ إلى حد ما.

لقد تمحور الاختبار الصارم الفعال حول قدرة كيندل على نقل قارئة إلى أجواء النشوة تلك التي يتلاشى فيها العالم الحقيقي من حوله.

---

(1) المرجع السابق

بما أني أمتلك جهاز سوني ريدر (الذي يستخدم تكنولوجيا الحبر الإلكتروني نفسها)، افترضت أنه قادر على ذلك، وتبين أني محق بذلك لقد قرأت رواية مشوقة لدان سيل، ورواية ريتشارد روسو الجديدة، ومذكرات أريك كلابتون غير المرضية، فلم أشعر بأني أفوت على نفسي شيئاً مما كنت سأشعر به لدى قراءاتي كتاباً «حقيقياً».

من المثير أيضاً للحماسة أن أحصل على الجرعة اليومية من مقالات صحيفة نيويورك تايمز وغيرها من الصحف. لكن السطح البيتي مخيب للآمال في ما خص قراءة الصحف، إذ يتوجب على القارئ أن يبذل جهداً للتدرج عبر قوائم المقالات، وغالباً ما تفتقر هذه الأخيرة إلى الوصف الكافي، ومع ذلك، الحصول على نيويورك تايمز يومياً ودفعة واحدة، أينما كنت متواجداً، أقرب إلى وصول النسخة المطبوعة إليك منه إلى انتقاء المقالات على شبكة الانترنت، ثم إن كلفته تبلغ 13.99 دولاراً في الشهر، مقارنة بالدولارات الخمسين ونيف التي أسددها لقاء توصيلها إلى منزلي. أحسب فرق اللفتين بنفسك.

أما وجه الابتكار الفعلي في جهاز كيندل فيتمثل بقدرة وصله عبر ميزته اللاسلكية، ويسبرنت، التي تؤدي عملها جيداً في كل مكان تقريباً. فحين تزور متجر كيندل، يتم الترحيب بك وكأنك صديق قديم، بما أن حساب كيندل الخاص موصول بتاريخ مشترياتك وتوصياتك على موقع Amazon. لم يتوافر كل كتاب رغبت فيه (أعني مؤلفات فيليب روث)، ولكن توافرت كتب جمة، أما سعر 9.99 دولار للكتب الرائجة المبيع والكتب الجديدة فيزيد من عامل جاذبية شرائها. إن أروع ما يمكنك أن تفعله بكيندل هو، بلا منازع شراء كتاب، إذ ما عليك سوى الضغط على زر «اشتر» حتى ترى الكتاب توفر على جهازك خلال أقل من دقيقة واحدة.

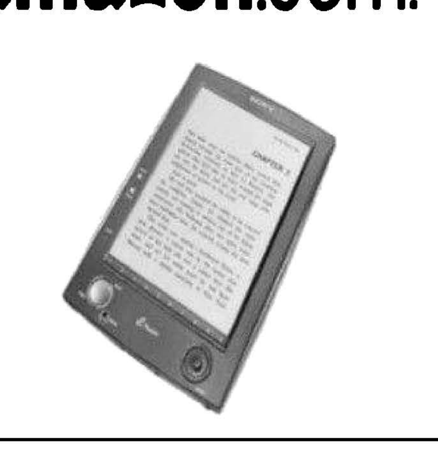
صحيح أن ميزة الحماية من النسخ لا تؤثر في عملية مطالعة الكتاب، إلا إنها تحدُّ من قدراتك وتثير الانزعاج. فأنت لا تستطيع أن تطبع مقطعاً ما، أو ترسله عبر البريد الإلكتروني إلى صديقك، أو تنسخه في مستند ما، ولا يمكنك أن تعير شخصاً ما كتاباً، أو أن تبيعه بعد فراغك من قراءته.

إن البحث ـ ضمن الكتب وداخل الجهاز، وفي المتجر وفي شبكة الإنترنت ـ عملية سريعة وسهلة. ويخولك جهاز كيندل أن تتصفح شبكة الإنترنت، لكنه لا يتقن عرض صفحاتها. (لن تتمكن من تصفح موقع You Tube لأن الجهاز لا يدعم الصور المتحركة).

لم أجر اختباراً علمياً للبطارية، لكن اكتشفت أنه حين يتم تنبيهك لبقاء 20 بالمئة فقط من طاقتها، ينبغي عليك أن تعيد شحنها على الفور، لأن طاقتها تفرغ بسرعة عند بلوغها ذلك المستوى. ولا شيء أشد إزعاجاً من جهاز يتظاهر بنفاد طاقته. وبالمناسبة يمكنك استبدال البطارية، لقاء 20 دولاراً تقريباً. إن كيندل، وليس لكونه مجرد جهاز بل لأنه بشكل أساسي مكون متقن التصميم ضمن خدمة منطقية الترابط ومفيدة، وهو ابتكار بارز حتى الآن في مجال المطالعة الإلكترونية. اتخاذ القرار بكونه يستحق سعره البالغ 399 دولار هو مسألة كلاسيكية عند معتنقي التقنيات الجديدة: إن كان التاريخ قد أثبت صحة مسألة ما، فهي أن الناس سيتمكنون بعد فترة من شراء إصدار محسن لقاء مبلغ أقل.

لكن في رأيي أن أي قارئ نهم، ولا سيما القارئ الكثير الأسفار، سيبتهج بحصوله على جهاز كيندل يجده قرب الموقد في موسم الأعياد هذا.

القارئ الإلكتروني



في صحيفة النهار (23-2-2008) كتبت سحر بعاصيري عن جهاز «كيندل» فقالت: كنت أتمنى لو استطعت أن أمسك الجهاز المسمى «كيندل» قبل أن أبدأ بكتابة هذا المقال كي يكون وصفي له وشرحي لطريقة عمله شهادة مباشرة، ليس لأنني من المعجبات بما توفره التكنولوجيا من تسهيلات في الاتصال والوصول إلى المعلومات فحسب، بل لأنني مقتنعة من مواصفاته وميزاته بأن «كيندل» هو قفزة كبيرة جداً في الكتاب الإلكتروني بل أقرب إلى أن يكون ثورة ستحدد معالم مستقبل القراءة وتالياً مستقبل طبيعة الكتاب. ولكن يبدو أنني تأخرت لأضمن شراء جهاز. تأخرت بضع ساعات في اليوم الأول لطرحه في السوق إذ نفذت الكمية الأولى منه في ست ساعات، ثم تأخرت لدى طرح الكمية الثانية التي نفدت سريعاً أيضاً، وها أنا مثل كثيرين غيري ننتظر في الصف الافتراضي الطويل أمام موقع «أمازون دوت كوم» على الإنترنت، الشركة التي ابتكرت «كيندل». فما هو هذا الجهاز ولماذا تزامن نجاحه التجاري مع انطلاق نقاش واسع في شأن مستقبل الكتاب والقراءة الإلكترونية، بينما كانت التجربة تدل على عدم رواج الكتاب الإلكتروني وكذلك على بطء انتشار أجهزة القراءة الإلكترونية الأخرى؟

«كيندل»، بالتعريف الرسمي الذي وضعته «أمازون دوت كوم»، هو قارئ إلكتروني لكنه عملياً، إضافة إلى ذلك، مكتبة شخصية متحركة بحجم الكتاب الصغير، تتسع لتخزين 200 كتاب يستطيع صاحبها أن

يعدّل فيها كلّ لحظة، يلغي منها أو يزيد عليها متى شاء، يتنقل بينها كيفما شاء وأكثر من ذلك بكثير. لكن ما يتيح الكلام عن قفزة هو جملة من الميزات لم تتوافر من قبل في الأجهزة التي تحمل أيضاً اسم القارئ الإلكتروني والتي أنتجتها شركات أخرى، أبرزها اثنتان: الأولى، استقلالية تامة لـ «كيندل» عن الكمبيوتر وعن الاتصال بالإنترنت، أي أنه لا حاجة لمن يريد قراءة كتاب إلكتروني إلى أن يشتريه أولاً من خلال الإنترنت عبر الكمبيوتر، ثم ينقله إلى القارىء الإلكتروني. «كيندل» الذي يستخدم التكنولوجيا اللاسلكية يتصل مباشرة بمخزن الكتب الإلكترونية التابع للشركة الأم «أمازون دوت كوم». وبمجرد أن يختار صاحبه الكتاب الذي يريد من نحو مئة ألف كتاب متوافرة حتى الآن وعدد من كبرى الصحف والمجلات، تبثه له الشركة في دقيقة. أما الميزة الثانية، فتكمن في نوع الشاشة والحبر الإلكتروني الجديدين اللذين يجعلان الصفحة مشابهة لصفحة الورق وحبرها، بالأبيض والأسود كالكتاب، ويتيحان القراءة حتى في ضوء الشمس دونما لمعان في الشاشة.

ولعل في هاتين الميزتين ما يفسر الإقبال السريع على «كيندل». فمن أعتاد القراءة الإلكترونية أو من يؤمن بأنها طريق لمستقبل القراءة، يدرك للتو أنه أمام جهاز مختلف تماماً عما شاهد أو استخدم من قبل. ومن لديه فضول حيال ما تحققه التكنولوجيا من قفزات سريعة في حياة الإنسان سيفكر ملياً في جديد هذا الجهاز. أما من لا ينتمي إلى هاتين الفئتين، فلا يبدو مستعداً بعد لأن يدفع ثمن الجهاز 400 دولار، إما لاعتباره السعر مرتفعاً جداً، وإما نتيجة التردد في الاستثمار في جهاز لم تختبر شعبيته بعد، وهو من فئة المتريثين المدركين أن السعر سينخفض في السنوات المقبلة، ولا حاجة إلى الاستعجال لأن كل آت في التكنولوجيا قريب. وطبعاً لا نتحدث هنا بعد عن فئة عشاق الكتاب، هذا

الاختراع الفريد الذي نعرفه في شكله الحديث منذ ثورة غوتنبرغ منتصف القرن الخامس عشر. فهؤلاء لا يرون إمكاناً لإبداله بشيء أو هم غير مستعدين لتقبل فكرة أن تجتاحه أي تكنولوجيا.

أصحاب هذا الرأي كما المترددون في تقبل القراءة الإلكترونية على حق إلى حد كبير. فالكتاب الذي نعرف سهل الاستعمال، لا بطاريات ولا دليل مستهلك، نفتحه ونتنقل في داخله ونغلقه عندما نريد، نقرأه أينما نريد في المكتب أو في المنزل، في البرية أو في الطائرة، يرافقنا أينما تحركنا معنا ونحن نعمل جدياً ومعنا إذا استرخينا على الكنبة وحتى يرافقنا إلى الحمام. هكذا نحرك الكتاب على وتيرتنا ولا شيء يعكر صفو الاستمتاع به وبما نقرأ. فكيف يأتي الآن من يقول لنا: أنسوا هذا الكتاب فمستقبل القراءة، في مكان آخر؟

جف بيزوس مؤسس «أمازون دوت كوم» صاحبة مشروع «كيندل» لا يقول هذا تماماً في تصريحاته ومقابلاته التلفزيونية»، لكنه واثق من أن «كيندل» فيه مواصفات كتاب المستقبل. وليس مصادفة أن تكون الشركة اختارت له هذا الاسم وهو كلمة تعني إطلاق الشرارة أو الإشعاع، ذلك أن فكرة هذا الجهاز تنطلق من مجموعة عناصر أولها أن بيزوس نفسه قارئ نهم وثانيهما أن شركته انطلقت في 1995 متخصصة في بيع الكتب وثالثهما أن «أمازون» التي أدخلت الكتب الإلكترونية إلى موقعها لاحظت أنها لم تكتسب رواجاً فعلياً، مما يعني أن ثمة في أجهزة القراءة الإلكترونية المتوافرة ما لا يلبي حاجات القارئ. فبدأ التفكير قبل ثلاث سنوات في جهاز يطابق ميزات الكتاب الراهن من منطلق التسليم بأنه احتفظ بشكله هذا أكثر من خمسة قرون لأنه ببساطة «اختراع متكامل». وصار هذا هو التحدي: أن يكون «كيندل» مثل الكتاب وأن يتجاوزه في آن واحد فكيف جاء؟

«كيندل» بحجم كتاب صغير، مظهره رصين، يزن 292 غرام. الانتقال فيه من صفحة إلى أخرى يتم بالكبس على أحد «هامشي» الجهاز بما يشبه قلب الصفحة الورقية. ويمكن مستخدمه أن يختار بسهولة من «مكتبته» هذه الكتاب الذي يريد والفصل أو الصفحة التي يريدها منه. وأن يغير الحرف إذا لم يعجبه ويبرز أفكاراً أو كلمات، وأن يدون ملاحظاته في هوامش الصفحات وحتى أن ينظمها بحسب المعايير التي يختار. وإذا نسي أن «يطوي» طرف الصفحة كما يفعل عادة عند الانتهاء من القراءة في الكتاب الورقي، فالجهاز يحفظ له مكان توقفه ويأخذه إليه مباشرة عندما يعود. أما البطارية، فتخدم 20 ساعة ويمكن شحنها في ساعتين.

هذا في محاولة مطابقة الشكل، أما المميزات الإضافية، فلا تقف عند استقلالية الاتصال بمخزن الشركة وسرعة تحميل الكتاب بل تتجاوزها إلى الإطلاع على فهرس الكتب وتحميل الفصل المتاح القراءة مجاناً قبل الشراء وكذلك الأسعار المحفوظة للكتب. ثم هناك الميزات المبنية في الجهاز، يمكن القارئ أن يتنقل في القراءة بين الكتب وأن يجري أيَّ بحث فيها كلها في وقت واحد. وإذا أراد معرفة معنى كلمة ما، فلديه قاموس إلكتروني يضم 50 ألف كلمة. وإذا أراد مزيداً من المعلومات عن أي موضوع يمكنه دخول الموسوعة الإلكترونية «ويكيبيديا» مباشرة والبحث في صفحاتها البالغة 44 مليوناً.

وأكثر من ذلك، ينقل «كيندل» عدداً من الصحف والمجلات الرئيسية في أميركا مثل «النيويورك تايمز» و«الواشنطن بوست» ومن فرنسا «لوموند» ومن ألمانيا «فرانكفورتر ألغماينة» ومن إيرلندا «أيريش تايمز». ويؤمن الاتصال بنحو 250 من أبرز المدونات في عالم الأعمال والسياسة والرياضة والتسلية والتكنولوجيا.

وإلى سهولة الوصول إلى الكتب والمواد الأخرى، يمكن توسيع ذاكرة «كيندل» التي تستوعب 200 عنوان، بذاكرة إضافية، وتالياً يمكن المستخدم أن يتنقل بمكتبته هذه أينما شاء من غير أن يفكر في حجم الكتاب أو وزنه. ولا خوف من فقدان المحتويات، فهو قادر في أي وقت على أن يجدها في أرشيف مشترياته من مخزن «كيندل» ويحصل عليها مجدداً مجاناً. مواصفات تكاد تجعل «كيندل» بمثابة «فانوس سحري» للكتب. ما عليك إلا أن تحدّد الكتاب الذي تريد و«شبيك لبيك كيندل بين يديك».

لكنه ليس فانوساً سحرياً للجميع بعد، فالكتب المتوافرة على «كيندل» في الوقت الحاضر، كما قال لـ «النهار» مدير العلاقات العامة في «أمازون دوت كوم» أندرو هيردنر، هي بالإنكليزية فقط ومجال استخدامه بميزة اللاسلكي هو الولايات المتحدة وحدها. وهذا يعني أن تحميل الكتب لا يمكن أن يحصل إلا في الولايات المتحدة بينما يمكن استخدامه خارجها كجهاز للقراءة فقط، لكن رؤيا المشروع للسنوات المقبلة هي تأمين أي كتاب مطبوع بأي لغة أينما كان وسواء أكان متوافراً في السوق أم لم يكن.

والواقع أن هذه النواقص اليوم، والتي يمكن أن تتجاوزها الأجيال المقبلة من أجهزة القراءة الإلكترونية، لا تقلل القيمة النوعية التي يضيفها «كيندل» إلى مفهوم الكتاب وتسهيل وصول الناس إليه بل إلى تغيير مفهوم القراءة من حيث توسيع آفاقه.

ولا شك في أن هذا سيثير انتقادات واسعة جداً ومقاومة لجهاز يدعي أصحابه قدرته على الحلول محل الكتاب، أي أنه سيسلب عشاق الكتاب عادة يقدسونها وصديقاً لا يتخلون عنه ولا يتخلى عنهم. جهاز

بحجم كتاب صغير سيفقد مكتباتهم الشخصية أهميتها، بل قد يحولها تدريجا آثاراً، وهم الذين أمضوا حياتهم يجمعونها ويقدرون كل كتاب يضاف إليها ويتغنون بها كلما اتسعت واجتاحت الرفوف جدران منازلهم. مكتبات هي بما تعرضه دلالة على عمق ثقافة أصحابها، يتباهون باحتوائها النادر والنفيس أو القديم والجديد، هذه الطبعة أو تلك من هذا الكتاب أو ذاك.

لهؤلاء نقول مهلاً، الكتاب لم يمت ولن يموت، الكتاب يتغير ففي زمن التكنولوجيا الرقمية يتحول الكتاب رقمياً قد يكون قبول التغيير بطيئاً وصعباً وحتى مرفوضاً لدى كثيرين لأن الحقبة التي سادها الكتاب الذي نعرف طالت أكثر من خمسة قرون، لكنها تبدو الطريق الحتمية عاجلاً أم آجلاً.

هذا هو الحال مع التغييرات الكبرى، التغييرات الجذرية لا تحصل عادة إلا مع معارضة واسعة. ولنتذكر ما حصل مع ثورة غوتنبرغ للطباعة منتصف القرن الخامس عشر في أوروبا. حتى ذلك الحين كانت الوسيلة الوحيدة لنقل الكتاب، هي النسخ اليدوي وغالباً ما كان رجال الدين يتولون هذه المهمة. كتب جميلة ومزخرفة وفيها جهد بشري كبير، لكن إنتاجها بطيء ولا يسمح إلا بعدد محدود من النسخ لا يستطيع أن يمتلكها سوى النبلاء والأغنياء والكنيسة. وهكذا كان الحال أيضاً خارج أوروبا، الكتب الوحيدة هي المخطوطات، وما أن سرت أخبار الاختراع الجديد حتى قامت معارضة شديدة له وصلت إلى حد المناداة بمنع هذه البدعة. ولم تحقق الكتب المطبوعة في البدايات أي رواج أو شعبية في أوساطها التقليدية، بل حتى مطلع القرن السادس عشر كان لا يزال كثيرون يرفضون وضعها في مكتباتهم لئلا تحقر قيمة المخطوطات والكتب المنسوخة التي يملكون.

ولكن على المستوى الشعبي حقق اختراع غوتنبرغ تدريجاً اختراقاً كبيراً، إذ وضع الكلمة المكتوبة في متناول الناس وأخرجها من احتكار الأغنياء والكنيسة. وتلك كانت الثورة ثورة غيرت مفهوم الكتاب بأن جعلته متوافراً لفئات كانت محرومة إياه، فاتسع نطاق تداول الأفكار، وغيرت مفهوم القراءة، فبعدما كانت شفهية عامة صارت صامتة شخصية، وتدريجاً أيضاً ازدادت نسبة المتعلمين وحصلت الثورة في التعليم.

على أن مثل هذه المعارضة لم تكن إلا رد فعل طبيعياً، فالخوف من أن يطيح الجديد المألوف بسلوكٍ قديم جداً لدى الإنسان وغالباً ما يتجسد بنمط واحد: مقاومة في البدايةً، ثم تأقلم، ثم قبول وأخيراً يصير التعامل مع الجديد على أنه من المسلمات.

وهل من حاجة إلى استحضار أمثلة من التاريخ فيما مقاومة استخدام الكمبيوتر لا تزال حية في ذاكرتنا، وكذلك إلصاق كل السيئات بهذه الآلة، التي قيل إنها ستصادر عمل الإنسان وتضعف ذاكرته وتقتل مخيلته وتجعله مجرد مشغل لها؟ هل من حاجة إلى أن يتذكر أصحاب مهنة الكتابة كم قاوموه وسيلة للكتابة وتوعدوا بأن أحداً لن يسرق منهم تلك العلاقة الحميمة مع القلم؟ كل هذا أخذ يتلاشى أمام حسنات الكمبيوتر والهامش الكبير الذي أضافه إلى نوعية الكتابة. وكذلك كان الخوف من الهاتف الخليوي في بداياته. وقبل هذا وذاك الكثير الكثير، من الكهرباء إلى الترانزيستور إلى التلفزيون وغيرها.

أما الوجه الآخر لأي اختراع تكنولوجي جديد فيكمن في حقيقة أن لحظة حصوله تعد بتغييرات معينة. ولكن غالباً ما يصعب تحديد الحجم الحقيقي للتغيير ومداه، هكذا حصل مع اختراع غوتنبرغ الذي غير وجه العالم وهكذا يحصل منذ بدايات الثورة الإلكترونية.

ولنأخـذ مثلاً آخر هو اللايزر، فعندما عرض للمرة الأولى في 1960، قيل إنه سيحدث ثورة في أنظمة التصوير، لكن أحداً لم يتخيل النطاق الممكن لاستخدامه. فهو اليوم مثلاً يستخدم في نقل معظم إشارات الهواتف والتلفزيونات في العالم، ثم يكفي لإدراك حجم التطور التكنولوجي أن تفكر لحظة في ما أحدثه الهاتف الخليوي والإنترنت والبث الفضائي. في فترة وجيزة جداً صرنا متصلين بالعالم أينما كنا وفي أي لحظة وصارت المعلومات بين أيدينا على مرمى كبسة زر. وبات يصعب علينا أن نفكر في أننا لسنا كذلك، بل إن كمّ المعلومات التي في استطاعتنا الحصول عليها عبر الإنترنت هائل وفي أي موضوع نريد، سواء أتعلق الأمر ببحث نجريه أم ببضاعة ـ أيا تكن ـ نريد شراءها أم بأي تفصيل آخر يمكن المرء أن يفكر فيه.

هكذا يحصل التطور. اختراع يفتح الطريق أمام اختراعات أخرى، تعجبنا أو لا تعجبنا، نقاومها أو نتقبلها، نتعايش معها أو نرفضها، لكنها لا تتوقف. وفي النهاية نلحق بها، ومن يجد صعوبة في ذلك فلا حرج عليه. ذلك أننا نعيش في ظل الثورة الإلكترونية وتيرة سريعة جداً من التغيرات لا تشبه إطلاقاً وتيرة التغييرات في الماضي. فالسفن ذات المحركات البخارية مثلاً احتاجت إلى فرن لتحل محل السفن الشراعية، وكذلك احتاجت الكهرباء إلى بضعة عقود لتبدأ بالانتشار. والحال كذلك مع التلفون. أما في عصرنا فإن التغييرات متسارعة ومتلاحقة وجذرية إلى حد أنها باتت تبدل في فترات قصيرة مفاهيم كثيرة في المعرفة عموماً وفي العلوم والطب والصناعة والزراعة والتجارة وغيرها. ولعل أكثر ما يتفاعل معه الناس هو الإعلام الذي لم يعد يشبه شيئاً من الإعلام الذي عرفه جيلنا وكبر عليه.

فهل نحن في حاجة إلى أن نتذكر متى دخل التلفزيون حياتنا وكيف كان محدوداً لينتهي بنا الأمر عبر الفضائيات وعبر المواقع الإخبارية على الإنترنت إلى أن نعيش أي حدث في العالم بالصوت والصورة لحظة بلحظة أينما كنا؟ أم نحن في حاجة إلى أن نتذكر أيام التراسل بالبريد العادي بعدما ألغى البريد الإلكتروني والرسائل القصيرة عبر الهاتف الخليوي أي مسافة في المكان والزمان؟

ولنأخذ الموسيقى مثلاً. فمن لا يعرف الفونوغراف لا شك في أنه سمع عنه أو شاهده قطعة أثرية في مكان ما ثم الأسطوانات القديمة التي أخذت تصغر وتصغر إلى أن حلّت محلها الأسطوانات المدمجة والـ «دي في دي». وواصلت الثورة الرقمية تغيير مفهوم الموسيقى، إن من حيث تسجيلها أو نقلها أو الاستماع إليها فكان الـ «أم بي 3»، ثم الـ «آي بود»، وصار في إمكاننا أن نضع مكتبتنا الموسيقية كلها في جهاز صغير جداً وأنيق، ونحملها ونسمع ما نريد أينما كنا ونضيف إليها أي جديد مباشرة عبر الانترنت وقت نشاء. بل حتى بتنا قادرين في بعض الهواتف الخليوية مثل «آي فون» على أن نضع هذه المكتبة الموسيقية بكاملها فيه إضافة إلى وظيفته الأساسية في التهافت والتراسل بالبريد الإلكتروني والاتصال بالإنترنت وغير ذلك. ولا يختلف التطور الذي لحق بالفيديو والأفلام عن الموسيقى.

والكتاب ليس استثناء، لعل الثورة الرقمية لم تصله بالسرعة التي وصلت بها إلى غيره لأن له خصوصية وميزات يصعب منافستها، وهذا متعارف عليه. ولكن فلنعترف أن التكنولوجيا غيرت حتى الآن تدريجياً الكثير في ما يخص الكتاب والقراءة.

فهي ألغت مثلاً أي قيمة فعلية لبعض أنواع الكتب الورقية مثل

الموسوعات والقواميس. وحتى لو تجاوزنا ما أدخلته إليها من تحسينات مثل تسهيل البحث وسرعته، يكفي أن المساحة التي تحتاج إليها الأسطوانات المدمجة الخاصة بالموسوعات لا تساوي مساحة بضع صفحات من الموسوعة الورقية.

وهي غيرت علاقة القارئ ـ وإن ليس كل قارئ بعد ـ بشراء الكتاب ـ فالمواقع الإلكترونية الخاصة ببيع الكتب التي يتزايد عددها يوماً بعد يوم سهلت العملية بأن أتاحت للمشتري ما تتيحه له المكتبات العادية من إطلاع على محتويات الكتاب وقراءة أقسام منه. لكنها أضافت عناصر جذابة مهمة مثل الاطلاع على كل المراجعات التي كتبت عنه وآراء بعض القراء فيه، إضافة إلى القدرة على مقارنة الأسعار بين موقع وآخر، علماً أن المواقع الإلكترونية تعرض الكتب مع حسومات من أسعارها غير متوافرة في المكتبات حتى لو كان الموقع للمكتبة نفسها. وغيرت أيضاً عبر الإنترنت طريقة تفاعل الباحث أو القارئ مع النصوص وكذلك مع فكرة الوصول إلى المعلومات والقدرة على الاستفادة منها.

ثم إن جيل الشباب اليوم هو عملياً جيل الثورة الرقمية ويتعامل مع الكمبيوتر والقراءة على الشاشة ببساطة ولو تفاوتت نسبتها. شبيهة إلى حد كبير ببساطة تعامل أهلهم ومن سبقهم مع الكتاب الورقي. بكل هذه المعاني يحصل الانتقال إلى القراءة الإلكترونية تدريجاً لدى كثيرين من مستخدمي الإنترنت إلى أي فئة عمرية انتموا. وثمة من انتقل فعلاً، ولاسيما من الشباب. ولن يكون الأمر إلا تلقائياً مع أولاد اليوم. حاولوا أن تخبروا ولداً مثلاً أنكم عشتم طفولتكم مع التلفزيونات بالأبيض والأسود وأن عدد القنوات فيها لم يتجاوز في أحسن الأحوال أصابع اليد الواحدة.

حاولوا أن تخبروه أن الكاميرات كانت تعمل بأفلام تحتاج إلى تظهير قبل أن يرى الصورة كما يراها اليوم في لحظة التقاطها بالكاميرات الرقمية أو أن وجود الـ «آي بود» ليس حاجة ماسة في جيبه. بل حاولوا إقناعه بأن الكمبيوتر لم يكن متوافراً قبل 20 سنة وأن وسيلة التعلم كانت الكتاب وحده ولا وجود لكل هذه البرامج التعليمية التفاعلية الخاصة بالأولاد على الكمبيوتر ناهيك بالألعاب. حاولوا، وإذا لم تسمعوا شهقات الاستغراب وعدم التصديق أو التشكيك بل الاستخفاف بكل ما تقولون، فاقرأوا تعابير وجهه لتدركوا كيف يمكن الإنسان أن يقطع المسافات التي يخشاها أو يظن أنها بعيدة جداً عنه.

ولكن هل يعني هذا أن الكتاب الورقي سيختفي؟

على الرغم من ثورة التكنولوجيا الرقمية وما حققت في هذا المجال وما تعد بتحقيقه، يبدو أن الكتاب الورقي سيبقى بلا منافس جدي فترة حتى مع تزايد مبيع أجهزة القراءة الإلكترونية، لأن هناك من لا يريد التخلي عنه، أو من يرفض اعتياد الإلكترونيات في هذا المجال، أو ببساطة من لا وصول له إليها، وهؤلاء جميعاً يشكلون غالبية الآن. هذا ما يدركه بيزوس نفسه «ولكن لا يجوز الاعتقاد أن طباعة الكتب على ورق شجر ميت هو الخطوة الأخيرة في تطور صناعة الكتب، ففي القديم ثمة من اعتقد أن ورق البردى هو النهاية».

شئنا أم أبينا، سيلحق الكتاب بتحديات التكنولوجيا والتكامل مع تكنولوجيا التلفزيونات والهواتف الخليوية. ففي اليابان مثلاً بدأت «روايات الهواتف الخليوية» بالرواج بعدما صارت الرسائل القصيرة عبر الهاتف غير محدودة المساحة. وبذلك يرسل المؤلف أجزاء من النص كلما أنجز كتابتها. واللافت أن خمسة من أصل الكتب العشرة التي

صنفت الأكثر مبيعاً في اليابان مطلع هذه السنة كانت «روايات هواتف خليوية».

هذه إشارة واحدة فقط ليس إلى التغيير في مفهوم الكتاب فحسب، بل مفهوم القراءة وحتى الكتابة والنشر، والأكيد أن هذه الصناعة ستشهد اختبارات كثيرة، خصوصاً أن عدداً من دور النشر بدأ يخوضها. وثمة دور عدة تتعاون مع «كيندل» لأنها، كما أوضح بيزوس، تعرف أين يتجه مستقبل الكتاب والنشر.

ففي النهاية توفر هذه التكنولوجيا تسهيلات اقتصادية وعملية كبيرة جداً لدور النشر وخصوصاً من حيث الحد من استخدام الورق الذي تشهد كلفته ارتفاعاً متواصلاً، إضافة إلى خفض استخدام الحبر والصمغ أو خياطة الكتب وكل الحسابات المتعلقة بأماكن تخزين الكتب ومساحات عرضها، ويلحق بهذا أيضاً عدم قلق دور النشر من إصدار كتاب لا يبيع واطمئنان المؤلف نفسه إلى أن كتابه لا ينفد من السوق.

متى يحصل هذا التغيير؟ إنه في طور الحصول وإن بدا بطيئاً مقارنة بالتغيير في الموسيقى مثلاً. فالعالم لا يزال في العقود الأولى للثورة الرقمية بعد حقبة من قرون ساد فيها اختراع غوتنبرغ، الكتاب الذي نعرف سيبقى إذاً في الأسواق فترة يصعب تحديدها اليوم. ولكن فلنبق في أذهاننا أمرين: الأول أن العالم يسير في هذا الزمن بسرعة الثورة الرقمية حتى لمن لا يستخدم الإنترنت، والثاني أن سهولة الوصول إلى المعلومات والإحاطة الشاملة المتاحة بأي موضوع تبقى الجزء الأكثر أغراء في المعرفة وانتشارها. هذا في النهاية هدف الكتاب، وهذا ما يعد الكتاب الرقمي بفتح آفاق جديدة أوسع له.

المكتبة الإلكترونية:

في كتابه «ثورة الانفوميديا»[1] كتب فرانك كيلش: «يوشك جميع ناشري وسائل الإعلام الورقية أن يخوضوا غمار مرحلة شديدة الاضطراب. وأقرب تلك التهديدات موجّه لناشري المراجع. وبالفعل فقد بدأت موسوعات مثل الموسوعة البريطانية Britannica في مواجهة ضغوط من جانب دخلاء جدد إلى ميدانها الذي انفردت به من قبل، وهو توثيق وحفظ المعرفة.

لقد حان الوقت للاستغناء عن الموسوعات التي تتخذ شكل كتاب والاستعانة بالوسائل الإلكترونية الحديثة. فتلك الموسوعات الورقية مرتفعة الثمن وضخمة وصعبة الاستعمال، حيث تضع قيوداً على كيفية تسجيل محتوياتها وإتاحتها لمستخدمها. فالوسيلة الوحيدة المتاحة لعرض المعلومات هي الكلمات والصور، ويخلو عالم الوسائل الإلكترونية من مثل تلك القيود.

ويمكن تخزين موسوعة كاملة على أسطوانة مدمجة واحدة (أو على أسطوانات إذا كانت الموسوعة ضخمة)، ويعود قدر كبير من تكلفة الموسوعات التقليدية إلى تكلفة طباعة وتجليد وتوزيع هذه الأعمال الضخمة، أما في حالة وضع الموسوعة على أسطوانة مدمجة فيمكن إعادة إنتاجها مقابل دولار واحد تقريباً. وعندما يصل طريق المعلومات فائق السرعة إلى المنازل، فلن تكون هناك حاجة إلى الأسطوانات المدمجة، وسوف يكون بمقدور مستخدمي الكمبيوتر الشخصي، والتلفزيون التفاعلي الوصول إلى المعلومات التي يريدونها، حيث

---

(1) فرانك كيلش، ثورة الأنفوميديا، عالم المعرفة، الكويت 2000، ص 411-413.

ستربطهم الشبكة بمكتبات إلكترونية ضخمة من المراجع. وقد بدأت الإنترنت وموردو المعلومات الآخرون مثل Compuserve بالفعل في اتخاذ مواقع الريادة للتغييرات القادمة.

والمراجع يصعب نقلها، فهي ليست كالروايات والمجلات والصحف، إلى جانب أنها تشغل مساحة كبيرة على الأرفف في المكتب أو المنزل. ومن غير المعقول أن يصطحب أحدنا مكتبته الهندسية أو التجارية في رحلة عمل تحسباً لاحتمال البحث عن معلومة ما، بينما إذا احتفظ بأسطوانة مدمجة في حقيبة أوراقه للرجوع إليها خلال رحلته، سيبدو الأمر أسهل كثيراً من الناحية العملية، وهنا تظهر ميزة سهولة النقل حقاً.

غير أن الميزة الكبرى هي القدرة على صياغة المعلومات في أشكال جديدة وسهولة الوصول إليها. أو ليس من الرائع أن نرى لقطة سمعية بصرية لحيوان يصحبها تعليق بدلاً من مجرد النظر لصورة في كتاب؟ أو لا تمثل لقطة فيديو عن أنواع القطارات المختلفة أو عن جولة سياحية في أستراليا تطويراً وتحسيناً لصفحات من الوصف والصور؟ إن الورق لا يمكنه أن يمنحنا الإحساس نفسه بالواقعية أو يقدم نطاقاً واسعاً من المعلومات للمستخدم، وذلك لأنه لا يوجد ما يعادل الخبرة السمعية البصرية.

إن تصوير أو نسخ صفحات عدة من الورق ليتطلب جهداً كبيراً. ولكن الأمر جد مختلف مع النسخة الإلكترونية حيث تكون الموسوعة في شكل رقمي Digital بالفعل، ويمكن استخدام مقص أو قلم، إذ يمكن عمل كل ذلك على الشاشة، وفي هذه الحالة يكون المنتج النهائي مطابقاً للمادة الأصلية سواء أكان تقريراً أو واجباً منزلياً.

وعلى الرغم من احتواء الموسوعات على كمّ كبير من المعلومات فإنها تتيح طريقة واحدة للوصول إليها. وربما كان الفهرس أكبر من الموسوعة نفسها إذا كان متضمناً للأشكال المختلفة التي تربط المعلومات مع بعضها البعض. ولنفترض أننا نحتاج إلى معلومات متنوعة عن الصين فسنجد قسماً يتضمن معلومات عن جغرافية الصين وآخر يتناول الصناعة وثالثاً عن الموانئ أو الحياة البرية. ويعد الفهرس الورقي وسيلة رديئة لإحالة الأجزاء إلى بعضها بعضاً. أما الموسوعة الإلكترونية فتقدم معلومات شاملة ومتنوعة بالطريقة التي نختارها. فيمكننا أن نبحث عن جميع الثدييات ذات الفراء في أمريكا الشمالية أو عن كل السلالات المعرّضة للانقراض في الهند، ويمكننا أن نجد معلومات عن جميع الأشجار ذات الأوراق المتساقطة في إنجلترا. وتتعدد إمكانات مزج ومواءمة Mix and Match Capability المعلومات بأساليب لا حصر لها، إلا أن الموسوعات الإلكترونية في الوقت الحالي لا تزال ذات إمكانات محددة في هذا المجال، ولكن قدرات الخلط والمواءمة سوف تتحسن بتطور الوسيلة نفسها.

إن الموسوعات الورقية لا تستطيع منافسة موسوعات الوسائط المتعددة نظراً لصغر حجمها وسهولة نقلها. وتتميز موسوعات الوسائط المتعددة بغزارة الوصف وتعدد فوائدها والتنوع حيث يمكن الوصول إلى المعلومات بسرعة وسهولة. وكذلك يمكن إعادة إنتاج ذلك النوع الجديد من الموسوعات مقابل تكلفة ضئيلة جداً، مقارنة بتكلفة نظيراتها من الموسوعات الورقية التي سرعان ما ستصبح مجرد أثر.

ويوجه عمالقة النشر التقليديون من أمثال ناشري الموسوعة البريطانية تهديداً ليس مصدره المنافسون التقليديون الذين يتعاملون في

المنتجات الورقية، ولكنه يأتي من جانب الشركات التي تأخذ بأسباب التكنولوجيا بما يتماشى مع صناعة النشر.

خصائص النشر الإلكتروني

يتميز النشر الإلكتروني بعدة خصائص بعيداً عن المقارنة مع النشر الورقي هي[1]:

السرعة: سواء كان هذا النشر عبر البريد الإلكتروني أو عبر المنتديات عبر مجموعات بريدية أو عبر صحف إلكترونية سواء كان هذا النشر يقوم به الكاتب مباشرة عبر مشاركته بنفسه أو عبر إرسالها إلى هيئة تحرير الصحيفة الإلكترونية. إن هذا النشر يكون آنياً أو بعد قليل من الزمن، وهذا فيه إعلاء لقيمة الوقت من ناحية واستجابة لسرعة الحياة ذاتها، فالزمن الذي أصبح متسارعاً بشكل لم يعد مألوفاً بحاجة إلى وسيلة اتصال تستجيب لهذا التسارع. فكانت شبكة الإنترنت حلاً منسجماً ومستشرفاً في آن للتغيرات الحاصلة على الأرض.

التفاعلية: يتيح النشر الإلكتروني التفاعل بشكل آني مع المادة المنشورة سواء عبر إرسال تعليق إلى الناشر أو الكاتب عبر البريد الإلكتروني أو عبر إدراج تعليق ـ قراءة ـ نقد ـ تصويب... إلخ، في مكان النشر ذاته أو عبر مراسلته على البريد الإلكتروني الذي أصبح مرفقاً بالاسم غالباً في النشر الإلكتروني. وكما يستطيع الكاتب والقارئ أن يعرف عدد زوّار هذا الموقع من خلال عدد الزوّار التراكمي الذي تثبته بعض المواقع مما يعطي فكرة عن قراء هذا الموقع أو ذاك.

---

(1) أحمد الماجد، مجلة الفنون، كانون الثاني 2007.

إلغاء المكان: وتتيح هذه الخاصية في النشر الإلكتروني إلغاء حاجز المكان ليتحول العالم كله إلى خارج الجغرافيا، أو ليدخل في جغرافيا صغيرة هي جهاز الكمبيوتر الذي يستخدمه المتعامل القارئ ـ الكاتب ـ المتلقي ـ آخر، وينتج عن هذا النفي للمكان توليد خصائص للحيز الجديد لا تشبه خصائص المكان الجغرافي، ففي المكان الجديد لا يوجد تجاوز وتباعد، لأنها تقوم على المسافة والمسافة في الحيز الجديد طمست لمصلحة العنوان فقد أصبح العنوان هو الحيز الجغرافي الجديد.

كسر حاجز المعلومات: إن ما يبيحه النشر الإلكتروني من تعميم المعلومة لا سابق له في تاريخ البشرية. إذ أصبح كل مستخدم للإنترنت مالكاً لكل المعلومات التي يريدها، وألغى هذا أهمية الكتابة التي كانت تستخدم المعلومة لتقدم مادة لا أهمية لها خارج الكشف عن هذه المعلومة. كما أنه ساهم وبشكل أساسي في جعل الموسوعات والببلوغرافيات والانسكلوبيديا متنقلة مع القارئ الكاتب أينما حل.

كثرة النشر: إن ما أتاحه الإنترنت بجعل كل مستخدم لجهاز الكمبيوتر ناشراً أدى إلى انفجار هائل في عدد مواقع النشر. وإذا كان لهذا أهمية قصوى في تجاوز «بيروقراطية النشر الورقي» وحدوده فإنه خلق أيضاً صعوبة في الاختيار، إلا أن هذه الصعوبة سرعان ما تتلاشى بعد خبرة قصيرة في التعامل مع الإنترنت ليخلق كل متعامل مفضلته التي تنتج حيزاً قرائياً خاصاً به، تماماً كما هي التفضيلات القرائية الخاصة بالنشر الورقي، فأنت تقرأ هذه الجريدة أو هذا الكتاب ولا تقرأ هذه أو ذاك، ويصبح الفرز حينها خاصاً بالمتعامل مع الشبكة.

خصائص أخرى نتاج الكمبيوتر : لا يمكن فصل الإنترنت عن الكمبيوتر والإمكانات التي أتاحها للنشر، فأحد أهم المفاهيم التي كرسها الكمبيوتر مفهوم التراجع الذي هو تثبيت لإظهار المحو، فأصبح الأمر يحتاج إلى ضغطة واحدة للتراجع عن المحو، وعدا الخاصية الذهنية التي يولدها هذا المفهوم فقد أصبح التراجع سهلا ويتيح لك استعادة المحو أو تثبيته.

ومن مزايا النشر الإلكتروني أيضاً :

ـ إمكان النشر بالتعاون والتفاعل بين المؤلف والقارئ مباشرة.

ـ يمكن للنشر الإلكتروني أن يكون على شكل صور إلكترونية.

ـ يوفر النشر الإلكتروني سهولة كبيرة في تحديث وتصحيح المعطيات، لا يمكن تحقيقها في النشر التقليدي.

ـ السرعة بإرسال المادة (الأدبية أو العلمية أو غيرها) إلى مختلف أنحاء العالم، وتوفير نفقات الطباعة والتوزيع والبريد والشحن.

ـ يوفر إمكان البحث والاسترجاع والوصول إلى المعلومات المطلوبة في الوثائق بسرعة كبيرة.

أما أبرز عيوب النشر الإلكتروني فتتلخص في ما يلي:

ـ لا يستطيع الفرد قراءة النصوص الإلكترونية في كل الأمكنة، بعبارة أخرى فإن قراءة النصوص الإلكترونية تتطلب معدات وتجهيزات خاصة.

ـ مشكلة اللغة حيث إن ثلثي قواعد البيانات المتاحة على الخط

المباشر متوافرة باللغة الإنكليزية. حيث إن توافر النصوص الإلكترونية بلغة لا يعرفها القارئ تظل كما لو أنها غير موجودة أصلاً.

ـ صعوبة القراءة لفترات زمنية طويلة من شاشة الكمبيوتر المتعبة للبصر.

ـ احتمال فقدان المواد والتلاعب بها وتغيير التحكم بوصول المعلومات.

ولا تزال الأشكال المختلفة من التطور المعلوماتي، وكذلك السينما والفيديو والتلفزة والإنترنت تؤثر سلباً في حركة الأدب وانحسارها، وذلك لتوفيرها وسائل وأدوات متقدمة. ومع هذا، يعتبر الإنترنت مساهما فعالاً في انتشار أعمال الأدباء والكتّاب والشعراء... فما عليك الآن سوى أن تنقر للدخول إلى أحد المواقع الأدبية لتقرأ نصوصاً ومقالات ودراسات وأخباراً لكمّ هائل من الكتّاب... لقد نجحت هذه المواقع إلى حد ما في تأسيس قدر من التواصل بين الأدباء العرب... وكذلك تعد مصدراً لا يستهان به للباحثين والمختصين في مجال الأدب، إذ تضم أرشيفاً للصور، ومركزاً للوثائق وأصبح لها رواد منتظمون من نقاد وأدباء وكتّاب... كما أصبحت هذه المواقع مصدراً مهماً للصحافيين بمتابعتها المهرجانات الأدبية العربية والعالمية. وأمسى لها مراسلون من أرجاء الوطن العربي، ومؤخراً استقطب أسماء لامعة في الأدب العربي من خلال المنتدى الذي يحقق الآن واحداً من أهم أهداف المواقع، فعلى صفحاته يناقش القائمون على المهرجانات أمور مهرجاناتهم، ويوجهون الدعوات إلى أدباء أو مؤسسات أو شخصيات بعينها، هذا بحد ذاته تواصل حقيقي.

وختاماً... وعلى الرغم من جميع الإمكانات والتسهيلات التي يقدمها أسلوب النشر الإلكتروني للعمل الأدبي... يبقى النشر الورقي هاجساً مؤثراً في ذهن الكاتب والمبدع في فنون أدبية كثيرة، يرتبط بعلاقات حميمية تجمعه مع التقليد والعفوية والتناول المفضي إلى ذائقة متوازنة مع المنجز الأدبي. فمع تحول الأدب الجديد نحو استلهام معطيات النشر الإلكتروني، وقنواته المتعددة في مجال الترويج للمنجز المعرفي نرى الكتاب التقليدي وقد أصبح مرتبطاً بالوجدان العربي، فلم تتغير هذه الحميمية التي ظلت لمئات السنين حتى جاء هذا التحول، ليصبح الكتاب أو النشر الورقي في مهب رياح التغيير والتحول، حتى تولد على صورة ما يعرف الآن بالنشر الإلكتروني... ومهما تعددت الطرق وتغيرت السبل يبقى فعل الكتابة ذاته في جوهره وفي غاياته القصوى... فالكتابة تدوين وتخزين للمعلومات، وتسجيل للوقائع الحية، واختبار للمشاعر والأفكار، سواء كتبت على الورق باليد والقلم أو على المطابع، أو الآلات الكاتبة التقليدية، أو تحولت بفعل أزرار لوحة مفاتيح الكمبيوتر إلى عمل إلكتروني قابل للنشر.

جان ـ نويل جانيني[1]: . . . الكتاب جند الإنترنت لخدمته

من الصفائح الطينية وصولاً إلى الإنترنت، مغامرة تخللتها تقلبات كثيرة. وقد شكلت الكتابة امتداداً للإنسان أطلقته على مساحة الكون، ولكن يحكى اليوم عن أن الكتابة في طور الاحتضار، إذ تكاد تقتلها الصور والشاشات. «هدوء!» صرخة مطمئنة أطلقها جان ـ نويل جانيني رئيس المكتبة الوطنية في فرنسا، وأطلق المشروع الأوروبي لتسجيل

(1) حوار دومينيك سيمونيه، أكسبريس، فرنسا.

المؤلفات الأدبية في نسخ رقمية، وواضع كتاب «عندما يتحدى غوغل أوروبا». وقد حمل إلينا صاحب الذهن المتيقظ هذا نبأً ساراً: أيام الكتابة المقبلة سعيدة وأيام الكتاب أيضاً.

عرف تاريخ الكتابة خلال خمسة آلاف سنة، أي منذ عهد الكتابة السومرية، أكثر من تحول جذري، فهل يحقق الإنترنت في عصر النصوص المعولمة والرقمية، ثورة تعتبر الأكبر؟

إنه ابتكار يوازي اختراع المطبعة أهمية، وهو لم يغير أوجه توزيع الميراث الثقافي فحسب، بل تصرفات البشر وممارساتهم اليومية ورغباتهم أيضاً، فكلما ظهرت وسيلة جديدة للاتصال تبدّى معها الخوف من أن تقضي على سابقتها. لكن غوتنبرغ لم يلغ الكتابة اليدوية، والصحافة المكتوبة لم تنته مع نشوء المحطات الإذاعية... فضلاً عن هذا، أنا لا أعتقد أن نشوء التكنولوجيا الرقمية سيحدث انقطاعاً في تاريخ الكتابة، لذا أرى أن أشكال الكتابة المختلفة ستتعايش لتبقى أبداً.

هل سيلقى الورق المصير نفسه؟

لم يحافظ الورق على مكانته فحسب، بل حقق تقدماً فلو كنت مستثمراً في البورصة، لاشتريت بالتأكيد بعض الأسهم في شركات صناعة الورق! لكن السؤال الكبير يتمحور حول كيفية حفظه فالورق قابل للعطب أكثر من الصفائح، ونحن ننفك نعمل في مختبراتنا على تحسين المواد التي تدخل في تركيبته، كما نسعى إلى تحسين نوعية الحبر، وفي هذه الحال، تأتي الأجهزة الرقمية وسيلة لإنقاذ الكتاب، وهنا أكرر أن الكتاب لن يزول مثل المحراث القديم، للكتاب شخصية لا تملكها الشاشة، إذ تتولد لدى القارئ لذة كبيرة عندما يتصفح أوراقه، كذلك

يملك الكتاب ميزة في ما يتعلق باستخدامه، هي السرعة في تصفحه مقارنة مع نصوص الكمبيوتر.

ما هو إذاً الاستخدام الصحيح للإنترنت؟

يسمح الإنترنت بنشر الثروات الكتابية المتراكمة عبر العصور لتصبح بمتناول الجميع. لكن كيف يمكن تنظيم هذا الكمّ من المعارف ونشره؟ فمحرك البحث «غوغل» يجمع في آن واحد بين القدرة على جمع كل المعلومات في العالم من جهة، وغياب مخيف لأي نوع من النظام من جهة أخرى. إنها مملكة «الفوضى»: تأتي المعلومات على غير هدى، ما يذكرنا بما قاله سيرانو تحت شرفة روكسان: «سأنثر (كلماتي في الحب) يمنة ويسرة، لن أجمعها في باقة واحدة». الباقة تشكل إطاراً يعكس الترابط. والترابط وحده يؤدي المعنى. يستحيل إنشاء مكتبة كونية، فمنذ غوتنبرغ، تم طبع ما يزيد عن مئة مليون مؤلف في الغرب، فكيف يتم الاختيار بينها؟ ومن سيحدد تراتبيتها من أجل عرضها على شبكة الإنترنت؟ فعلى هذه الشبكة، تتم مراجعة الإجابات الأولى التي يقدمها محرك البحث على لائحة نتائج البحث بشكل حصري، فتحصل هذه الأجوبة على امتياز، لكن المفارقة وهي أن «غوغل» ينتمي إلى بيئة أميركية تتحكم باختيار الكتب وسبل عرضها، لا تدفعها إلى ذلك نزعة إلى فرض ديكتاتورية ثقافية، بل مجرد عادة، أو نظرة إلى العالم (مع التشديد على وجود نظرات إلى العالم تختلف عن النظرة الأميركية).
الخطر الثاني هو تماشي «غوغل» مع منطق السوق وهو منطق خوارزمي ممكن ويعتمد على التراتبية، طريقة عمل «غوغل» سرية تماماً مثل وصفة مشروب الكوكا كولا. ولكننا نعرف أنه يعطي الأولوية للمواقع

التي تملك العدد الأكبر من الصلات مع مواقع أخرى. كما أنه يدعم المواقع التي حققت نجاحات على حساب تلك الجديدة أو الأصغر حجماً، ويكون الكتاب الذي حقق نسبة عالية من المبيعات مرشحاً لتحقيق أرقام عالية جديدة.

وللإعلان دوره أيضاً.

يتمثل دور الإعلان في تنظيم العرض. ويتم بيع المساحات الدعائية عبر مزادات علنية، ما يدعم الشركات الكبيرة على حساب الشركات الأصغر حجماً ويهدد بإنشاء شعبوية ثقافية من خلال منتجات متدنية القيمة. من الآن فصاعداً ستكون الجهة الراعية لكتاب la Recherche Du Temps Perdu القيّم شركة متخصصة بتصنيع الحلويات! إن هذا النظام يعطي الأولوية للذين بإمكانهم تقديم مبالغ طائلة من المال تضمن إدراجهم على اللائحة. هنا نذكر ما قاله الجنرال ديغول عام 1962 (للوزير ألان بيريفيت): «للسوق حسنات، تعطي الأولوية للأفضل. ولكنها في الوقت نفسه تلحق الظلم ببعضهم، وتعزز الاحتكار وسبل الخداع. السوق لا تعلو فوق الدولة والأمة. هذه هي حال الأمم. تعلو الدولة فوق السوق». هذه هي الفكرة التي حفرت ردة فعلنا تجاه مشروع «غوغل»: لا بد من أن نعلو فوق هذه السوق. لأنه في حال عدم تدخلنا ألن يؤدي الوصول الحر والشامل إلى الذاكرة الجماعية إلى الاحتكار بدلاً من التعددية؟

إن هذا النوع من الحرية يشبه إعطاء الثعلب حرية التصرف في قن الدجاج. وإذا لم تعل الدولة على هذه السوق، يزول التنوع الثقافي. فبإسم التعددية الجغرافية، والسياسية والثقافية، يجب التعويض عن

النقص الناجم عن «غوغل» وليس محاربة محرك البحث هذا. بداية، يستطيع هذا النظام أن يردم الهوة بين الذين يستطيعون الوصول إلى الكتب، وأولئك الذين لا يسعهم ذلك. لكن، إذا كان العرض يتسم بالمركزية والاحتكار، فهو سيؤدي إلى «فارق رقمي» بين دول الشمال ودول الجنوب، والإنترنت ينشر الثقافة بشكل واسع لكنه يعزز الفوارق.

تقولون إن أوروبا تمتلك الإجابة الصحيحة.

يختلف الواقع الأوروبي عن نظيره الأميركي أو الآسيوي. ففي فرنسا، نعتزم إدراج 120 ألف كتاب في نسخ رقمية في العام (80 ألف كتاب من المكتبة الوطنية في فرنسا متوافرة مجاناً في مكتبتنا الرقمية Gallica). ولو بذلت الدول الأوروبية الأخرى مجهوداً مماثلاً، لتمّ إدراج ثلاثة ملايين كتاب في غضون خمس سنوات. لا بد من ترقيم النصوص التي وضعت أسس الديمقراطيات الأوروبية وتلك التي أسهمت في تقديم العلوم والفلسفة والاقتصاد ونصوص القانون اللاتيني الذي يتعارض مع القانون الأنغلو ـ ساكسوني في التشريعات الدولية.

يقال إن الآلة الطابعة لم تعدّل بشكل مهم أسلوب الكتابة. أقول إن الشاشات أقرب إلى الكتابة اليدوية من الآلة الطابعة، إذ يمكننا أن نصحح الخطأ وأن نبدأ من جديد كلما طاب لنا ذلك. ويتساءل بعضهم هل ستصبح قواعد الإملاء أكثر بساطة؟ هنا أيضاً وكما هي الحال مع كل اختراع جديد يقال إن الفكر سيتغير. لكن دعونا لا نغالي بشأن الاختراعات الجديدة أو النتائج التي تفرضها التقنية على عقولنا المتقلبة أبداً. ولكن طالما أن الإنسان موجود، سيرغب كثيرون من الناس في الوصول إلى الشكل الأصح، وسيجد هؤلاء قراء كثراً لهم.

أما زلتم تؤمنون بالكتاب؟

في ما يتعلق بالكتاب أقول إنه سوف ينمو، سيكون متعافياً، الإنترنت سوف يواسيه! في الواقع، الكتاب سيجند «غوغل» والإنترنت في خدمته، إنها لنافذة جميلة تلك التي فتحها الإنترنت أمام عالم الكتاب!.

لم يعد بوسع أحد أن يقول: هذا الكتاب لم أجده

نشرت مجلة «الكتب ـ وجهات نظر» (عدد كانـون الأول 2007) مقالة عن محرك الاستخدام لشبكة الإنترنت «غوغل» وتقنيته الجديدة لاحتواء كتب العالم جميعها، ما قد يشكل نقلة «ثورية»، من المقالة نقتطف:

إن الخلطة المتزايدة من الفن والعلم وما وراء الطبيعة والمعرفة التطبيقية والمعروضات والنميمة والمعلومات الخفيفة المخزنة إلكترونياً على الشبكة العنكبوتية العالمية تنحدر مباشرة من الثرثرة غير المفروزة التي تناقلتها الأفواه اعتباطياً ومن مكان إلى آخر والتي أرسى أسلافنا منها دعائم سلالتنا البشرية لآلاف السنين كانت هذه الثرثرة قد حفظت في الذاكرة القبلية، في لغات وثقافات طواها النسيان، حتى حملت ضرورات التجارة البازغة من حوالي ستة آلاف سنة، وهو حدث جديد في المسيرة الطويلة لسلالة الإنسان العاقل، حملت على اختراع اللغة المكتوبة، وهي الشرط اللازم للعالم الموثق اليوم والذي يشمل الشبكة نفسها.

إن اختراع الذاكرة الإلكترونية في أثناء الحرب العالمية الثانية واختراع الشبكة العنكبونية العالمية من سبعة عشر عاماً مضت فحسب، بصفتها في الأصل طريقة للعلماء للاتصال بالزملاء البعيدين، هو تطور أبعد وربما النهائي- للانتقال الحاسم من ذاكرة جمعية معتمدة كثيرة الاعتماد على نظم تذكيري إلى نقش نثري على الطين والحجر والورق. بهذه الأدوات البدائية استطاع البشر أخيراً أن يسجلوا، بلغة عالية الجمال

وعميقة الفهم، التراث الأدبي والحكمة المتراكمة في أثناء عصرنا الطويل عصر ما قبل التاريخ.

أما ما هي الانتصارات الأكبر للروح الإنسانية التي قد تتشكل من الشبكة العنكبوتية العالمية، إذا نجت سلالتنا من حماقتها الحالية، فهو شيء وراء التخيل.

في 1998 أنشأ طالبان خرّيجا جامعة ستانفورد، لاري بيدج وسيرجي برين غوغل دوت كوم، وهو محرك بحث يستخدم تقنية أفضل من التي وجدت من قبل لفهرسة واسترجاع المعلومات من العالم المتنوع الهائل للشبكة العنكبوتية العالمية ولتحديد مراتب مواقع الشبكة العنكبوتية التي تحتوي على هذه المعلومات وفقاً لصلتها بعمليات بحث معينة بناء على عدد الروابط من بقية الإنترنت لموقع ما.

وقد قام نظام مرتبة الصفحة هذا بتحويل الشبكة العنكبوتية مصطبة للعلماء، ومن الثرثرة العشوائية سرعان ما أصبحت مورداً قابلاً للبحث يمد ببيانات حقائقية ذات مستويات متنوعة من الجودة لملايين المستخدمين. ومرة أخرى كانت ضرورات التجارة هي التي حولت غوغل نفسها من تقنية بحث عبقري بدون خطة مشروع إلى مشروع ضخم الربحية يقدم تنويعة من خدمات تشمل البريد الإلكتروني والأخبار والفيديو والخرائط، ويقدم جهده الحالي والمكلف والبطولي لرقمنة محتويات النطاق العام «لمشاع» من الكتب والمقتنيات الأخرى للمكتبات العامة الكبرى. ولعل هذا البرنامج يوفر للمستخدمين، أينما وجدت وصلات الإنترنت في العالم، نفاذاً إلى الملايين من عناوين الكتب، بينما يمكن المكتبات العامة نفسها من خدمة ملايين المستخدمين بدون إضافة شبر واحد من مساحات الأرفف أو تحمل بنس واحد من تكلفة التوصيل. إن ناشري الكتب وأصحاب حقوق المادة الآخرين، وقد دفعتهم مبادرة

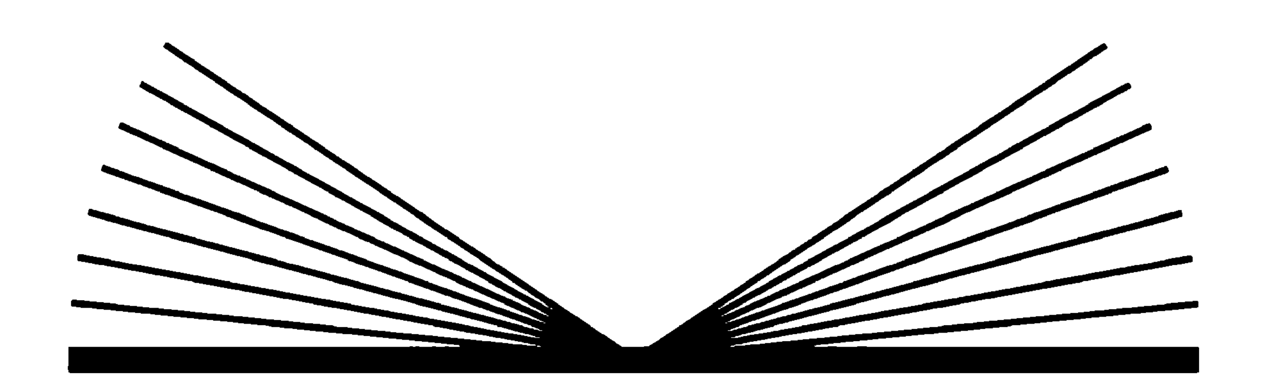
غوغل والتكاليف المنخفضة والأرباح المرتفعة والانتشار الهائل للتوزيع الرقمي بدون وسيط، لا بد في النهاية أن يتغلبوا على تباطئهم التاريخي ويوافقوا، مثل ناشري الموسيقى، على تسويق عناوين الكتب التي يملكون حقوقها في شكل رقمي إما لتقرأ على الخط أو على الأرجح لتطبع عند الطلب عند مرحلة البيع. وفي كلتا الحالتين مقابل رسوم تساوي التكاليف والأرباح العادية للناشرين وحقوق المؤلفين التعاقدية. وهكذا لأول مرة في تاريخ الإنسانية هناك إمكانية بأن كل كتاب طبع على الإطلاق بأية لغة سوف يكون متاحاً لكل إنسان على الأرض لديه نفاذ إلى الإنترنت.

ليست الثورة التي قامت بها غوغل موضع ترحيب من الجميع. يتخوف جان ـ نويل جانيني، مدير ببليوتيك ناسيونال (المكتبة الوطنية) في كتاب غوغل وأسطورة المعرفة العالمية من أن المكتبات العامة الوطنية بما فيها مكتبته هو سوف تعاني في ظل هيمنة غوغل العالمية، ولكن لا شيء يمنع المكتبة الوطنية ونظيراتها من رقمنة مجموعاتها الخاصة أو السماح لغوغل بعمل ذلك من أجلها مثلما فعلت المكتبة البودلية بأكسفورد. وقد زاد كرس أندرسن محرر مجلة وايرد على مقاله المؤثر «الذيل الطويل»، ليكون كتاباً من الأفضل مبيعاً يبين فيه أن «مساحة الأرفف» الفسيحة الخاصة بالشبكة العنكبوتية تسمح بمحتوى رقمي لا حدود له عملياً يخلق تنوعه طلباً غير متوقع حتى الآن على المصنفات المجهولة نسبياً أو المتخصصة في سوق غير متجانسة تتجاوز جملة جمهوره باهتماماته متعددة الأشكال جمهور المصنفات الأفضل مبيعاً بكثير، والذي تعكس هيمنته الحالية البنية شديدة المركزية لتجارة التجزئة اليوم والمعتمدة على الدوران السريع للمصنفات المتشابهة تشابهاً كبيراً.

ملحق
بانوراما الكتاب

ضمن سيرة الكتاب أيضاً، هناك الأخبار الطريفة والغريبة التي تتناوله من الناحية الجمالية والفنية، كالحجم، والسعر، ومكان التسويق، وأسلوب الطباعة... الخ، وأيضاً هناك الأخبار التي تناقش حجم التوزيع والكتب الأوائل وسير الفنانين.

من هنا أرتأينا استعراض بعض من تلك الأخبار التي تضيف قيمة شيقة من هذا الكتاب.



حفلات توقيع كتب في لاس فيغاس!

بدأت كازينوهات مدينة لاس فيغاس بإدراج ظاهرة جديدة لجذب الزبائن وهي تنظيم حفلات توقيع المؤلفين لكتبهم في صالات الكازينو، إلى جانب قراءات لبعض المقاطع من هذه الكتب.

وذكرت صحيفة نيويورك تايمز أن المسؤولين عن كازينوهات المدينة بدأوا بالترويج لمثل هذه الاحتفالات منذ العام الماضي، وهم ينظمون قريباً حفلاً لأوغوستين بوروز مؤلف كتابي «الركض مع المقص» و«عوارض جانبية محتملة».

وأضافت الصحيفة أن مكتبة «ماندلاي بالاس» المتصلة بمنتجع ماندلاي باي ريسورت أند كازينو في لاس فيغاس تنظم حوالي أربع حفلات توقيع كتاب في الشهر الواحد.

وكانت المكتبة قد استقطبت مؤلفين مشهورين من بينهم ماري هيغينز كلارك والطاهيين الشهيرين مؤلفي كتب الطهي المنزلي ماري سو ميليكين وسوزان فينيغر[1].

---

(1) "الثورة" سوريا 2006/6/25

كتاب «المائدة العربية» يغزو المكتبات الأميركية

اختارت صحيفة «لوس انجلوس تايمز» كتاب الطبخ الذي أعدته مي شخاشير بسيسو لتصنفه كتاب العام 2005 في حقل الطعام، نظراً إلى تنوع الوجبات التي قدمتها المؤلفة تحت عنوان «المائدة العربية».

وعلى امتداد الـ 370 صفحة التي يتألف منها هذا الكتاب الذي صدر في الولايات المتحدة عن «دار هاربر وكولونز» ظلت المؤلفة التي أمضت خمس سنوات في جمع معلوماته، أمينة على المشروع الذي حددته في المقدمة، أي وضع كتاب شامل وكامل عن الوجبات التي أشتهر بها المطبخ العربي، بدءاً من فلسطين والأردن وسورية ولبنان والعراق، مروراً بمصر وانتهاء بالمغرب.

ويتميز هذا الكتاب عن سائر الكتب المتخصصة في عالم الطبخ، بأنه لا يتحدث عن مقادير الوجبات وطريقة إعدادها، وإنما يروي حكايات عن أصلها وفصلها فتتحول ثقافة المطبخ ـ كما كان يكتب عنها توفيق الحكيم ـ ثقافة عامة يمكن أن تغني عقل الإنسان ومعدته أيضاً.

واللافت أن المؤلفة الفلسطينية التي تعيش في الولايات المتحدة، قامت برحلات إلى دول المنشأ لتلمّ بتاريخ العمل الذي تنقله إلى اللغة الإنكليزية. وأضافت في هذا الكتاب حلقات خاصة عن الوجبات التي تقدم في مناسبات الأعياد.

وكتبت مجلة «نيوزويك» عن كتاب «المائدة العربية» واعتبرته ضرورة في كل مطبخ لا يحب أصحابه الوجبات السريعة[1].

---

(1) الحياة 30 ـ 1 ـ 2006

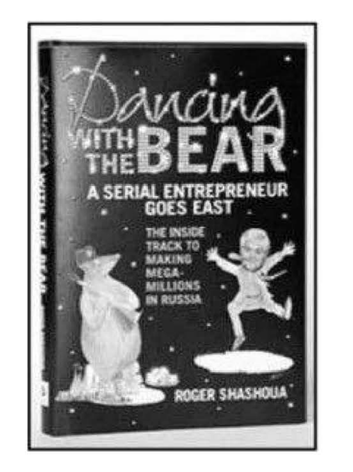
الرجال يؤلفون الكتب أكثر من النساء

تتصدر مجموعة من 100 كتاب ورواية وضعها مؤلفون ذكور منذ ثمانينات القرن الماضي قائمة الأعمال الأدبية الأكثر مبيعاً في العالم، كما تظهر أن الرجال أكثر غزارة من النساء في هذا الحقل.

وذكرت صحيفة «تلغراف» أن الدراسة التي أجرتها مؤسسة «ووترستون» التي تمتلك أكبر سلسلة من المتاجر أظهرت أن الكتّاب والروائيين بدءاً من إيطاليا وبريطانيا وأميركا وانتهاء بكندا والصين هم السباقون في تأليف الكتب والروايات ورفد المكتبات بالمؤلفات الجديدة، وأبدى مسؤولون في الشركة دهشتهم بسبب التفاوت الكبير في الإنتاج الأدبي بين الرجال والنساء في هذا الصدد.

وعزا المتحدث باسم الشركة جون هويلز السبب في ذلك إلى أن الرجال يفضلون عادة قراءة الكتب التي يضعها الذكور على عكس النساء اللواتي لا يفرقن كثيراً في ذلك. ولاحظ هويلز أن النساء يقرأن أكثر للمؤلفين الرجال.

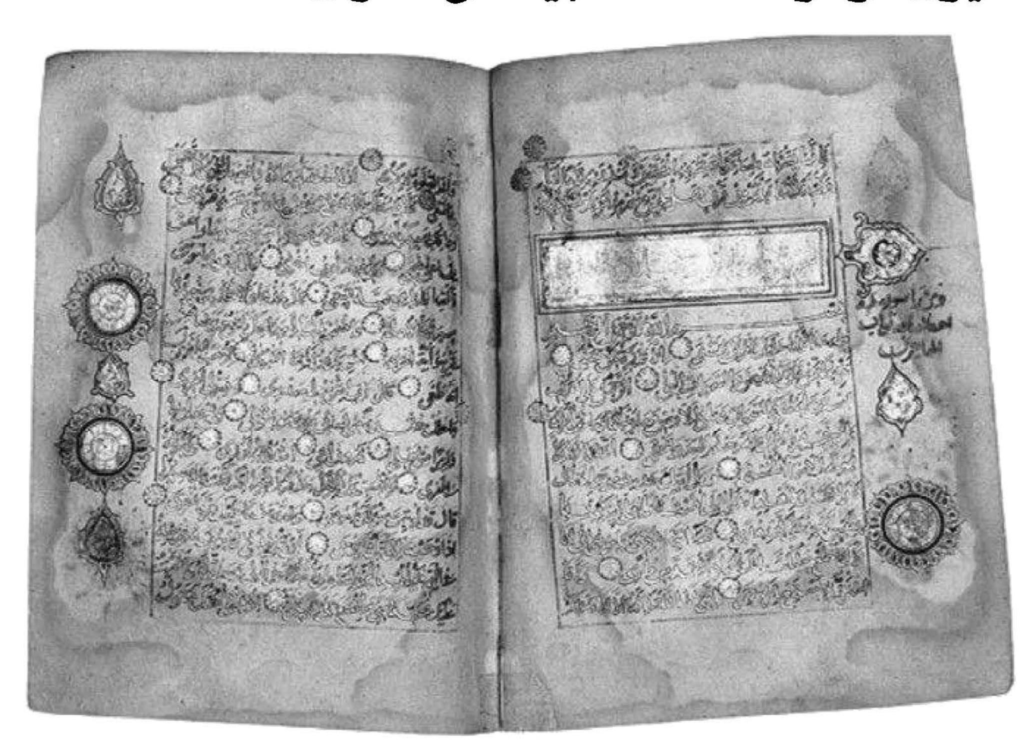
6 ملايين دولار ثمن كتاب



طبع رجل أعمال بريطاني كتاباً رصع غلافه بالماس، تبلغ قيمته نحو 6 ملايين دولار أميركي، بهدف بيعه إلى الأثرياء الروس. وذكرت هيئة الإذاعة البريطانية «بي.بي.سي» أن روجر شاشوا سيطبع نسخاً من كتابه «الرقص مع الدب»، مخصصة للأثرياء الروس الذين تعرف إليهم بسبب أعماله في روسيا، وستكون كل نسخة مرصعة بـ 600 ماسة نقية. وقال شاشوا: «من الطبيعي أن يتوجه الكتاب إلى السوق الروسية بوجود كل هذه الأموال فيها». وأضاف: «أتمنى أن يقرأ الأثرياء الكتاب، لا أن يحتفظوا به». ويوجد في روسيا 53

ملياردير اً، أشهرهم رومان ابراموفيتش، مالك فريق كرة القدم البريطاني تشيلسي[1].

2.33 مليون دولار لنسخة ذهبية من القرآن



بيعت نسخة من القرآن الكريم يعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر في مزاد بلندن بسعر قياسي عالمي بلغ أكثر من مليون جنيه أسترليني (2 مليون و330 ألف دولار) وهو أعلى مبلغ يدفع في شراء كتاب إسلامي مقدس.

وهذه النسخة التي يعود تاريخها إلى العام 1203 مكتوبة بماء الذهب، كما بيعت في المزاد نفسه نسخة من القرآن الكريم كتبت منذ عشرة قرون تقريباً بالخط الكوفي ويعتقد أنها جاءت من شمال إفريقيا أو الشرق الأوسط بنحو مليون جنيه إسترليني.

وقالت دار كريستي للمزادات إن كلتا النسختين اشتراهما اثنان من البريطانيين[2].

---

(1) "البلد" 2007/8/25.

(2) "السفير" 2007/10/25.

الكتب أفقدته منزله

تسبب عشق صاحب مكتبة في ولاية بنسلفانيا الأميركية، بفقدانه لشقته بعد أن أعتبر المسؤولون أن الكتب المكدسة فيها تشكل خطراً باندلاع الحرائق. وذكرت صحيفة «تايمز ليدر» الصادرة في وايلكس بير، أن سلطات المدينة اعتبرت بعد تفتيش روتيني لشقة جون بوشنياك، أن الـ 3 آلاف كتاب المخزنة فيها تشكل خطراً على السلامة العامة وتهدد باندلاع حريق. ويقيم بوشنياك (59 عاماً) حالياً في الفندق ويحاول تخفيض عدد الكتب الموجودة على الرفوف في شقته، ولكنه على الرغم من ذلك لن يستطيع تحمل التكاليف المادية لمحكمة استئناف من أجل العودة إلى بيته[1].

ماكينة أكسبرسو... للكتب

إنها الـ The Espresso Book Machine الآلة الثورية التي يمكنها أن تجعل الكتب تختفي من على رفوف المكتبات. كيف ذلك؟ يكفي أن تختار الرواية التي تريد، أن تضغط زرين أو ثلاثة على طابعة رقمية وتنتظر بضع دقائق لتجد بين يديك نسخة جاهزة وحديثة الطباعة ومجلدة من الكتاب الذي أردته. في سبع دقائق، تستطيع هذه الماكينة أن «تحضر»

---

(1) "البلد" 2007/7/27.



كتاب جيب من 300 صفحة انطلاقاً من ملف رقمي. هذه الماكينة طورتها شركة «كتب تحت الطلب» Books On Demamd الأميركية، التي أسسها جايسون ايبستاين، أحد أكبر الناشرين في الولايات المتحدة. وضعت الماكينة الجديدة في الخدمة منذ نهاية حزيران الفائت في قسم العلم والاقتصاد في «مكتبة نيويورك العامة»، وهي اليوم في طريقها إلى بريطانيا حيث تتفاوض الشركة المذكورة مع أكثر من مكتبة. يقول المسؤولون في «كروكات أند باول» وهي مكتبة صغيرة جنوب لندن تتحضر للحصول على الماكينة: «إنه المستقبل تطبع كتباً تحت الطلب، الحصول على أي كتاب من دون أن نضطر لتشغيل عمال أو زيادة مخزوننا»[1].

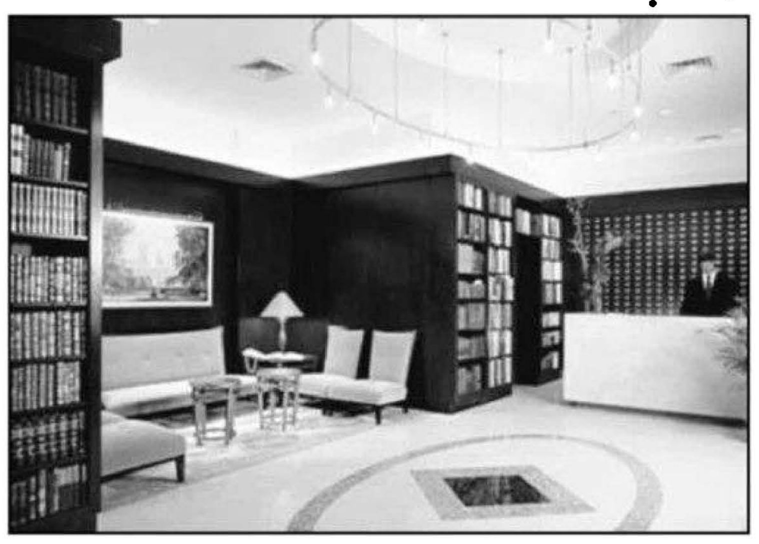
أصغر كتاب منشور

قال باحثون كنديون إنهم ابتكروا أصغر كتاب منشور في العالم وهو قصة مسابقة لنبات اللفت تحتاج أن يستخدم القرّاء مجهراً إلكترونياً لقراءتها. وذكرت جامعة سايمون فريزر: «إن حجم الكتاب الذي عنوانه

(1) "النهار" 2007/9/6.

«تيد الصغير جداً من مملكة اللفت» يبلغ 0.07 ملليمتر في 0.10 ملليمتر وجرى تصنيعه باستخدام شعاع مركز لعنصر الأيون لنقش الفراغات حول كل حرف على قطع من السليكون اللبوري». وأوضح الباحثون أن ذلك أصغر من رأس دبوس حجمه ملليمتران. وأشاروا إلى: «أن الكتاب أصغر من كتابين وردا في موسوعة «غينيس» للأرقام القياسية العالمية كأصغر كتاب في العالم وهما نسخة من العهد الجديد «أنجيل الملك جيمس» أعدت في عام 2001 ونسخة من كتاب «الحرباء» لأنطوان تشيخوف صدرت في عام 2002»[1].

سبع سنوات على الفندق- المكتبة



آب 2000، آب 2007، سبع سنوات مرت على افتتاح الفندق - المكتبة الذي أنشأه هنري كالان من تصميم ستيفن ب. جايكوبس، ليصير اليوم في المرتبة الخامسة على لائحة موقع Tripadvisor.com الشهير. يقع فندق «لايبريري هوتيل» في قلب مانهاتن، عند تقاطع جادة ماديسون والشارع 41. وفي شارع «لايبريري واي» الذي يقود إلى «مكتبة نيويورك العامة» الشهيرة، وهو النموذج الوحيد في العالم لفندق مصمم بالكامل على شكل مكتبة، يقول عنه الكاتب كاسبر كونيغ إن في إمكانه أن يكون على غرار مكتبة بابل التي حلم بها بورخيس. اثنتا عشرة طبقة، كل منها مخصصة لميدان معين من المعارف: لغات، علوم، فنون، آداب، تاريخ

(1) "البلد" 2007/4/13.

وسواها. وكل طبقة مقسمة حول تيمات مختلفة. إلى جانب كل سرير ثمة مكتبة تحوي من 50 إلى 100 كتاب تتناول الموضوع المخصصة له الغرفة، فضلاً عن المكتبات وقاعات القراءة الموزعة على الطبقات و«حديقة الشعر»، وهي عبارة عن شرفة من الزجاج والقصب، مما يعني نحو ستة آلاف كتاب على أقل تقدير من كل الأنواع يجري تناقلها بطبيعة تامة ومن دون قيود، إلى حد أن نحو مائتي كتاب يُسرق كل عام[1].

عملاق الكمبيوتر بيل غيتس: انتهى عهد الورق... ولكن

أعلن بيل غيتس مؤسس شركة «مايكروسوفت» في مقابلة مع صحيفة «لوفيغارو» أنه «خلال خمس سنوات سيقرأ 40 إلى 50 في المئة من الناس الصحف على الإنترنت»، وأعتبر أن نوعية المواقع الإلكترونية «أمر أساس» بالنسبة إلى الصحف.

وقال غيتس: «حفاظاً على قرائها، ينبغي على الصحف أن تحسن مواقعها الإلكترونية»، مشيراً إلى أن «نوعية الموقع الإلكتروني باتت أساسية للمؤسسات الصحافية». ويلجأ غيتس إلى الإنترنت للإطلاع على أكثر من نصف قراءاته وفي مقدمها «وول ستريت جورنال» و«نيويورك تايمز» و«ذي إيكونومست» كما يقرأ كل الصحف المتعلقة بمجال المعلوماتية على الإنترنت.

وأوضح أنه أحياناً يقرأ ـ على جهاز الكمبيوتر، لكنه أقر بأن «الكمبيوتر مناسب أكثر للإطلاع على الموسوعات وأدوات التعليم والوثائق المهنية».

---

(1) "النهار" 2007/9/6.

الإنترنت تحل مكان الكتب في المكتبات

مع تقدم التقنيات العلمية وسهولة الحصول على المعلومات عبر الإنترنت لم تعد المكتبات العامة في بريطانيا تخصص مبالغ كبيرة من أجل شراء الكتب كما كان الأمر في الماضي. وذكرت صحيفة «الدايلي ميل» أن إحدى الدراسات التي أجريت أخيراً أظهرت أن المكتبات البريطانية العامة صرفت العام الماضي 10 في المئة فقط من موازناتها على شراء كتب جديدة. ووجدت الدراسة أن المكتبات العامة البريطانية أنفقت حوالي ملياري دولار العام الماضي، خصص منها فقط نحو 196 مليون دولار لشراء الكتب، مشيرة إلى أن عدد الكتب انخفض في المكتبات نسبة 40 في المئة منذ أربعينات القرن الماضي. وتراجع عدد الكتب التي استعارها قرّاء أو التي اشترتها المكتبات العامة في بريطانيا خلال العامين الماضيين بشكل كبير بسبب تزايد اعتماد الطلاب والباحثين على الإنترنت[1].

المرشحة الاشتراكية هددت زوجها بمنعه من رؤية أبنائه إذا عرقل طموحها للرئاسة

محامي سيغولين يهدد بمقاضاة ناشر كتاب عن حياتها الخاصة :

يثير كتاب نزل إلى المكتبات في فرنسا ضجة تؤهله لتحقيق مبيعات عالية على الرغم من أن الجمهور لم يطلع عليه بعد، ذلك أن مكتب سيغولين روايال أصدر بياناً جاء فيه أن جان بيير مينيار، محاميها ومحامي شريك حياتها فرانسوا هولوند يعتزم مقاضاة الناشر لأن ما تسرب من فصول يضر بالحياة الشخصية لهما كما يمثل مساساً بشرفهما ومكانتهما المعنوية.

---

(1) البلد 2007/1/19.

ومؤلفتا الكتاب الصادر عن دار «البان ميشيل» هما الصحافيتان في يومية «لوموند» رافاييل باكيه وآريان شومان. وسبق للأولى أن نشرت كتاباً عن الرئيس المنتهية ولايته بعنوان «شيراك وشياطين السلطة»، أما الثانية فهي صاحبة كتاب مثير بعنوان «عائلة سرية» عن الرئيس السابق ميتران وابنته مازارين.

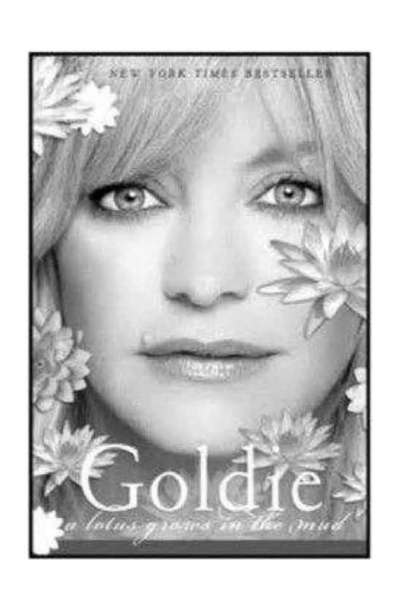
وجاء في تقديم الناشر للكتاب الذي يحمل عنوان «امرأة لا تقاوم» أن سيغولين نجحت فجأة في السباق الرئاسي بدون أن يتمكّن أحد من تحديد المدى الذي يمكن أن يدفعها إليه طموحها، وهي اختطفت الحزب الاشتراكي من خلال أمينه العام هولوند وقادته نحو خسارة محتومة تعني نهاية ما كان الحزب في حياة فرانسوا ميتران.

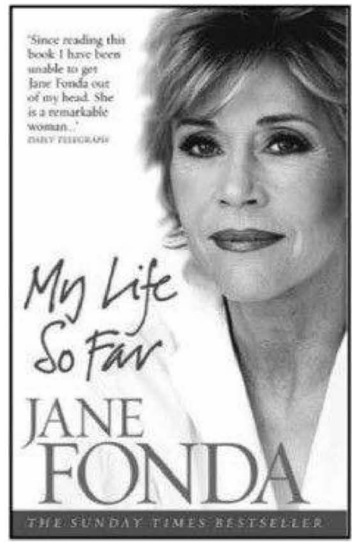
وعلى صعيد الحياة الشخصية جاء في الكتاب أن العلاقة بين سيغولين وشريكها ووالد أطفالها الأربعة قد تدهورت منذ خريف 2005، أي منذ الفترة التي كشفت فيها صراحة وفي مقابلات صحافية نياتها لترشيح نفسها للرئاسة. ومن المعروف أن بادرة روايال أثارت في حينها حفيظة أقطاب حزبها الاشتراكي وسببت حرجاً لشريك حياتها الذي يشغل منصب أمين عام الحزب، وكانت الجملة الساخرة التي أطلقها أحد رفاقها تتردد على ألسنة الفرنسيين ومفادها: «من يبقى مع الأطفال في البيت إذا فازت سيغو بالرئاسة؟».

وينقل الكتاب عن أحد المقربين من هولندا أنه رجل يعاني من مشكلة نفسية تتمثل في عجزه عن الحسم وافتقاده إلى هيبة السلطة. كما يلمّح من بعيد إلى وجود علاقة نسائية أخرى في حياته لأن شريكته من النوع المسيطر والمزعج، وهي كانت تتصل بهواتف رفاقه المقربين إذا وجدت هاتفه مقفلاً.

وورد في الكتاب، نقلاً عن سياسي مقرب من الزوجين منذ 25 عاماً هو جوليان دراي، أن سيغولين هددت شريكها هولوند بأنها ستحرمه من رؤية الأبناء في حال اتصل بالأمين السابق المعتزل ليونيل جوسبان ودعاه إلى الترشيح لقطع الطريق عليها. كما يتضمن الكتاب مقاطع تكشف العلاقة المتوترة بين رويال وعدد من السياسيين والمثقفين من وجوه معسكر اليسار[1].

مذكرات الفنانات





مطلع كل عام، ينشط مشاهير السينما والغناء في إصدار مؤلفاتهم من مذكرات وروايات، أو حتى كتب للأطفال على غرار مادونا وبول ماكارتني، نجم فريق البيتلز السابق. وهي كتب تتصدر حكماً قائمة أفضل المبيعات في الولايات المتحدة وأوروبا وتنتشر بانتشار موقعيها. لكن أبرز هؤلاء، النجمتان الهوليووديتان: جاين فوندا مع «حياتي إلى الآن»، وغولدي هاون مع «لوتس تنمو في الوحل»، وعلى الرغم من أنهما اعتمدتا المعادلة التسويقية نفسها، و«الإبهار» عينه، تجمع بين هاتين النجمتين، اللتين أقل ما يقال عنهما أنهما فاتنتان، مسيرة الخلاص النفسي الذي حققتاه بعدما سلكتا درباً طويلاً تخللته محطات من الخوف، والاستسلام، فالانتصار والسعادة[2].

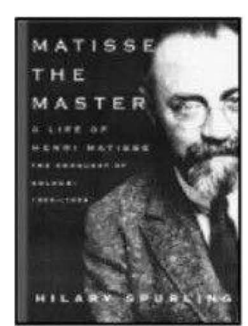
---

(1) "الشرق لأوسط" 2007/5/12.

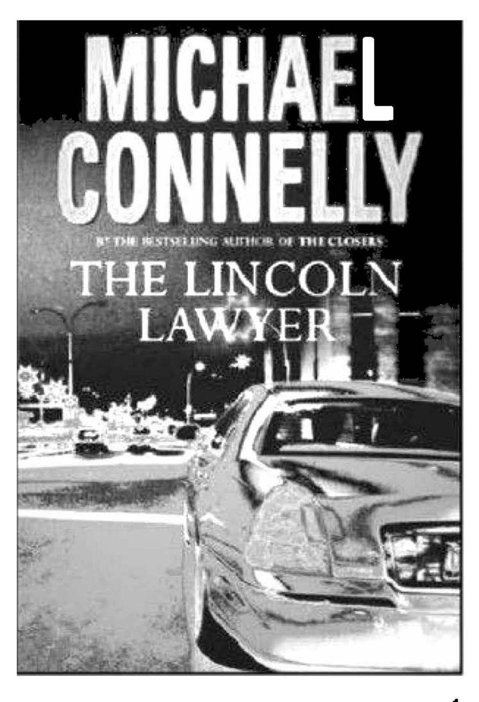
(2) "البلد" 2005/7/7

لكل مجلة وصحيفة لائحة بأفضل كتب 2005

ما هي أفضل الكتب للعام المنصرم؟ سؤال حاولت الصحف والمجلات الأدبية في العالم الإجابة عنه عبر إصدار كل منها لائحتها الخاصة، ففي حين اكتفت بعض المطبوعات بآراء قرائها شكّل تقويم النقاد أو المؤلفين مرجعاً لبعضها الآخر دفعها إلى الإضاءة على كتاب محدد وإلى إسقاط آخر.



في «ذي إينديبندنت» البريطانية توقفت مجموعة مؤلفين عند كتب طبعتها، فلفت مارك بوستريدج إلى سيرتين، Matisse the Master: The Conquest of colour لهيلاري سبورلينغ، و Mary Wollstonecraft: A New Genus للينـدال غوردن. واعتبرت الكاتبة ميشال روبرتس أن A Touch of The Sun لدايفيد إيفاينز أحد أفضل الروايات التي قرأتها. وهي قصة مؤثرة ومرحة عن شاب أبيض يكبر في إفريقيا الجنوبية تحت نير التمييز العنصري ويكتشف تدريجاً السياسات المتطرفة. وتوقفت روبرتس أيضاً عند إعادة إصدار The Cattle Truck لخورخي سامبرون رواية كلاسيكية وعصرية في الوقت عينه، كتاب آخر لا يخشى التعامل مع المواضيع الكبرى ويسرد عملية إلقاء القبض على شاب أسباني يحارب في صفوف المقاومة الفرنسية إبان الحرب العالمية الثانية، فيتأمل في الذاكرة والطفولة والحرب. أما جون بانفيل فرأى أن كتاب جي أم كويتني Slow Man أكثر الراويات بروزاً في 2005، ففي هذا العمل الحامل كبراً في البلاغة قصة مقعد مثير للعاطفة يخسر ساقاً ولكنه يكسب الإدراك الذاتي. أما روث فاينلايت فتذهب باتجاه الشعر مع مجموعة دايفيد هارسنت الأخيرة، Legion التي قرأتها بالاهتمام والإعجاب نفسه الذي أثارتها فيها كتبه الأخرى مشددة على أن قدرات هارسنت التقنية تأخذ حجماً أكبر يوماً بعد يوم.



أما الناقد جوناثان ياردلي فيتنقل في صحيفة «واشنطن بوست» في خياراته بين مذكرات الأسى والسير وكتب التشويق. وهو أشار بداية إلى روايتي مايكل كونيلي The Lincoln Lawyer وإن عبّر عن ميله الواضح إلى الأولى، فكتب كونيلي الترفيهيـة حتمـاً تتأمـل فـي الوقت عينه وبجدية في المستوى «السفلي» للمجتمع الأميركي، وهو عالم خطر وشاسع لا يتم التنبه إليه غالباً في ظل الكلام الحماسي الصادر عن أقسام الكتابة الابتكارية في الجامعات. وتوقف ياردلي أيضاً عند The Broker أحدث روايات جون غريشمان الفاتنة والمفعمة حيوية وذكاء. وفي خانة كتب التخيل الأدبي لاحظ ثلاثة كتب منها Never Let Me Go لكازوو إيشيغورو، تصف جيلاً شاباً غريباً وحزيناً في إطار مدرسة إنكليزية مخيفة. وبالرغم من أن الرواية ليست من نوع الخيال العلمي لكن مغامرتها باتجاه المجهول والغريب تقربها منه. وفي فئة المذكرات المختلفة الأشكال، يتوقف عند خمسة، منها The Coldest Winter لباولا فوكس التي تصف حقبة وجيزة ولكن مهمة من حياتها في العشرين من العمر عندما قصدت أوروبا في نهاية الحرب العالمية الثانية من دون هدف محدد، وانتهت في العمل في مكتب بريطاني للإعلام، وفي التنقل في أرجاء القارة القديمة، متطرقة إلى أحداث ذات دلالة في حين يذهب تعاطفها خصوصاً نحو الناس العاديين الذين غيّرت الحرب حياتهم كلياً. تكتب عنهم بإحساس عال ولكن من دون وجدانية.

كاتبة موهوبة أخرى هي لين فريد التي تأتي من أفريقيا الجنوبية وهي عاشت طويلاً في الولايات المتحدة الأميركية، فباتت تقيم في مساحة بسيكولوجية، في مكان ما، بين هذين البلدين. كتاب Reading, Writing And Leaving Home يخبر في المقام الأول كيف أصبحت كاتبة ويتضمن أيضاً ذكريات ساخرة ومريرة عن والدين غريبي الأطوار ويحمل تأملات عميقة عن العيش في الإهمال. وكتاب العام في رأي واشنطن بوست هو The Year of Magical Thinking لجوان ديديون على خلفية أحداث مروعة عاشتها المؤلفة، وفاة زوجها الكاتب جون غريغوري ديديون ومرض ابنتها الذي أضعفها وتركها على شفير الموت. الكتاب يسحق القلب ويثير الاهتمام وإن كان لا يقدم أجوبة سهلة بل يترك القارئ كما الكاتبة في حال من استحالة تفسير أساليب تغير الحياة بلمح البصر.

«ليـــر»

في الضفة الأخرى للأطلسي، نشرت مجلة «لير» الفرنسية خياراتها لأفضل عشرين كتاباً للعام، وقد حلت المرتبة الأولى رواية بريت إيستون إيليس (الذي تصفه بالأيقونة الأكثر جهنمية لأميركا تحرقها ألسنة نيران غرورها) Lunar Park. ففي رأي المجلة لا استفزاز في هذه الرواية المتجذرة في لحظات الخوف وحتى الهلع التي يعيشها بلد روّعته أحداث 11 أيلول. في المرتبة الثانية رواية Waltenberg لهيدي كدور الواقع في 700 صفحة تستعيد شخصيات القرن المختلفة، في مقاربة غير مستهلكة وكتابة براقة بعيداً عن الأسلوب الأكاديمي الطاغي، بدءاً من الحرب العالمية الأولى وصولاً إلى سقوط حائط برلين يلاقي الكاتب أقدار صحافي فرنسي وكاتب ألماني ومغنية أميركية وغيرهم. فالرواية جداريه

تاريخية تتناول الصداقة والشغف بأسلوب يذكر بتولستوي وهو أيضا رواية تجسسية تذكر بجون لوكاري.

وفي ثالث مراتب اللائحة سيرة «لويس السادس عشر» لجان كريستيان بوتيفيس، المميزة في إتقانها فن البورتريه، إذ تظهر لويس السادس عشر في واقعه الجسدي والنفسي إلى أن نصل إلى نهاية حياته التعيسة بعد أن نكون استبعدنا الأفكار المسبقة فيقترح علينا عندها اكتشاف الحقيقة. في المرتبة الخامسة L'intérieur de la Nuit رواية الكاميرونية ليونورا ميانو البكر الحاملة روح التراجيديا. وهي تبرز شخصيات نسائية مثل الروائية ميانو تدعو للأمل بإفريقيا اليوم والمستقبل. وفي المرتبة السادسة كتاب ميلان كونديرا Le Rideau «الستارة»، يظهر فيها المعلم صاحب الخبرة أن الرواية أداة لمعرفة الحياة لا يمكن تبريرها إلا من خلال كون الرواية تتكلم عما لا يستطيع غيرها قوله. يستعيد الكتاب كبار الراوئيين من ثرفنتس إلى الأكثر حداثة وهو درس في الأدب ولكنه درس بحجم الإنسان كثير الشغف والتبصر والفكاهة، وخال من الادعاءات. وقد أشارت «لير» إلى أنها حيدت في لائحتها الكتب التي نالت التقديرات الأدبية الأساسية، وإلا لكانت لحظت «ثلاثة أيام عند أمي» لفييرغانس الحائز الغونكور وAsiles de Fous لريجيس جوفريه الحائز جائزة فيمينا وكتاب ليدي فيولي وماري ديبلوشان La Vie Sauve الحائز ميديسيس للبحث وأيضاً «ثلج» كتاب أورهان باموك الذي نال بدروه جائزة ميديسيس للرواية الأجنبية[1].

---

(1) البلد 2005/12/27

الكتب الأكثر مبيعاً.. ولكن ما هي الأرقام؟

لماذا تحمل مجلات أسبوعية وشهرية في فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة واليابان لوائح الكتب الأكثر مبيعاً، وتكاد تغيب هذه اللوائح عن المطبوعات الدورية والأسبوعية العربية؟ ولماذا تقام معارض الكتب الكبرى في القاهرة وبيروت ودمشق والرياض وسواها ولا نعرف ما هي الكتب الأكثر جذباً لقارئ العربية؟

لعلّ توفر لوائح الكتب الأكثر مبيعاً بحسب موضوعها هو أضعف الإيمان لدى المشرفين على معرض بيروت الدولي مثلاً: نظراً إلى الظروف الصعبة. ولكن بعد خمسين سنة من انطلاق معرض بيروت، ما زلنا نجهل ما هي الكميات التي تباع من الكتب «الأكثر مبيعاً» في كل معرض. وهل يستحق كتاب في باب معين باع 300 نسخة أن يكون على هذه اللائحة مقارنة بكتاب في باب آخر باع ثلاثة آلاف نسخة ولكنه غير مذكور لأن كتاباً آخر في الباب نفسه باع 3200 نسخة فدخل اللائحة؟

نقول هذا للتشديد على أهمية المعلومة الإحصائية التي لا تلبيها لائحة بلا أرقام وثمة دلالة أن الكتاب كي يدخل لائحة، «الأكثر مبيعاً» في فرنسا مثلاً على كمية مبيعه أن تبلغ مئة ألف نسخة على الأقل. وذكرت «الحياة» (10 حزيران/يونيو 2007) أن رواية علاء الأسواني «عمارة يعقوبيان» بيعت منها 160 ألف نسخة في الترجمة الفرنسية، وهكذا يكون هذا الكتاب بين الأوائل في باريس.

وعلى الرغم من الافتقار إلى معلومات تفصيلية عن سوق كتاب اللغة العربية، فثمة وسائل بديلة لمعرفة انتشار أي كتب وحجم هذا الانتشار. وهذا يتطلب مجهوداً بحثياً كبيراً لا يتوفر إلا في مؤسسات

حقيقية أو في وزارات الثقافة. وطرق الاستدلال تكشف الكثير من الخبايا، مثلاً استهلاك البلد الإجمالي لورق الطباعة وتوزيع الورق بحسب دور النشر مقارنة بدول أخرى وفق التعداد السكاني، ومؤشرات اليونسكو وغيرها التي تشير إلى استفتاءات عن الوقت الذي يمضيه الفرد في المطالعة، وهو لدى العرب ربما من الأدنى بين الشعوب. وتمكن مراجعة دور النشر لاستفتائها عن الكتب العشرة الأكثر مبيعاً التي نشرتها. لكن إجراء مثل هذا الاستفتاء الدوري مع آلاف دور النشر في الدول العربية يحتاج إلى فريق بحث واستبيان مع أسئلة مفصلة وموازنة.

وثمة وسيلة أخرى تقتضي استقصاء الكتب التي تكتب عنها أو تشير إليها الصحف والأسبوعيات واعتبار هذا الأمر مؤشراً لنجاح هذه الكتب مع ما يرافق هذا الأسلوب من عيوب. وهذه مسألة تقوم بها أحياناً بعض الدوريات الفصلية كمهمة أرشيفية وإن تكن ذات هدف محدود.

وعادة ما تقوم شركة «أمازون دوت كوم» العالمية بعرض الكتب آلياً وفق حجم مبيعها، نظراً إلى مقدرتها المعلوماتية العالية، فلو وصل التصنيف إلى أكثر من ثلاثة ملايين كتاب، يمكن زائر الموقع أن يطلع فوراً على الكتب الأكثر مبيعاً ابتداء من الرقم واحد حتى الرقم الثلاثة ملايين. ولكن حتى أسلوب أمازون هذا لا يكفي لمنح الباحث صورة ولو جزئية عن الثقافة وعمقها في ما يطلبه المشترون من الكتب وما أهمية هذا التصنيف من واحد إلى ثلاثة ملايين. وعلى سبيل المثال يجد الباحث على موقع أمازون أن كتب هاري بوتر هي الأكثر مبيعاً في حين سيجد أن الكتب الأكثر جدية وفائدة ومحتوى أدبياً وفكرياً وعلمياً هي في مواقع أدنى. ويصبح البحث أكثر صعوبة عند التدقيق في حجم مبيعات كتب شكسبير على موقع أمازون الأميركي أو كتب الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو على موقع أمازون الفرنسي، حيث ثمة طبعات عدة ونسخ من نفس

كتب هذين المؤلفين اللذين تصل مؤلفاتهما إلى العشرات بل مئات في طبعات لدور مختلفة. عندها يجب النظر في أهمية المؤلف من حيث حجم مبيعات كل مؤلفاته وعلى فترة زمنية طويلة. وعلى سبيل المقارنة، مهما بلغ حجم مبيعات الألبومات الغنائية الشبابية في بورصة الأغاني العربية، يبقى حجم مبيعات ألبومات أم كلثوم وهو بمئات الملايين، صعب الوصول إلى أي منافسة.

ثمة محاولات لشركات عربية تبيع الكتب على الإنترنت في تقديم معلومات عن الكتب الأكثر مبيعاً، هناك موقعان لبنانيان هما «نيل وفرات» و«أدب وفن». ولاحظنا أن الموقعين يعرضان لائحة «الكتب العشرين الأكثر مبيعاً». لكننا صادفنا مشكلة في موقع «أدب وفن» حيث إن اللائحة الأكثر مبيعاً لم تتغير منذ العام 2004، في حين أن لائحة الكتب الصادرة حديثاً تتغير ببطء شديد وكل بضعة شهور.

أما موقع «نيل وفرات» فهو يغذي لائحته بأحدث المبيعات ومعلوماته جديدة دوماً، ويعرض الكتب الأكثر مبيعاً للعام 2006، وبمراجعة لائحة «نيل وفرات» تبين أن الروايات والقصص احتلت المرتبة الأولى عام 2006 حيث شغلت 46 مرتبة من أصل مئة، تليها الكتب الدينية (20 كتاباً من أصل مئة) وكتب السياسة (20 كتاباً من أصل مئة). وعلى عكس ما هو رائج في السوق لم تحتل كتب الأبراج والطبخ أكثر من 5 كتب والجنس 5 عناوين والكتب التقنية (كمبيوتر) 4 كتب، وليست اللائحة مقياساً على انتشار دواوين الشعر. ولعلّ مراجعة هذه اللوائح تسمح للقارئ كما للناقد أن يقف على الكتب الأكثر مبيعاً، على اختلاف حقولها أو ميادينها[1].

---

(1) الحياة 2007/7/6.

مارك ليفي، فريد فارغاس وبرنار ويربير هم الثلاثي الذي يتصدر قائمة تصنيفاتنا للكتّاب العشرة الأكثر مبيعاً في العام 2006.

ماذا لو تمكنت إحدى دور النشر من توقيع عقود مع هؤلاء الروائيين العشرة: هذا يعني أن الناشر سعيد الحظ باع أكثر من ثمانية ملايين نسخة. تشكل أعمال هؤلاء الكتّاب ما نسبته 22 في المئة من مجموع المؤلفات حديثة الصدور حسب المحللة التسويقية أليس كوزان كريسبيل، علماً أن هذه المؤلفات تتضمن الأعمال الأدبية التي كتبها فرنسيون وأجانب والقصص البوليسية والخرافية والروايات العاطفية. ولعل لائحة الكتاب هذه هي المؤشر الأساسي على ما يشتريه الفرنسيون ويقرأونه.

للسنة الثالثة على التوالي، أحتل مارك ليفي مركز الصدارة، إذ بيعت من مؤلفاته 1.7 مليون نسخة، منها 530 ألفا من روايته الأخيرة التي صدرت في تموز 2006. لا شك في أنها ظاهرة جديرة باهتمام المعلقين الصحافيين. فقد تفوق كاتب Et si c'est vrai العام الماضي في ما يتعلق بالمبيعات على خمسة من حملة جائزة «غونكور».

وفي الإطار نفسه انتقلت الكاتبة فريد فارغاس من المرتبة الخامسة إلى الثانية، محافظة بذلك على لقبها ملكة للروايات البوليسية الفرنسية، فيما تراجع برنار ويربير إلى المرتبة الثالثة. وقد انضم إلى نادي المتفوقين كاتبان هما غييوم موسو وجوناثان ليتل. واستطاع الأخير أن يحقق نجاحاً باهراً في هذا السياق بعدما حاز ثناء النقاد وتوج بجائزتي «غونكور» والأكاديمية الفرنسية بعد صدور روايته ـ Les Bienveillantes عن دار «غاليمار». إلا أن اللافت هو أن ليتل حديث العهد في هذا الإطار خلافاً

للأسماء الأخرى التي تضمنتها اللائحة، إذ يصدر كل من هؤلاء الكتاب كل عام تقريباً رواية جديدة. وهم يفخرون بقدرتهم على عدم إيلاء العناية لآراء النقاد لأن قراءهم لا يفرضون عليهم شروطاً مسبقة، إلا أنهم يعربون عن وفائهم لدور النشر التي انطلقوا منها.

لكن هذا التصنيف يظهر أن أزمة النشر تطال مؤلفي أكثر الكتب رواجاً. ففي عام 2005 تجاوز عدد النسخ المباعة من مؤلفات مارك ليفي عتبة المليوني دولار، تلاه ويربير الذي بلغت نسبة مبيعاته مليوناً و225 ألفاً إضافة إلى إميلي نوتومب وآنا غافالدا اللتين تخطت مبيعات مؤلفاتهما المليون نسخة. قد يعد ذلك مؤشراً على أنه يمكن للكاتب أن يصنع مجد دار نشر صغيرة. وهي حال فارغاس التي مثلت كتبها نجاحاً كبيرا بالنسبة إلى ناشرتها فيفيان هامي وكذلك آنا غافالدا التي حققت نجاح دار النشر «لا ديليتانتي»، علماً أن انطلاقة هؤلاء الكتاب كانت بمثابة كارثة اقتصادية بالنسبة إلى دور نشرهم.

وإذا ما اتبعنا في تحليل تصنيفنا هذا الأرقام الدالة على الأرباح التي حققها هؤلاء الروائيون، لوجدنا على سبيل المثال أن جوناثان ليتل يأتي في المرتبة الثانية، إذ يبلغ ثمن النسخة الواحدة من روايته 25 يورو، ما يعني أنها عادت على مؤلفها ودار النشر بنحو 12 مليون يورو. وحل في المرتبة العاشرة الكاتب، بونوا غرولت الذي عاد إلى الواجهة بفضل روايته La Touche étoile التي بيعت منها نحو 213 ألف نسخة. وتجاوزت أرباح كريستيان جاك الخمسة ملايين يورو. إلا أنه لم يحقق هذا الرقم إلا نتيجة تراكم مئة من أعماله. وقد كانت لحجم الكتاب وشكله أهمية كبيرة في ما يتعلق بنسبة المبيعات. فقد حصل الفقراء على نحو مليون نسخة من أعمال ليفي التي صدرت في قطع صغير.

لا بد من التذكير بأن العقود التي وقّعها هؤلاء الكتاب مع الناشرين تنص على أن يحصلوا على 10 إلى 15 في المئة من ثمن بيع مؤلفاتهم خضوعاً لما يسمى حق المؤلف. من هذا المنطلق، بلغت عائدات بيتل العام الماضي مليون يورو، أما مارك ليفي فيأمل في أن تتجاوز أرباحه المليونين[1].

«غوديو» البلجيكية تناضل كي تبقى «قرية الكتب»[2]

كل اللوحات المرورية محايدة على الطريق الذي يخترق غابات الجنوب البلجيكي (والونيا) وهضابه. كلها تكتفي بذكر اسم القرية أو المدينة، ومن وقت إلى آخر تورد المسافة. لكن لافتة واحدة تشذ عن القاعدة، وتتحرش بالعابرين: «زوروا قرية الكتب غوديو Redu».

يظن من يزور «غوديو» للمرة الأولى، أنه سيتعثر بالكتب في الطرقات. ولكن عند التجول في القرية، أول فكرة تراود الزائر أنه ربما حل في قرية مهجورة. صمت لاذع يلف المكان. لا أحد في الطرقات، باستثناء بعض السياح الذين تميزهم حقائب الظهر.. وبالمصادفة يخرج رجل وامرأة متقدمان في السن، ويدعوان إلى دخول محلهما، وبمجرد الدخول ينفتح المكان على رفوف مزدحمة بالكتب القديمة (المستخدمة) بالفرنسية والهولندية والإنكليزية والألمانية: تاريخ، شعر، رواية، كتب مرسومة، مجلات ودوريات ثقافية وسياسية... إضافة إلى «كتب نادرة».

إذاً، يجب على من يريد رؤية الكتب، في قرية الكتب، البحث عنها. الكثير من المحال، أو المكتبات كما تدعى هناك، وضعت عليها

---

(1) البلد 2007/1/12- عن "لوفيغارو"

(2) وسيم ابراهيم، الحياة 2008/9/26

لافتة صغيرة «مغلق» وعند الاستفسار من مكتب الاستعلامات في «غوديو» يتضح أن ذلك من تقاليد الأيام العادية. كل المكتبات تفتح أبوابها أيام العطل الأسبوعية، والعطل المدرسية، أما في الأيام العادية «فيعمل من يريد العيش من مهنة بيع الكتب».

هكذا يفسر فيليب إيفغاغ عمل مكتبته، ويوضح أن «هناك الكثير من أصحاب المكتبات يعملون في مهن أخرى، وهناك مكتبات يملكها متقاعدون مولعون بالكتب، ويستخدمونها بمزاج لشغل وقت فراغهم».

أسعار الكتب (المستخدمة) رخيصة جداً مقارنة بالكتب الجديدة. مثلاً، ثلاثة كتب، رواية لصموئيل بيكيت وأخرى لغابرييل غارسيا ماركيز ورواية للكاتب البلجيكي توم لانوا اشترتها زبونة بسبعة يورو. سعر يبدو مذهلاً حتى بالنسبة إلى هواة شراء الكتب القديمة في العالم العربي...

الاحتفال، أو المعرض الأساس للكتاب تقيمه القرية في عطلة عيد الفصح، وهو بمثابة عيد ميلاد «قرية الكتب» التي نظمت أول معرض للكتاب المستخدم عام 1984. ففكرة القرية ولدت آنذاك من لقاء أربعة أشخاص: الصحافي البلجيكي جيرار فالي، والذي كان يقدم برنامجاً ثقافياً معروفاً في التلفزيون البلجيكي (الوالوني) ورجل مهووس بجمع الكتب، وصاحب غاليري ورئيس بلدية القرية. هؤلاء الأربعة قرروا أن «غوديو» ستصبح قرية للكتب، ونظموا أول معرض فيها للكتب القديمة، حيث كانت الكتب «في كل مكان: في الإسطبل والمدرسة وساحات البيوت والأرصفة». على حد وصف فيليب إيفغاغ.

وبعد المعرض قرر الكثير من العاملين في محال الكتب المستخدمة افتتاح مكتبات لهم في القرية، مكتبات ضربت جذوراً في المكان.

وإلى جانب معرض عطلة الفصح، تنظم القرية أربعة معارض أخرى، منها «ليلة الكتاب» في أول سبت من شهر آب (أغسطس) وهناك أيضاً معرض متخصص بـ «المهن المرتبطة بالكتاب»، إذ تضم القرية مهنتي صناعة الورق يدوياً وأيضاً تجليد الكتب وتغليفها.

فيليب ليس من سكان القرية الأصليين، بل استقر فيها منذ 16 سنة، والذي جاء به إليها كما يعلق «الحب ومن ثم الكتب». زوجته كانت تملك مطعماً في القرية، وكي يبقيا سوية قررا افتتاح مكتبة والعمل فيها، ومكتبته تضم الآن 15 ألف كتاب تقريباً. يقول إن إيقاع العمل والحركة في القرية يزداد كثيراً خلال العطل «التي تشكل محركاً أساسياً لعمل المكتبات». نحو 200 ألف زائر يقصدون القرية سنوياً، وهي تحوي 24 مكتبة ثانية، لكن على الرغم من ذلك، يشير فيليب إلى أن دائرة الاستعلامات تضطر لطبع بروشور جديد كل سنة لعناوين المكتبات «لأن هناك كثيرين يأتون لفتح مكتبات جديدة ثم يغادرون»، ومع ذلك فإن المكتبات الـ 24 ثابتة لأسباب أخرى تتعلق «بالارتفاع الكبير لأسعار العقارات والذي يحول دون افتتاح مكتبات جديدة».

«الكتاب يجعل القرية تعيش»، وبفضله، ومقارنة بالقرى الأخرى، تحوي «غوديو» مقاهي ومطاعم وفنادق، وترتفع فيها أسعار العقارات بنسبة 20 في المئة.

تغير الكثير منذ صارت القرية مسكناً للكتب القديمة. البيع صار أقل، والكتاب «لم يعد وحده العنوان الرئيس للزيارة» فالكثير من الزوّار يقصدون القرية ليروا ما هي عليه من «قرية للكتاب»، يأكلون ويشربون ويغادرون. أصحاب المكتبات يتقدمون في السن.

ويناضل سكان القرية، وأصحاب مكتباتها، لحمل وزارة الثقافة البلجيكية الوالونية على إعلان «غوديو» قرية ثقافية لكن «الوزارة لا تهتم بنا كما يجب» يعلق فيليب، وللتشديد على «الإهمال» يشير إلى ندرة المعلومات للترويج للقرية، حتى في دائرة استعلاماتها. والمفارقة أن المعلومات الوافية والوحيدة التي تقدمها الدائرة هي محاضرة ألقاها فيليب في تظاهرة «الفن والمدينة» التي دعى إليها في كندا. كانت القرية أول قرية للكتب في أوروبا، الآن هناك قرى كثيرة مشابهة في فرنسا وإيطاليا وسويسرا والنروج.

تيارات متعددة وكتاب مدرسي واحد[1]

نظم معهد جورج إيكرت الدولي لبحوث الكتاب المدرسي، ومقره في ألمانيا، مؤتمراً مهماً تحت عنوان «تيارات متعددة وكتاب مدرسي واحد: العملية التعليمية ومحيطها الثقافي في العالم العربي». انعقد المؤتمر في فندق زوسر بالقاهرة في الفترة ما بين 29 ـ 31 تشرين الأول 2007، وجمع نخبة متميزة من الباحثين التربويين، والمؤرخين، وعلماء الاجتماع، والأدباء وقد وفدوا من دول أوروبية وعربية.

توزعت أعمال المؤتمر على أربع جلسات حملت العناوين بين الدين والعلمانية، ومنهجية تحليل الكتاب المدرسي وطرق إصلاحه، وصورة الذات والآخر في الكتاب المدرسي، وجاءت الأبحاث التي قدمت فيها على التوالي: صورة أوروبا في الإعلام العربي، وصورة أوروبا لدى المثقف العربي في القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، وصورة أوروبا في الأدب العربي. والغرب في عيون كاتب

---

(1) المستقبل 2007/11/18.

عراقي ودور الدين في التعليم المدني في مصر، والتعليم اليمني بين الخطاب الديني والمبادئ العلمانية، ومنهجية ومعايير تحليل الكتاب المدرسي في مصر، وتحليل قضايا وإمكانات في الكتاب المدرسي، وعملية إنتاج الكتاب المدرسي في مصر، وتطوير المناهج والكتاب المدرسي في لبنان، وإصلاح التعليم في سلطنة عمان وعلاقته بتأهيل المعلم، وإصلاح اللغة العربية: التحديات وردود الأفعال والتحولات الاجتماعية وإصلاح التعليم في العالم العربي، وصورة أوروبا في كتب التاريخ المدرسية في المغرب، وتدريس التاريخ في مجتمع متعدد الطوائف: تجربة لبنان، ودراسة مقارنة على صورة النوع الاجتماعي في المناهج الدراسية في بعض الدول العربية، والرسائل الخفية في الصور المتضمنة في كتب الدراسات الاجتماعية في الأردن.

أبرزت النقاشات المعمقة أن عملية إنتاج الكتاب المدرسي، بمختلف أشكاله، معقدة جداً وتحتاج إلى تضافر جهود المثقفين والفلاسفة والأدباء والتربويين وغيرهم من العاملين في مجال العلوم الإنسانية قبل أن تتحول إلى مادة التثاقف طويل الأمد بين المعلم والطالب، فهي نتاج تفاعل ثقافي وتربوي وتقني تشارك فيه، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، نخب ثقافية عربية مع تربويين من ذوي الإطلاع الدقيق على أحدث المناهج التعليمية في العالم، وذلك يتطلب تخطيطاً دقيقاً يطال المناهج، والبرامج وطرق التدريس، وجمالية إخراج الكتاب بشكل عصري، واحترام الدقة والموضوعية في تقديم المعلومات والتشديد على أهمية الوثائق والصور في توضيح المادة الثقافية وغيرها.

وبدا واضحاً أن إنتاج كتاب التاريخ المدرسي الموحد هو الأكثر صعوبة في سلم الكتب التربوية لأنه يثير الكثير من الحساسيات، ويكفي

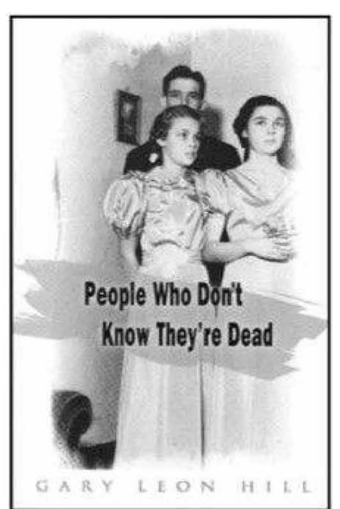
التذكير بأن بعض الدول، ومنها لبنان، ما زالت عاجزة عن إصدار كتاب تاريخ مدرسي موحد يدرس في جميع المدارس العاملة على أرضه، رسمية كانت أم خاصة.

تجدر الإشارة إلى أن إصدار كتاب تاريخ مدرسي في اليابان أثار الكثير من المشكلات السياسية مع دول الجوار، خاصة مع الصين وكوريا، وتدخلت الأيديولوجيا بشكل مكثف لتحديد علاقة الماضي بالحاضر، والإصرار على التمسك بخصوصية الذات اليابانية في مختلف مراحل تطورها، ومن ضمنها المرحلة الإمبريالية.

أغرب عنوان لكتاب[1]

اختير عنوان كتاب رجال البريد القرويون وأعدادهم الملغاة، على أنه الأغرب خلال السنوات الثلاثين الماضية.

وأوردت صحيفة «غارديان» أن قرّاء مجلة «بوكسيلر» اختاروا عنوان هذا الكتاب الذي أصدرته الجمعية اليونانية «هيلينك فيلاتيليك أوف غريت بريتن» التي أسست في بريطانيا عام 1960 للتشجيع على جمع الطوابع، بسبب غرابته.



ومن بين عناوين الكتب الأخرى التي اختيرت بسبب غرابتها كتاب عنوانه «الناس الذين لا يعرفون أنهم أموات: كيف ألصقوا أنفسهم بمتفرجين غير متوقعين»، وآخر بعنوان «كيف ستتصرف؟ كيف تتجنب السفن الضخمة؟».

---

(1) الحياة 2008/9/7.

وقال المسؤول في المجلة فيليب ستون «أعتقد أن الذين صوتوا لاختيار أغرب عناوين للكتب أرادوا قراءة قصص جيدة حول رجل البريد في المناطق الريفية، خصوصاً مع ورود أنباء عن إغلاق الكثير من مكاتب البريد في بريطانيا».

وأضاف: «لن تكون هناك جوائز لهذه الكتب، لكن مبيعاتها زادت بكل تأكيد»، مشيراً إلى أنه «عندما وضعنا قائمة للاختيار النهائي منها ازدادت مبيعاتها بنسبة 100 في المئة».

«بن لادن يروج لكتاب»[1]

بعد أربع وعشرين ساعة من شريط زعيم تنظيم «القاعدة» أسامة بن لادن» للعالم كله، والذي دعا فيه الأميركيين إلى قراءة كتاب المؤرخ ويليام بلام «الدولة المارقة»، لا يزال بلام يحاول التكيف مع الأمر، فكتابه صعد بقوة وفي غضون ساعات إلى دائرة الكتب الأكثر مبيعاً، كما أن العديد من وسائل الإعلام تسعى وراءه لأخذ رأيه في كلام بن لادن حول كتابه. غير أن كلام المؤرخ، البالغ من العمر 72 سنة، والمعتاد على التعامل في أوساط الكتاب والمثقفين اليساريين غير المعتادين على الأضواء، تحكم في عواطفه، وقال إنه صدم مما حدث لكنه يشعر بالسعادة.

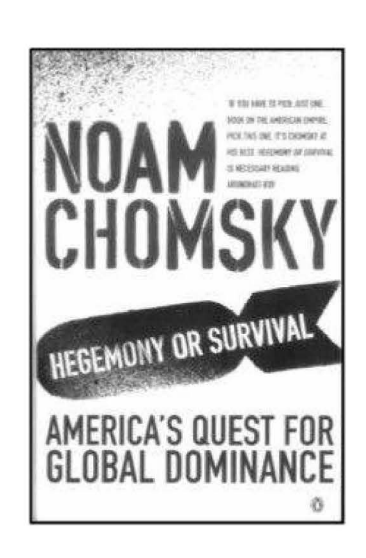
الرئيس الفنزويلي تشافيز يرفع مبيع كتاب تشومسكي[2]

ارتفع حجم مبيعات أحد كتب المثقف الأميركي اليساري نعوم تشومسكي Noam Chomsky منذ جاء الرئيس الفنزويلي أوغو تشافيز على ذكره في خطابه الذي ألقاه على منبر الأمم المتحدة.

---

(1) الشرق الأوسط، 2006/1/22.

(2) الحياة، 2006/9/25.



«يجب على الأميركيين أن يقرأوا هذا الكتاب Hegemony or Survival: America's Quest for Global Dominance بدل أن يشاهدوا الرجل الخارق سوبرمان»، قال تشافيز في خطابه الأربعاء الماضي، وهو يلوح بالكتاب المذكور أمام كاميرات العالم أجمع.

لم يمض على خطابه هذا أكثر من يومين، حتى أصبح كتاب شومسكي الذي نشر عام 2003، الأكثر مبيعاً على موقع الإنترنت amazon.com وثالث الكتب الأكثر مبيعاً في سلسلة مكتبات «بارنز ونوبل Barnes & Noble» الأميركية الشهيرة.

أوبرا وينفري أفضل مروّجة للكتب

تسببت مقدمة البرامج الحوارية الشهيرة أوبرا وينفري باحتلال الروائي وليام فوكنر الفائز بجائزة نوبل في الأدب صدارة قائمة أفضل الكتب مبيعاً فأثبتت بذلك أن فقرة «نادي الكتاب» في برنامجها التلفزيوني الشهير هي من أهم وسائل زيادة المبيعات في مجال النشر.

فخلال 24 ساعة من اختياره كأفضل كتاب خلال الصيف عبر فقرة نادي الكتاب الخاص ببرنامج أوبرا قفزت مبيعات المجلد الذي يضم روايات فوكنر الثلاث وهي «على فراش الموت» و«الصوت والغضب» و«ضوء في أغسطس» إلى المركز الثاني على موقع أمازون بعد رواية سلسلة هاري بوتر الجديدة لجيهكيه رولينج التي ستطرح في الأسواق في تموز المقبل.

وذكرت مجلة «بابليشر ويكلي» أن وحدة فينتاجي التابعة لدار راندوم للنشر شحنت 500 ألف نسخة من المجلد.

وبدأ نادي الكتاب كفقرة في برنامج أوبرا وينفري الحواري في عام 1996. وساعد وضع شعار نادي الكتاب الخاص بأوبرا على غلاف الكثير من الروايات التي وقع عليها الاختيار، في ارتفاع مبيعاتها بما يزيد على المليون نسخة.

وعقب اختيار وينفري لرواية «شرق عدن» في صيف 2003 باعت الرواية ما يزيد على 1.2 مليون نسخة كما باعت رواية «أنا كارنينا» التي اختارتها كأفضل رواية الصيف الماضي ما يزيد على 900 ألف نسخة.